C



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ـ وزارة الثقافة العراقية لسنة ٢٠١٥ - ٢٤٤١

مصدر الفهرسة:	IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda
رقم استدعاء مكتبة الكونجرس:	PJ 7842 .H8 H5 2015
المؤلف الشخصي:	الحلي، شذي عبد الكاظم
العنوان:	تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي: ١٩٩٠ – ٢٠١٠
بيانات المسؤولية:	تأليف شذى عبد الكاظم الحلي؛ [تقديم السيد محمد علي الحلو]
بيانات الطبعة:	الطبعة الأولى
بيانات النشر:	كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة – قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والبحوث الاسلامية – وحدة الدراسات التخصصية في الامام الحسين عليه السلام ١٤٣٧هـ= ٢٠١٦م
الوصف المادي:	٢٢٣ صفحة
سلسلة النشر:	قسم الشؤون الفكرية والثقافية؛ (١٦٩)
تبصرة عامة:	الاصل أطروحة (دكتوراه). جامعة بغداد
تبصرة ببليوغرافية:	يحتوي على هوامش
موضوع شخصي:	الحسين بن علي (ع) الشهيد، الامام الثالث، ٤ – ٦١هجرياً – الشعر.
مصطلح موضوعي:	الشعر الديني الاسلامي – تاريخ ونقد.
مصطلح موضوعي:	المكان في الشعر العربي – العراق – كربلاء – تاريخ ونقد – القرن ٢٠.
مصطلح موضوعي:	واقعة كربلاء، ٦١ هجرياً – شعر.
مصطلح موضوعي:	شعر مذهبي عربي – القرن ٢٠.
مصطلح موضوعي:	المكان – تصورات شعرية.
مصطلح موضوع جغرافي:	كربلاء (العراق) – تاريخ
مؤلف اضافي:	الحلو، محمدعلي، ١٩٥٧ - ، مقدم.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة



تأليف

شذى عبد الكاظم الحلي

إصدار
وحدة الدراسات التخصصية في الإمام الحسين صلوات الله عليه
في قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

طُبِعَ برعاية

العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

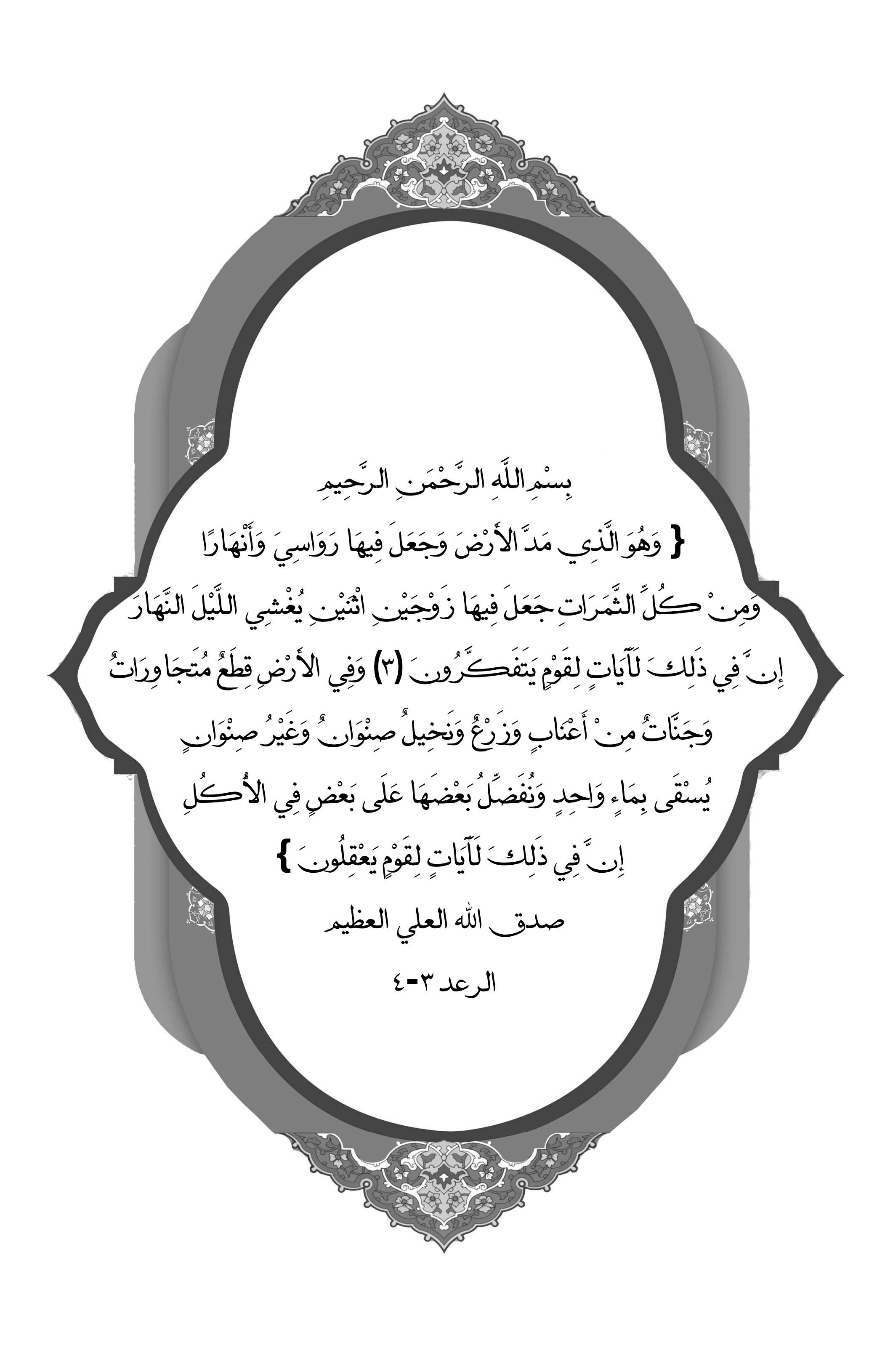


العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩

www.imamhussain-lib.com

E-mail: info@imamhussain-lib.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

صدق الله العلي العظيم

الرعد ٣-٤

الإهداء

إلى... النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار...

إلى... سيد الأحرار، والأرواح التي حلت بفنائه وأناخت برحله إستنصاراً لنهضته، وتلبية لندائه: " ألا من ناصر ينصرنا.."

فأستميحك عذراً سيدي أبا عبد الله إن شط بي القلم أو قصرت...

اللهم اجعل لي هذا العمل ذخراً أنال به شفاعة نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم

إلى... إمام زماننا الحجة ابن الحسن المهدي عليه السلام

إلى... مدينة الحسين عليه السلام... كربلاء المقدسة

إلى... نبعي الحنان أمي وخالتي

إلى... إخوتي وأخواتي حبّاً وإعتزازاً

أُهدي ثمرة جهدي هذا

الباحثة

مقدمة اللجنة العلمية

لم يُعد المكان في التراث الكربلائي مساحةً جغرافية تحددها أبعادها المحصورة بين قياسات مكانية محددة، بل صار المكان في المفهوم الكربلائي معنى شاسعاً لتصورات الجميع الذين يقرأون كربلاء ملحمة الزمان، وقداسة الحدث، وطهارة الواقعة، حتى بات الزمان مندكاً بالمكان اندكاكاً لا يكاد يفارقه، وكيف يفارقه والزمان هو مبدع المكان وملحمته، ولم يتوقف الزمن الكربلائي بأحداثه المتشابكة مجرد محطات زمانكية يستذكرها المتلقي بقدر ما هي علاقة زمانية وثيقة ترتبط بالمقدس الذي لا ينفك عن مخيلة الجمع، ويستعيد المكان الكربلائي حضوره في كل مناسبة من مناسبات التاريخ ليجد عاشوراء حاضرة في مطاوي صفحاته الموغلة في عمق الوجدان والشعور الذي ارتبط بأحداث الطف حتى وجد المتلقي نفسه يستعيد مجريات الأحداث مرتبطة بكربلاء المكان، وبأحداثها وشخوصها ومأساتها وكل دقائقها، وإذا كان المتلقي مجبولاً على الرابط الزمانكي في كل تصوارته، فإنّ الشعر بات أسيراً لهذا المكان، فالشاعر تتغذى أحاسيسه الكربلائية كلما عادت إليه ذكريات كربلاء بمكانها المفعم بذكريات المأساة، وتستنهض لديه

الأحاسيس التي تجيش بصورٍ متتابعة يُسقطها المكان على مخيلة الشاعر، فتدفع لديه روح الإبداع الشعري ليستلهم من المكان الكربلائي أحاسيسه الإبداعية التي ما انفكت عن الواقعة بكل أحداثها.

وإذا كان المكان الكربلائي ملهماً للقصيدة الكربلائية التي تجول في خلد الشاعر قبل ولادها، فإنّ الحدث الكربلائي دافعٌ لهذا الإحساس القطر بدواعي العاطفة مرة، والدفاع عن القيم أخرى، والمؤرخ التوثيقي تارةً ثالثة، وهكذا فإنّ تداعيات الحدث الكربلائي المدفوع بدواعٍ إنسانية يرتبط دائماً بولادة الحدث، وسيكون المكان داعياً إبداعياً في تدوين الأحاسيس الإبداعية بشكلها التوليفي بين المكان والزمان، لترتبط القصيدة بأماكن الأحداث، كربلاء الكوفة، كربلاء الشام، كربلاء المدينة، وهي محطات كربلائية شهدت المأساة وعاشت صورها التراتيجيدية بكل عنفها وعنفوانها، وآلامها وآمالها، أي بكل إسقاطاتها التاريخية المحيكة في هذه الرحلة المفجعة.

من هنا تنطل بحوث الكاتبة الدكتورة شذى عبد الكاظم الحلي، التي ما انفكت عن الحالة الكربلائية لتتابعها بأحداثها المفجعة لكنها المرتبطة بالمكان الكربلائي الواسع في استطراداته المتفاعلة مع أحاسيس الشاعر كما هي دواعي الكاتب، وأبحاث المحقق كما هي توجهات الباحث، ويبقى المتلقي الكربلائي بعيداً عن إرهاصات المشروع الثقافي بقدر ما هو مرتبطاً بفطرته الكربلائية التي تأخذه منساقاً للحدث دون تأثير خارجي آخر، وقد أعطت الباحثة بُعداً آخر للمكان الكربلائي من خلال متابعة إمكانية الشاعر الذي يرتبط بالحدث، كما يرتبط المكان بأحاسيسه وانفعالاته.

وبوسع الدراسة أن تستوعب مرحلة مهمة من مراحل العطاء الكربلائي ليتجذر من الدم الكربلائي المهدور على أرضه المعطاء الى كل أسباب المكان، ودواعي الزمان المقهوران بغلبة الدم على السيف، والمبادئ على الاستبداد، ويتلازمان هذان كلما استنفر الباحث طاقاته ليصل الى ما وصلت إليه الباحثة في دراستها الجدية... بل الجديدة.

عن اللجنة العلمية

السيد محمد علي الحلو

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره ودليلاً على نِعَمه وآلائه، والصلاة والسلام على أشرف الخلائق محمد وآله الطيبين الطاهرين...

وبعد.. فإنّ الدراسة المكانية تعد من الدراسات الحديثة التي انصبت في أول أمرها على الرواية، والقصة، والمسرحية؛ لأنّ المكان يشغل حيزاً رئيساً في بنيتها، وأرضية تتحرك عليها شخصياتها، بل يتعدى هذا الى ما يظهره العنصر المكاني من أنماط لتلك الشخصيات، وما يحيط بها، ويكشف عن أبعادها المختلفة، وهذا ما جعل هذه الدراسات تمتد الى الشعر الذي ظل زمناً بعيداً عنها، حتى أدرك عدد من الباحثين أهمية المكان في البينة الشعرية، فأخذوا يبحثون عن المكان في شعر الشعراء في مختلف العصور.

تتميز الحياة الأدبية لكل مدينة عن غيرها بميزة معينة ترجع إلى عدة عوامل وأسباب تؤثر فيها تأثيراً مباشراً، والاهتمام بدراسة أدب المدن يؤدي إلى وضوح المعالم فيها وفي أي حقبة زمنية كانت، فكيف بنا لو وقفنا أمام مدينة لا تخفى ولا تغيب عن قلوب المحبين ألا وهي (كربلاء)، تلك المدينة التي تهفو إليها أفئدة العرب خاصة والمسلمين عامة بسبب احتضانها مرقد سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام وأهل بيته وأصحابه الصديقين.

أما أدبها فقد امتزج بواقعة كربلاء حيث انبعث من خلالها مختلف الألوان الأدبية التي تثير النفوس من خلال ثورة جامحة لا نستطيع ردها وصورة محمومة بالعاطفة والآلام والتوجع والزفرات، وحسب الأدب أن يكون له مثل واقعة الطف باحثاً وعاملاً يمدانه بالخلق والإبداع.

فجاءت هذه الدراسة مكونة من مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

جاءت المقدمة كاشفة مادة هذه الأُطروحة، وترتيب خطتها، وبيّنتُ في التمهيد أهمية المكان في النص الأدبي، والمكان لغةً واصطلاحاً، وكذلك إلمامة تاريخية موجزة عن كربلاء.

والفصل الأول: تناول كربلاء مكاناً طارداً ويقع في ثلاثة مباحث الأول: معاني كربلاء المقدسة، والمبحث الثاني: أرض كربلاء وقداسة تُربتها عند الشعراء، والمبحث الثالث: تحولات المكان الحسيني (الكربلائي) في الشعر العراقي.

ودرس الفصل الثاني، كربلاء مكاناً حسينياً جاذباً، عبر مدخل وستة مباحث، وقف الأول: على أنّ كربلاء روضة من رياض الجنة، والثاني: على أنّ كربلاء قبلة أنظار العالم، والثالث: على أن كربلاء مكان حسيني مزدهر، اما الرابع: المكان الحسيني رمزٌ ثوريٌّ، وكان الخامس: لغة الشعر، والسادس: الصورة الشعرية.

واهتم الفصل الثالث بدراسة: تحولات المكان الحسيني بعد واقعة الطف ويقع في ثلاثة مباحث هي: المبحث الأول: الدخول الى الكوفة، والمبحث الثاني: سبايا آل محمد صلى الله عليه وآله في الكوفة، والمبحث الثالث: الشام مكانٌ حسينيٌّ طاردٌ، والمبحث الرابع: تحولات المكان الحسيني (كربلاء) عند الشعراء غير المسلمين.

أما الفصل الرابع: فهو التشكيل البصري في شعر تحولات المكان الحسيني،

وفيه ثلاثة مباحث، المبحث الأول: الشكل الشعري المقفى، والمبحث الثاني: الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة)، والمبحث الثالث: الشكل الشعري (قصيدة النثر).

في حقيقة الأمر لا يستطيع أحد أن يلم بتاريخ مدينة ما لاسيما مدينة كربلاء لأنها تعتبر منطقة حضارية عريقة لها أبعادها التاريخية وسماتها الدينية والثقافية وكل من يعثر على جديد يرى أن هناك حلقات مفقودة لم ينفض الغبار عنها من قبل والمجال واسع أمام الباحثين لاستخراج الكنوز الدفينة.

وقد أخذت مادة بحثي من دواوين الشعراء العراقيين المعاصرين، وكتب الشعر والأدب، حتى تكونت لدي مادة غزيرة أملت عليّ أن أرسم لها خطة تغاير الكثير من خطط الدراسات المكانية؛ للإحاطة بهذا التنوع المكاني الكبير، وجمع شعثه.

أما مصادر البحث فقد سعيتُ إلى أن تكون موضوعية، ومعروفة في الأوساط الأكاديميَّة، وذات طبعات جيدة بقدر الإمكان، وقد توزعت فيما بين الدواوين والمجاميع الشعريَّة، والمعاجم اللغوية، وكتب النقد القديمة والحديثة، وكتب الأدب وتاريخه، وكتب التحليل النفسي والاجتماعي للأدب، فضلاً عن كتب الحديث والتاريخ والفلسفة، مما هو مذكور في قائمة المصادر، ولم أحرم بحثي من الرسائل الجامعية والأطاريح. وقد كان منهجي في الدراسة المنهج التحليلي الوصفي للنصوص المدروسة.

وقد بذلت ما في وسعي من جهد، وآثرت العناء على الراحة، فإنّ أحسنت فذلك بفضل الله، وعسى أن يكون عملي هذا قربة إلى الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحثة



التمهيد

أهمية المكان في النص الأدبي

مفهوم المكان

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن المكان في كتابه الكريم في أماكن عديدة حيث كانت بداية الخلق أن جعل الأرض مادةً للحياة، ومهبطاً لأول خليفة فيها. بعد أن دحاها، فصارت قراراً، ومكن الأنام منها وغدت بعد ذلك مكاناً ذلولاً. لقد ظل الإنسان مرتبطاً برحم الأرض.. منذ إشراقة أول نسمة للحياة على الكون ولا يزال كذلك إذ لا ينازعه في هذا الحس الوجداني أي من الكائنات الأخرى[١].

والأرض عند العرب بمثابة الأم التي تحضن أولادها بين جنبيها، وتمنحهم صفاتها كما "هي الأم التي تطبع الكائنات بطابعها وتسمها بسماتها، على نحو عجيب يصعب التعبير عنه"[٢]، وقد عبر عنها أمية بن أبي الصلت بقوله:

والأرضُ مَعْقِلُنا وكانت أُمّنا   فيها مقابِرُنا وفيها نُولَدُ [٣]

(١) ينظر: المكان في الشعر العربي قبل الاسلام، حيدر لازم مطلك، رسالة ماجستير /٦.

(٢) الطيماوس واكيرتيس/ ٢٦٧.

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت / ١٨٨.

وقوله:

منها خلقنا وكانت أُمنا خُلقت ونحن أبناؤها لوأننا شُكُرُ

هي القرار فما نَبْغي بها بدَلا ما أرحمَ الأرضَ إلا أننا كُفُرُ[١]

فالأرض هي البداية الأولى لدراسة المكان وأبعاده الفنية والفكرية.

وللمكان دور كبير في حياة أي إنسان، ولا ريب في ذلك فهو الركن الأساس الذي يمارس فيه تكوينه الحياتي، وبعد أن تتفتح مداركه يبدأ بتحديد أبعاده المكانية من خلال حياته العملية، وحتى أن ينتهي المطاف به إلى مكانه الأخير.

ومن هنا كان الإحساس بالمكان إحساساً فطرياً، ومتأصلاً في النفس البشرية، ويشترك في هذا الإحساس جميع الناس" فالمكان أكثر التصاقاً بحياة الإنسان، وإن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي ومباشر، وهو يستمر مع الإنسان طوال سني عمره[٢].

فالعلاقة بين الإنسان والمكان علاقة قديمة وراسخة في الذات البشرية، "واستخدام الإنسان للمكان هو استخدام يومي ومستمر، سواء بقصد العيش، أو التواصل مع الآخرين، وهذا الاستخدام اليومي للمكان يكسب المكان أهمية خاصة، لأنه يؤدي دوراً يسهم مع عناصر أخرى كالشخصية، والبيئة الاجتماعية الثقافية في تكوين السلوك الإنساني"[٣].

كما أن صلاحية توظيف المكان في النص الأدبي متوقفة على أمرين:

---

(١) المصدر نفسه /٢٢٩.

(٢) ينظر: خصوصية التشكيل الجمالي في ادب طه حسين، نبيلة إبراهيم /٤٩ -٥٠.

(٣) الزمن والمكان دراسة سيميائية، باسم الشريف /٤٩.

أحدهما: التطور التاريخي والتبدل الحضاري الذي يترتب عليه تبدل أذواق الناس وتصوراهم. فلا يمكن لنا أن نوظف المكان الذي كان يوظفه أسلافنا في عصور غير عصرنا، وإن لم يكن هذا الأمر قاطعاً، ولا عجب أن نرى ذكراً للصحراء، أو الأطلال في شعرنا الحديث، ولكن لغاية تختلف عن غاية من سلفنا، وشكل يختلف عن شكل المكان الذي وظفه أسلافنا في زمان غير زماننا، وقيم تختلف عن قيمنا، وإدراك يختلف عن إدراكاتنا، والأمر الآخر: ثقافة الشاعر، وقدرته على توظيف المكان في النص الأدبي، فكلما كان الشاعر أكثر قدرة على تسخير المكان لخدمة فكرته كان أكثر نجاحاً في توظيفه[١].

وإذا كان الإنسان بشكل عام في ارتباط عميق مع المكان، فلا شك في أن الشاعر في ارتباطه بالمكان سيكون أكثر عمقاً وإدراكاً لمعطياته، التي يمنحها ديناميكية التفاعل، ويضفي عليها صوراً جمالية.

وهذا ما هو عليه الشاعر منذ عهود بعيدة إذ لا يستطيع أن يبرح المكان، والمكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء، بل يحمل من سابقيه الذين رحلوا بقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخاطبه"[٢].

أما في نطاق الإبداع المعاصر، فإنّ الأمر يبدو أكثر تناغماً وفاعلية، إذ أصبح "المكان هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات"[٣]. كما أن الانجذاب إلى المكان واستنطاق دلالاته التاريخية والحضارية يعمق رؤية الشاعر، وينافح عن

---

(١) ينظر: فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر، د.حبيب مونسي/٢٦.

(٢) ينظر: المكان في الشعر الاموي، جميل بدوي حمد الزهيري، اطروحة/ ١٣.

(٣) المكان في الشعر المهجري، حكيم صبري عبدالله /١٧.

مشاعره وأحاسيسه الباحثة عن التكيف .

وقد أجمع دارسو الأدب على أهمية المكان في العمل الأدبي، وتوقفوا عند دلالاته الكثيرة وجمالياته المتنوعة، وذهبوا إلى أن للمكان "عميق الأثر في الحياة البشرية، إذ ما من حركة إلا وهي مقترنة به، وما من فعل إلا وهو مستوحٍ لبعض دوافعه منه، وهو أعمق، وأكبر، وأهم من أن ينحصر في ما يمثله من ظرف أو وعاء"[١].

ونظراً للأهمية التي حظي بها المكان، لابد من توضيح مفهوم المكان لغة واصطلاحاً.

المكان لغةً

هو الموضع، والجمع أمكنة، وأماكن، وقيل: الميم في المكان أصل كأنه من التمكين دون الكون، وقد حكى سيبويه في جمعه (أمكن)، وهذا زائد في الدلالة على أن وزن الكلمة (فَعَال) دون (مَفْعَل)، إلا أن يكون مؤنثاً كأتان وأتن[٢].

فابن منظور أوردها تحت الجذر (كَونَ)، لكنه اعاد الحديث عنها تحت الجذر (مكِن) فقال: " المكان الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن جمع الجمع. وقال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعالاً لأنّ العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك" [٣]، قد دل هذا على أنه مصدر من كان، أو موضع منه، قال: وإنما جمع (أمْكِنة) فعاملوا الميم الزائدة معاملة الاصلية، لأنّ العرب تشبه الحرف بالحرف، كما قالوا: منارة ومنائر، فشبهوها (بفعاله) من النور، وكان جمعه

---

(١) المكان في الشعر العربي المعاصر، د. مؤنسي حبيب/٧.

(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة كون.

(٣) المصدر نفسه ، مادة (مكن).

(مَناوِر) [١] فابن منظور يؤكد من خلال تعريفه للمكان، وذكره تحت الجذرين (كوَن) و(مكِن)، أن المكان مشتق من الجذر (كون) مخالفاً بذلك ما ذهب إليه سيبويه، ومدللاً على ذلك بأقوال العرب، وهذا أيضاً ما ذهب إليه علماء اللغة، فالزبيدي (أحمد مرتضى الحسيني) استشهد بقول الليث: " المكان اشتقاقه من كان يكون، ولكنه مما كثر من الكلام صارت الميم كأنها أصلية" [٢].

ووافقهما الأزهري، ودلل على صحة الأصل "بأن العرب لا تقول هو مني مكان كذا وكذا بالنصب"[٣] إلا أن هذا الدليل الذي أورده الأزهري فيه خلاف لقول سيبويه: " وذلك قول العرب سمعنا منهم: هو مني منزل الشغاف، هو مني منزلة الولد، ويدلك على أنه ظرف قولك: هو مني بمنزلة الولد، فإنما أردت أن تجعله في ذلك الموضع، فصار كقولك: منزلي مكان كذا وكذا، وهو مني مزجر الكلب، وأنت مني مقعد القابلة، وذلك إذا دنا فلزق بك من بين يديك"[٤].

المكان اصطلاحاً

يأتي المكان عند العرب بمعنى: المكانة، أو المنزلة [٥]. فالمكان والمكانة بمعنى واحد هو: الموضع. وذكر الفراء: "له في قلبي مكانة وموقعة ومحلة" [٦]. ويقال هو

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) تاج العروس، أحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، مادة (مكن).

(٣) الأزهري، ج١/ ٣١١.

(٤) سيبويه، ج١ /٤١٢-٤١٣.

(٥) ينظر: جمهرة العرب، ج٣/١٧١.

(٦) تهذيب اللغة، (مكن)، ج١٠/٢٩٢.

رفيع المكان[١]، وقد استعملت لفظة" مكان في القرآن الكريم استعمالاً واسعاً، وبدلالات مختلفة حسب سياق التعبير القرآني لها، فقد ورد فيه لفظ: "مكان، مكاناً، مكانتكم، مكانه، مكانكم، مكانتهم"[٢]، مؤدية معنى أصلياً حقيقياً لهذا اللفظ وهو: "الموضع أو المستقر وهو على هذا اسم مكان من كان التامة"[٣]. كما في قوله تعالى: { وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ } [٤] و { إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا } [٥]، أي موضعاً. و { انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } [٦].

وأيضاً استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم استعمالاً مجازياً بمعنى المكان أو المنزلة المعنوية، أو الأدبية، أو الاجتماعية [٧]، كما في قوله تعالى: { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } [٨]، و { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ } [٩]، أي مكانة أو منزلة عالية مثل منزلته وكما في قوله تعالى: { أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } [١٠]، أي أسوأ مكانة وأقل منزلة في الدنيا والآخرة.

ومن خلال تلك التعريفات يتضح، أن للمكان معنى غير محدد، يحمل

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط، (مكن) ، ج٢/٨١٢.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (مكان) /٦٤١.

(٣) معجم الفاظ القرآن الكريم، ج٢/ ٥٤٤.

(٤) يونس/ ٢٢.

(٥) مريم/١٦.

(٦) الاعراف/ ١٤٣.

(٧) ينظر: معجم الفاظ القرآن الكريم، (مكان) ج٢/٥٤٤.

(٨) مريم/ ٥٧.

(٩) القصص/٨٢.

(١٠) المائدة/ ٦٠.

احتمالات كثيرة إضافة إلى أن المكان يحمل في مضمونه معنى الوجود، والحياة والكينونة، فلا تتم الحياة إلا في مكان يأخذ منها ويعطيها، لأنّ أصل مادته (ك و ن) التي تعني الحدث.

فالمكان دون سواه يثير إحساساً ما بالمواطنة وإحساساً آخر بالزمن وبالمحلية، حتى لنحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء من دونه، فقد حمّله بعض الروائيين تاريخ بلادهم، ومطامع شخوصهم فكان: واقعاً ورمزاً،.. مدناً وقرى، وكياناً نلتمسه ونراه أو كياناً مبنياً في المخيلة. كما هو المحيط الذي يطبع على حياة المجتمع بتأثيره على نشاطهم الاجتماعي في مختلف مجالات الحياة، فهو يؤثر في لون الإنسان وحجمه، ونوع نشاطه، لأننا نتحرك على مسرح الحياة طولاً، وعرضاً، ولا يمكن لأي كائن حي أن يعيش خارج المكان، أو ينفصل عنه انفصالاً تاماً.[١] وبذلك" يدخل المكان ضمن عملية التفاعل الحياتية للإنسان، فيصبح جزءاً من الواقع أو محتوياً بجزء من الواقع"[٢]. وبهذا يظهر" المكان جزءاً من تكوين الإنسان لذلك بقي المكان، لصيقاً بالتاريخ وبالحضارة وشاهداً حياً على التطور والتغير وسجلاً أميناً لأفعالنا وأفعال من سبقونا"[٣].

ويبدو أن المكان ستتسع دلالته الاصطلاحية ليشتمل على دلالة أكبر في نظر الفلاسفة وبالتحديد حين ينخرط مفهوم المكان في عدة حقول أدبية، وفلسفية، واجتماعية، وغيرها من حقول تساعد في صقل مفهوم المكان بفلسفتها الخاصة.

---

(١) ينظر: فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية، من منشورات اتحادالكتاب العرب، د.حبيب مؤنسي /٨.

(٢) اشكالية المكان في النص الادبي، ياسين النصير /٥.

(٣) الرواية والمكان، ياسين النصير /١٧.

المكان عند الشعراء العرب

إذا كان الإنسان بشكل عام في رباط عميق مع المكان، فلا شك في أن الشاعر في ارتباطه بالمكان سيكون أكثر عمقاً وإدراكاً لمعطياته، التي يمنحها ديناميكية التفاعل، ويضفي عليها صوراً جمالية. لأنها موغلة، ومتجذرة وعميقة، فضلاً عن اختلاف درجة إحساسهما بالأشياء. وهذا ما هو عليه الشاعر منذ عهود بعيدة إذ" لا يستطيع أن يبرح المكان، والمكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء، بل يحمل من سابقيه الذين رحلوا بقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخاطبه"[1].

إنّ الشعراء لم يقصروا تجربتهم على التجربة الذاتية والفنية فحسب، بل تحولت إلى تجربة قائمة على الشعور والفكر. فقد مزجوا بين التراث وثقافة العصر، التي أسهمت في رسم صورة فكرية جديدة للشاعر. لذا "فإنّ تطور الحياة الاجتماعية ألقى بظلاله على الأدب ومنه الشعر، فأخذ الشعراء يخوضون في شتى جوانب الحياة الفلسفية والدينية والسياسية والاجتماعية والأسطورية، لذلك كان طبيعياً أن تترك آثارهم على البناء الفكري للشعر كونه بناءً علائقياً يقوم على العلاقات بين العناصر كل منها حاكم للآخر ومحكوم به"[2].

ففاعلية المكان في الشعر في مختلف أغراضه تشكل عنصراً أساساً من عناصر إيضاح أفكار الشعراء، ومعانيهم في مختلف شؤون الحياة، كذلك يكون المكان أداة من أدوات الشاعر، ووسيلة من وسائله في تأدية المعاني المختلفة بسبب مقدرة

---

(١) المدينة في الشعر العربي" الجزائر أنموذجا (١٩٢٥-١٩٦٢)، إبراهيم روماني/٢٠٥.

(٢) الصورة والبناء الشعري: محمد حسين عبد الله، مكتبة الدراسات الأدبية (٨٣) دار المعارف، مصر ١٩٨١م/ ١٧٩.

أولئك الشعراء على تطويع المكان لأغراضهم المختلفة. وعليه "فالتركيز على المكان في الشعر يعطيه عمقاً وغزارة وخصوبة"(١).

إن وظيفة المكان في الشعر قائمة على الإبداع في التعبير، وهو ما يغاير وظيفة المكان في الرواية، فوظيفته في الرواية وظيفة مساعدة تعين المتلقي على تفسير الحدث الدائر في المكان الموظف، وشتان ما بين أسلوب الشعر الهادف الى مزج المكان بالزمان، وأسلوب الرواية القائم على التفسير الذي يقدم للمتلقي تفاصيل المكان وخصوصياته، لإيضاح فكرة الحدث (٢).

وقد نجد أحياناً توظيف مكان بعينه في أكثر من غرض وهذا التوظيف لا يأتي متطابقاً في كل الأغراض، بل به حاجة الى تدخل المبدع في إخضاع المكان لخدمة فكرته وموضوعه. وكلما كان الشاعر أكثر إبداعاً ترتب عليه قوة فاعلية المكان وحيوية وظيفته في الأغراض الشعرية. والفاعلية هي التوظيف الأمثل للمكان في النص الشعري؛ لإبراز الصورة الملائمة لذلك النص من أجل إيضاح الفكرة الشعرية والومضة الفكرية؛ لأنّ الشاعر الماهر هو الذي يحتال على واقعية المكان.

وكثير من الشعراء العرب الذين ذكروا المكان ووظفوه في أشعارهم بقدر إحساسهم به، منهم الفرزدق، وأمية بن أبي الصلت، والراعي النميري، وغيرهم.

وبذلك يتضح أن" التوظيف الإبداعي للمكان في الشعر منوط بنجاح الشاعر في إخراج أمكنته من الحيازة العامة الى حيازته الشخصية وبما يحملها من

---

(١) جماليات المكان وبناؤه في الشعر العربي الحديث في اليمن (١٩٤٠ ـ ٢٠٠٠م) رسالة ماجستير/٢٣١.

(٢) ينظر: دلالة المكان في مدن الملح، مجلة ابحاث اليرموك، العدد (٢)، لسنة ١٩٩١م / ١٦.

تجاربه، ومواقفه، ورؤاه، وبما يمنحها من دواخله، وهو يعيد تشكيلها وخلقها من جديد"(١).

لقد حظي المكان باهتمام الشاعر العربي منذ القدم حين قدم تفصيلاً لرحلته في البادية، ووصفاً دقيقاً لها لأنها الحاضنة التي كان يتجول فيها ويترك خاطره يجول في أرجائها، وقد مثل المكان في الشعر العربي جانباً مهماً من تاريخ حياة العرب، ولاسيما في ذكر منازل أحياء العرب، وقبائلهم، ومواضع حروبهم، وأماكن مجالسهم، واجتماعهم، ومطارد صيدهم، وطرق عيشهم، لهذا يكون المكان عندهم مثل القرطاس الذي يكتب على صفحاته تاريخ الإنسان، وتجاربه الحياتية، وما وصل إليه من نواحي الارتقاء أو الانحطاط، وفضلاً عن ذلك كله يعد مسرحاً لحركة الإنسان الدؤوب على مر العصور.

المكان عند الشعراء المحدثين

إن توظيف المكان عند الأديب المبدع يعطي دلالات وإضافات فكرية للنص الأدبي يبّين مقدرته على توظيفه الذي يكون جزءاً من إبداعه لما لذلك المكان من تأثيرات واضحة، تمكنه من تطويعه لغرضه المراد، وتكمن قدرة الشاعر على تفعيله في أغراضه المختلفة وكلما كان الشاعر أكثر إبداعاً ترتب عليه قوة فاعلية المكان وحيوية وظيفته في الأغراض الشعرية.

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة متبادلة وغير ثابتة "فالإنسان بمشاعره وعواطفه ومزاجه يأخذ من الطفولة طقوسها وفصولها ما يساعد مشاعره وعواطفه

---

(١) المكان والرؤية الابداعية، قراءة في نصوص من الشعر العربي، مجلة افاق عربية، العدد (٤)، لسنة ١٩٩٨م / ٣٨.

على رسم المكان فإذا به كالفنان الذي يختار من الألوان ما يساعده على تنفيذ لوحته الفنية ويساعده على نقل ما يريد أن يقوله... "[١].

إن تطور دلالة المكان ينبع من تطور مفهومه لدى الإنسان لأنّ " مفهوم المكان ودوره في حياة الإنسان ينمو ويتطور بنمو الفكر البشري وتطوره، ويضعف بضعفه، فقد تصّور الإنسان المكان تصوراً مادياً محسوساً ينطلق من علاقة ملموسة بين الإنسان والأشياء المحيطة به في بيئته"[٢]، ويعد المكان أحد الملامح البارزة للأمم والشعوب، لذا نراه يشغل حيزاً كبيراً في الشعر العربي قد لا يصل إليه أدب أمة من الأمم عبر العصور[٣].

ومما يبدو "أن المكان وجود لا تحده حدود المادة ولا يتقيد بسماتها وأبعادها الطبيعية، كما أنه ليس مجرد موضوعٍ شعريٍّ أو ألفاظٍ تُستَحضر في قوام النص للدلالة المباشرة على المادة، وإنما هو وجود خلاق يفرزه الشعور ويشكل الخيال ملامح حضوره الجمالي في النص الشعري، وهو في حضوره ذاك يمثل بنية فنية جوهرية لها أثرها البارز في تخليق فضاء الإبداع الشعري وإحكام نسيج النص وتشكيله"[٤].

فالشاعر في شعرنا الحديث، ارتكز في فنه ارتكازاً كبيراً على توظيف المكان حتى أنك ترى الشعر العربي معجماً للأماكن والمواقع. سواءٌ أكانت واسعة أم

(١) بناء الرواية، سيزا قاسم/٧٦.

(٢) جماليات المكان في الرواية العربية، شاكر النابلسي /٩٦.

(٣) ينظر: المكان في الشعر العربي قبل الاسلام، حيدر لازم، رسالة ماجستير/٢١.

(٤) جماليات المكان وبناؤه في الشعر العربي الحديث في اليمن، (١٩٤٠-٢٠٠٠)، ياسر فضل صالح عبدالكريم الغامدي، باشراف: د. محمد أحمد العامري، جامعة عدن، سنة ٢٠٠٩م / ٣٥.

محددة، كبيرة أم صغيرة، فهو لم يترك موقعاً من المواقع إلاّ وقد وظفه في شعره جاعلاً من الأماكن بتنوعاتها المختلفة، وأشكالها المتنوعة عنصراً أساساً من عناصر مادته الشعرية.

ومن ثم نظر الشعراء إلى المكان "نظرة خلاقة تتجاوز المادة إلى الكشف عن انعكاساتها الشعورية المتولدة من طبيعة العلاقة الفاعلة بين الشاعر والمكان، فعمموا صفات القداسة والروحانية لتشمل أماكن الألفة والعطاء والانتماء..."[١]، وكثرت أماكن الألفة بحيث لم تغب عن مخيلة أيٍّ من الشعراء ونتاجهم، فجاءت صدى لنفسيتهم التي فتحت مجال الشعور بالحياة، ومنحت الشعراء فسحة للتذكر والحلم؛ وجاءت أماكن العطاء منطلقةً من زاوية العطاء الطبيعي إلى البحث عن مناحي العطاء النفسي والوجداني التي كشفت عن الأثر الفاعل للإنسان في إكساب المكان سمات الخصب والعطاء. "وفي سبيل الكشف عن جماليات التشكيل المكاني في النص الشعري استغل الشعراء العرب فاعلية الرموز الدينية والتاريخية والحضارية، واتكؤوا على التناص ووظفوا الرموز المكانية والأسطورية، واستعانوا بالقناع، والرمز، وتوسلوا بسمات سينمائية كالحركة وتحول المشاهد وتحولات الحدث للكشف عن جماليات التشكيل المكاني، والارتقاء بالخطاب الشعري نحو آفاق حداثية تتعدد تقاناتها الفنية التي بواسطتها يعيد الشاعر تخليق المكان خلقاً فنياً جمالياً"[٢]، اذ تختلف التجربة المكانية للشاعر بحسب بيئته، فهو "لصيق المكان، وابن شرعي لأحواله، وهو في ذلك لا يستطيع أن يغيب الالحاح المكاني في عمله

---

(١) المصدر نفسه /٢٨.

(٢) جماليات المكان وبناؤه في الشعر العربي الحديث في اليمن، (١٩٤٠-٢٠٠٠)، ياسر فضل صالح عبدالكريم الغامدي /٢٨.

مفردة من مفردات التجربة"(١).

إن المكان في الشعر في مختلف أغراضه يشكل عنصراً أساساً من عناصر إيضاح أفكار الشعراء، ومعانيهم في مختلف شؤون الحياة، كذلك يكون المكان أداة من أدوات الشاعر، ووسيلة من وسائله في تأدية المعاني المختلفة بسبب مقدرة أولئك الشعراء على تطويع المكان لأغراضهم المختلفة. ومن الشعراء الذين ذكروا المكان وأبدعوا في وصفه هم: محمد مهدي الجواهري، وبدر شاكر السياب، وعبد الرزاق عبد الواحد، والدكتور محمد حسين آل ياسين، والدكتور فليح الركابي، والدكتور نوفل أبو رغيف والكثير غيرهم.

تحولات شكل القصيدة:

إن الشعر - قبل كل شيء - هو فن قولي أداته اللغة، واللغة ألفاظ(٢). فالقصيدة هي ضرب شعري من ضروب الأدب العربي، كما هي موضوع شعري مكون من أبيات سواء قلت أو كثرت، وتتغير خصائصها الشكلية مع تغير العصور.

"يرتبط بناء القصيدة في الشعر العربي بتقاليد فنية معينة استقرت ملامحها منذ العصر الجاهلي وتوارثها الشعراء"(٣)، وسعوا إلى تحقيقها على مر العصور، حتى غدت هذه التقاليد إطاراً جمالياً مرجعياً تدور فيه تجارب الشعراء، مما حدا بمصطفى ناصف الى القول: " إن الأدب العربي مدين في جوهره للأدب الجاهلي، وليس من الممكن البتة أن نفهم حظ الأدب العربي من الحياة إذا تجاهلنا ذلك الأدب، فالأدب العربي تطور تطوراً طبيعياً، ولكن هذا التطور ليس نوعاً من اقتلاع الجذور، ولا

(١) الاسس النفسية للتجريب الشعري، مجلة الاقلام، العددان (١٢،١١) /٤٦.

(٢) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل/٢٣٤.

(٣) المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، عبد الفتاح محمد أحمد /١٢٨.

هو إتيان جديد من أرض غريبة، إنما إعادة تشكيل للماضي وليس الماضي إلاّ الأدب الجاهلي"[١].

إن التجديد في الشعر ظاهرة طبيعية تطورية في كل مكان وزمان، وقد عرف الشعر العربي في تاريخه الطويل مظاهر تجديدية كثيرة بدءاً من بشار بن برد الذي كان آخر القدماء وأول المحدثين إلى أبي نواس الذي تمرد على نهج القصيدة ثم كانت ثورة أبي تمام الفعلية على (عمود الشعر)، ولذلك وقف علماء اللغة يهاجمون ثورته هذه، وعلى رأسهم ابن الأعرابي[٢].

ثم عرف الشعر العربي ثورة في الشكل الموسيقي من خلال الموشح وبعض الفنون المستحدثة إلى أن جاء العصر الحديث، وبدأ الشعراء يتململون تحت وطأة الزخارفية البديعية والمحسنات اللفظية الجافة في أواخر القرن التاسع عشر، وما إن أطل القرن العشرون حتى أخذ الشعراء والنقاد يدعون إلى ضرورة تجديد الشعر العربي ليلائم العصر، فتنوعت أشكال القصيدة بين الغنائية والموضوعية، كما تنوعت أشكالها بين شكل الشطرين، والشعر المرسل، والنظام المقطعي، وشعر التفعيلة، وقصيدة النثر وسواها، وكان لا بد من أن يتغير الشعر ورسالته لتغير نمط الحياة والتطور الخطير الذي حدث بنكبة فلسطين وتأثير اللحظة النفسية والتاريخية في الوطن العربي[٣]. والواقع أن تجديد الشعراء المعاصرين في أشكال الإيقاع في القصيدة العربية المعاصرة لم يبدأ من فراغ، وإنما كان استمراراً لجهود شعراء سابقين كانت لهم محاولات كثيرة متعددة للتجديد في العروض العربي فتصرف بعضهم في

---

(١) قراءة ثانية لشعرنا القديم، د. مصطفى ناصف /٣٠.

(٢) ينظر: أخبار أبي تمام، أبو بكر الصولي، تحقيق خليل محمود عساكر/٢٤٤.

(٣) ينظر: حركات التجديد في موسيقى الشعر الحديث، س.موريه، ترجمة سعد مصلح /٧٨.

الأوزان التقليدية، وتوسع أخرون في الإفادة من الزحافات والعلل، وحاولوا أن يتحللوا تماماً من قيود الوزن والقافية ومال آخرون إلى نظم قصائدهم على أكثر من وزن، وكانت محاولات وشاحي الأندلس وجهودهم في التجديد في موسيقى الشعر علامة بارزة في تاريخ هذا التجديد[١].

ونتيجة للتغيرات الكثيرة التي ظهرت " استطاع خليل مطران رأس المدرسة الرومانسية أن يتخلى عن الوزن والقافية ودوت من بعده صيحات التجديد في الشعر العربي الحديث، وانطلقت من اتجاهات ثلاثة: صيحة صدرت عن شعراء الديوان العقاد وشكري والمازني، وصيحة من شعراء أبوللو، وثالثة من شعراء العرب الذين نزحوا في مطلع القرن العشرين إلى المهاجر الأمريكية حيث شهدوا نشاطاً ثقافياً وعلمياً واسع المدى"[٢].

ثم ابتدع رواد الشعر الحديث نمطاً جديداً من الشعر فيه " التفعيلة تتكرر في القصيدة دون تقيد بالمألوف من وحدة شطرية معروفة في الأراجيز والموشحات تستخدم التفعيلة باعتبارها وحدة بدلاً من السطر، مع عدم الالتزام بعدد ثابت للتفعيلة يتكرر في كل سطر ولقد أتاحت موسيقى التفعيلة للشاعر إمكانية واسعة للتحرك خلال أشكال غير محدودة من الموجات النفسية كان آخرها الاعتماد على الموجة الشعرية التي تعتمد على دورات نغمية تمتد خلال عدد من السطور وتتسع من خلال الدورة لعدد أكثر من التفاعيل، فتأتي الأسطر عندهم ليس لها طول ثابت ولا نظام معين، إذ يتميز شعرهم بقافية موحدة وسموا هذا الضرب من الشعر الشعر الحر"[٣].

---

(١) ينظر: الناس في بلادي صلاح عبد الصبور/٥٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه/٥٤.

(٣) التحولات في بناء القصيدة العربية المعاصرة، محمد عباس محمد عرابي، عضو رابطة الأدب ←

إن الشعر الحر "هو الشعر الذي لا يتقيد بقافية ولا بحر وقد ارتبط ظهوره بالتغير الثقافي الهائل الذي سيطر على الحياة الأدبية العربية منذ بداية الثلث الثاني من القرن العشرين ولقد فصلت نازك الملائكة في كتابها قضايا الشعر المعاصر معالم دعوتها للشعر الحر، وبينت أنه ليس انسلاخاً عن الوزن والبحور الخليلية أو خروجا عنها "[١].

ويرى يوسف الخال" أن الشعر الحر يتيح للشاعر التجرد من رقابة الوزن بتشطيره على الشكل الذي يروق له مع الاحتفاظ بالجرس الموسيقي الأساسي للوزن.

ومن أبرز الخصائص الإيقاعية للشعر الحر التحرر من نسقية الوزن والقافية، استخدام التضمين والتدوير، ووضوح الدور الإيقاعي للنبر والتنغيم"[٢].

ومن رواد الشعر الحر في العراق: نازك الملائكة – بدر شاكر السياب – عبد الوهاب البياتي.

تحولات شكل المكان من طارد الى جاذب

يعيش الإنسان في عالم يتصف ببعدين أساسيين هما: الزمان والمكان، ففيهما يحيى الإنسان وينمو الجنس البشري ويتطور. وقد" اتسمت الدراسات الظاهرآتية بشدة الاحتفاء بالمكان، واختلف النقاد والباحثون إزاء ذلك في تحديدهم لأنماط الأمكنة في الشعر، أو الرواية، وكذلك اختلفوا في وضع المقاييس التي ينتهي إليها وضع تصنيف أو مفهوم واضح لتلك الأمكنة، ومن ثم حصر كل مجموعة منها

الإسلامي العالمية /٢٥.

(١) المصدر نفسه/٢٦.

(٢) الحداثة في الشعر، يوسف الخال /٨٤.

تحت نمط معين"[١]، ورغم أن المكان والزمان عنصران متلازمان لا يفترقان، فإنّ المكان ثابت على عكس الزمان المتحرك، وهو في ثبوته واحتوائه للأشياء الحسية المستقرة فيه يدرك بالحواس إدراكاً مباشراً. ذلك أن "المكان صورة أولية ترجع إلى قوة الحساسية الظاهرة التي تشمل حواسنا الخمس"[٢]، على عكس الزمان الذي يدركه الإنسان إدراكاً غير مباشر من خلال فعله فيه.

والمكان له تاريخ أقدم من الإنسان، والإنسان بوجوده وكينونته في المكان يعيد تشكيله وتحويله إلى أشكال مختلفة حسب احتياجاته الحياتية، ووفق ثقافته. يمكن أن تعدّ التحولات الكبرى التي يعيشها المكان جزءاً من حركة ثقافية أو إنسانية تمتلك ديمومتها على مدى العصور، بفعل متغيرات المقدّس وقدرته على الصمود أمام الآخر.

وإذا كانت الأماكن المخصبة تمثل الحياة على الأرض، فإنّ الأماكن المجدبة تمثل الجانب الآخر من الحياة (الفناء)، فهي أماكن مهلكة تحيط المخاطر بسالكها، ولا يقطنها إلاّ القليل من الناس، ووجود الإنسان في المكان أدى إلى تعضيد العلاقة بينهما، تلك العلاقة التي أخذت في التنامي "حتى أصبح المكان واحداً من القضايا التي يخترقها الإنسان بالبحث بغية التعمق في هذا المحسوس وتمام إدراكه"[٣]. مما ترتب عليه وجود دراسات كثيرة عنيت بدراسة المكان في مختلف المجالات، بل وجد علم خاص بدراسة المكان وهو علم الطوبولوجيا (Topology) الذي قام بدراسة أخص خصائص المكان من حيث هو مكان، أي العلاقات

---

(١) المكان في الشعر المهجري، حكيم صبري عبدالله /١٧.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم /٢٢٢.

(٣) استراتيجية المكان، مصطفى الضبع /٦٠.

المكانية المختلفة كعلاقة الجزء بالكل، وعلاقات الإندماج والانفصال والاتصال، التي تعطينا الشكل الثابت للمكان الذي لا يتغير بتغير المسافات والمساحات والأحجام" (١)، وكان تنوع الدراسات عن المكان أدى إلى "تقسيم المكان حسب التخصصات، إذ تم تقسيم المكان بموجب السلطة التي تخضع لها الأماكن" (٢)، كما أعطي المكان بعداً فلسفياً فأصبح المكان" هو ما يحل فيه الشيء أو ما يحوي ذلك الشيء ويحده ويفصله عن باقي الأشياء" (٣).

كذلك تم تقسيم المكان إلى" المكان التصوري، والمكان الإدراكي الحسي، والمكان الفيزيائي، والمكان المطلق"(٤)، والمكان الأليف عموماً هو ما تشعر فيه النفس "بالحماية والألفة والأمان، والفهم، والأهم من هذا كله اليقين، والإحساس بالتمكن، والسيطرة"(٥)، والاستقرار الذهني، وزحزحة القلق.

ولا تنحصر ألفة المكان بطبيعة المكان المسكون، إنما تكون الألفة في كل مكان ترتاح إليه النفس، ويطمئن إليه الفؤاد، كمكان اللقاء مع الحبيبة، أو الأصحاب، أو على ظهور الأبل، والخيول، والمواقد، حتى الاطلال التي يقف عندها الشاعر العربي هي مكان أليف تنشرح إليه النفس، ويتسع فيه الأفق. وقد تصبح الأماكن ذكرى متمكنة من نفس الإنسان أكثر من غيرها حتى تصل الى

---

(١) إشكالية الزمان في الفلسفة والعلم، يمنى طريف الخولي /١٣.

(٢) مشكلة المكان الفني، يورى لوتمان، ترجمة سيزا قاسم دراز /٨٢.

(٣) استراجية المكان، مصطفى الضبع/٦٠.

(٤) إشكالية الزمان في الفلسفة والعلم، يمنى طريف الخولي، ١٣.

(٥) ينظر: حول"محطة السكة الحديد" لأدور الخراط، الحساسية الجديدة واستخدامات المكان الادبية، مجلة اقلام، العددان ١٢،١١ لسنة ١٩٨٦م /٨٢.

درجة التقديس، كأماكن المراقد المقدسة والقبور الشريفة للأنبياء عليهم السلام، ولاسيما قبر نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقبور الأئمة المعصومين عليهم السلام. فالأماكن "كلما تقادمت تغيرت نظرتنا إليها وتغير تفسيرها في ضوء ما استجد من أحداث"[(١)].

وقد يستغرب المتلقي حين يقرأ أن الأماكن تتحول من أماكن جرداء إلى أماكن أليفة خضراء ذات قدسية عالية، كما هي كربلاء المقدسة التي أصبحت قبلة أنظار العالم" فالمكان الديني مهما كان نوعه، يبقى في الشعر حاملاً لفكرة روحية قد تخضع لاعتقاد الشاعر، أو لا تخضع. ولكنها على أية حال تظل معبرة عن دلالة دينية لواقع حقيقي في مرحلة تاريخية معروفة، وقد تستجيب لدواعي نفسية، وفنية بحتة لما تثيره من أحاسيس، وكوامن عند الشعراء، ولما تقدمه لهم من مادة جديدة، وطريقة للتمثيل، والتصوير"[(٢)].

إن أسماء الأمكنة الحسينية تمحورت حول اسم كربلاء، مثل (الطف، والغاضرية، ونينوى، والكوفة، والعراق)[(٣)]، لارتباطها المباشر بالحدث، فضلاً عن أنّ تلك المواضع تحولت إلى رموز مجسدة للصراع بين الخير والشر، على الرغم من دلالتها الجغرافية المباشرة، فضلاً عن ارتباطها المباشر بموقف الحسين عليه السلام، مما جعل الشعراء يتشبثون بتلك البقاع بوصفها شواهد لتاريخ من الألم والحزن والثورة، ثمَّ إنَّ قرب الشعراء العراقيين من تلك الأماكن ساعد في أن

---

(١) بناء الرواية، (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، سيزا قاسم /٤٠.

(٢) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، طاهر أحمد مكي /٩٥.

(٣) ينظر: كتاب معجم البلدان: ج٧ /٢٢٨مجلة البيان، تأثير العوامل السياسية على الرثاء الحسيني العراقي، ع (٥٧، ٥٨) لسنة ١٩٤٨ / ٢١٢، وأدب الطف، جواد شبر،ج٨/ ٢٣٧.

تكون ملاذاً لتجاربهم الشعورية الحزينة في ظل إحساس بأنَّ الإمام الحسين عليه السلام قريب منهم، يشعرون بوجوده، فكانت حقاً (كرب وبلاء) كما جاء في أصل تسميتها [١].

فالمكان الكربلائي وأبعاده في النفوس المحبة والمبغضة وتحولات شكل المكان من طارد إلى جاذب. هو ما سنتعرض له في دراستنا للشعر العربي في العراق، إذ قد تحول المكان الكربلائي المقدس تحولات عديدة كما سيتضح ذلك لاحقاً.

---

(١) ينظر: كتاب معجم البلدان: ٧ /٢٢٩، والأدب العربي في كربلاء، د.عبود الحلي / ٩.



الفصل الأول

كربلاء مكان طارد

بعد أن استعرضنا في التمهيد دلالة مصطلح المكان في النقد الأدبي ننتقل إلى موضوعنا الرئيس، وهو تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي. وكما نعلم أن كربلاء اسم موغل في القدم يشخص في عمق التاريخ فتشخص معه الحضارات التي تعاقبت على أرض هذه المدينة، ولابد من الإشارة إلى أن كربلاء هنا مكان تاريخي اكتسب أهميته من ثورة الإمام الحسين عليه السلام الذي نثر دماءه على رمضائها فكانت مناراً في طريق الثائرين في العالم، وأن هذا المكان المقدس شهد تحولات شعرية في آثار الشعراء، ومنها أنّه مكان طارد في بادئ الأمر لأسباب عديدة لأنه صحراوي غير مأهول، وأنّه شهد معركة قاسية تطايرت فيها الرؤوس، وسالت الدماء، وأحرقت الخيام، وسبيت النساء وشرد الأطفال وحدث ما حدث فيها من المآسي البالغة لآل بيت الرسول الكريم صلوات الله عليهم أجمعين، فصورها الشعراء على أنّها مكان طارد في أحداثه بكل بشاعة وقسوة، وكان مراد الشعراء من ذلك إثارة المشاعر عند المتلقين، وتحبباً لآل النبي صلوات الله عليهم أجمعين وتصوير مأساتهم بصدق، وقد جاء الفصل الأول استقراء لتلك الأحداث من خلال الشعر فهو المادة الرئيسة في الرصد والتقصي وقد وقع الفصل في مباحث عديدة منها معاني كربلاء، وأسماء كربلاء ثم تحولات المكان الأول صورة القتل، صورة السبي، صورة الجثث في الرمضاء.

اسم (كربلاء).. الأصل والاشتقاق

اختلف اللّغويون والمؤرّخون والجغرافيون في أصل كلمة كربلاء، وفي اشتقاقها وفي معناها، فذهب بعضهم إلى أنّ أصل هذه الكلمة عربيٌّ محض، وذهب آخرون إلى أنَّ أصلها غير عربيّ، وقال آخرون: إنّها متداخلة الأصل من العربية وغيرها...

١- نظرية الأصل العربي لاسم كربلاء

قال ياقوت الحموي: (كربلاءُ، بالمدِّ: وهو الموضع الذي قُتل فيه الحسين بن عليّ رضي الله عنه، في طرف البرّية عند الكوفة، فأمّا اشتقاقه: فالكربلة رخاوة في القدَمين، يقال: جاء يمشي مُكَرْبِلاً، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميّت بذلك.

ويُقال: كَرْبَلْتُ الحنطة، إذا هذّبتها ونقّيتها، ويُنشَدُ في صفة الحنطة:

يحملنَ حمراء رسوباً للثقل ... قد غُربلتْ وكُربلت من الصقل

فيجوز على هذا أن تكون هذه الأرض منقّاة من الحصى والدغَل، فسميّت بذلك.

والكربل: اسم نبت الحُمّاض، وقال أبو وجرة السعدي يصف عهون الهودج:

وثامرُ كربلٍ وعميم دُفلى ... عليها والندى سبط يمورُ

فيجوز أن يكون هذا الصنف من النبْت يكثر نبْته هناك فَسُمِّي به)[1]. ومن هذا غلب الاسم على المكان فسمي به وهو كربلاء.

---

(١) معجم البلدان: ٤: ٤٤٥، وانظر: مراصد الإطلاع: ٣: ١١٥٤.

٢- نظرية الأصل غير العربي (الأصل الديني)

قال الدكتور مصطفى جواد في موضوع كتبه تحت عنوان (كربلاء قديماً) في موسوعة العتبات المقدّسة:

(.. وذكر السيّد العلاّمة هبة الدين الشهرستاني: أنّ (كربلاء) منحوتة من كلمتَي: (كور بابل)، بمعنى مجموعة قُرى بابلية)[١].

وقال الأب اللغوي أنستاس الكرملي: (والذي نتذكره فيما قرأناه في بعض كتب الباحثين أنّ كربلاء منحوتة من كلمتين: من (كربل)، و(إل) أي: حرم الله، أو مقدس الله)[٢].

إنّ رَجعَ الأعلام الأعجمية إلى أصول عربية كان دَيدناً لعلماء اللغة العربية منذ القديم، فقلّما اعترفوا بأنّ عَلماً من الأعلام أصله أعجمي، دون أسماء الجنس، فإنّهم اعترفوا بعُجمتها وسمّوها (المعرّبات)؛ لأنّ الذين يعرفون اللغة الفارسية كثير، ولأنّهم يدرون أصول المعرّبات على التحقيق والتأكيد.

وكان الذي يُسهّل عليهم اجتيال الأعلام وغيرها إلى اللغة العربية، كونها مشابهة وموازنة لكلمات عربية، كما مرَّ في (كربلا) والكربلة، والكربل، فهم قالوا بعروبة تلك الأعلام الأعجمية، ثمّ حاروا في تخريجها اللغوي، فبعثهم ذلك على التكلّف! كما فعلوا في كربلاء وغيرها من الأعلام الأعجمية.

"إنّ موقع كربلاء خارج عن جزيرة العرب، وأنّ في العراق كثيراً من البلدان ليست أسماؤها عربية: كبغداد، وصرورا، وجوخا، وبابل، وكوش، وبعقوبا، وأنّ

(١) نهضة الحسين (عليه السلام)، السيّد هبة الدين الحسيني الشهرستاني/ ٦.

(٢) مجلة لغة العرب، أنستاس ماري الكرملي: ج٥، ١٩٢٧م / ١٧٨.

التاريخ لم ينصّ على عروبة اسم (كربلاء)، فقد كانت معروفة قبل الفتح العربي للعراق، وقبل سكنى العرب هناك، وقد ذكرها بعض العرب الذين رافقوا خالد بن الوليد في غزوته لغربيّ العراق سنة ١٢ هجرية / ٦٣٤م،"[١] قال ياقوت الحموي: (ونزل خالد عند فتحه الحِيرة، كربلاء، فشكا إليه عبد الله بن وشيمة النصري الذبّان[٢]، فقال رجل من أشجع في ذلك:

لقد حُبِسَتْ في كربلاء مطيّتي ... وفي العين[٣] حتى عاد غثّاً سمينها

إذا رحلتْ من منزل رجعتْ ... لعمري وأيّها إنّني لأُهينها

ويمنعها من ماء كلّ شريعة ... رفاقٌ من الذُّبانِ زُرقٌ عيونها[٤]

ومن أقدم الشعِر الذي ذُكرت فيه كربلاء: قول معن بن أَوْس المزني من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وعمرَ حتى أدرك عصر عبد الله بن الزبير وصار مصاحباً له، وقد كُفَّ بصرُه في آخِر عمره، وذكر ياقوت الحموي هذا الشعر في (النوائح) من معجمه للبلدان وقال وهي قصيدة طويلة:

إذا هي حلّت كربلاءَ فلعلعاً ... فجوز العذيب دونها فالنوائحا

---

(١) كتاب نهضة الحسين عليه السلام الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي /٦.

(٢) في معجم البلدان: ج٤: ٤٤٥ (البصري) وليس (النصري)، وقال الدكتور مصطفى جواد في الحاشية: (أو النضري، وفي الأصل من طبعة مصر (البصري) وهو محال ؛ لأنّ البصرة لم تكن يومئذٍ قد مُصِّرَتْ، ولأنّ العرب القدامى في القرن الأوّل والقرن الثاني، لم يكونوا ينتسبون إلى المدن والأقطار، بل إلى الآباء والقبائل والأفخاذ والعمارات والبطون، أمّا غير العرب فجائز فيهم، كما سرجويه البصري الطبيب (مختصر الدول لابن العبري / ١٩٢).

(٣) يعني عين التمر، المعروف حِصنها اليوم بالأخيضر.

(٤) معجم البلدان - ياقوت الحموي، ج٤ / ٤٤٥.

وفي حوادث سنة ١٢هـ: (خرج خالد في عمل عياض بن غنم؛ ليقضي ما بينه وبينه ولإغاثته، فسلكَ الفلّوجة حتى نزل بكربلاء، وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو... وأقام خالد على كربلاء أيّاماً، وشكا إليه عبد الله بن وثيمة الذباب، فقال له خالد: اصبر فإنّي إنّما أريد أن أستفرغ المسالح التي أمر بها عياض فنُسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يُؤتَوا من خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة غير متعتعة... وقال رجل من أشجع فيما شكا ابن وثيمة: لقد حُبستْ في كربلاء مطيّتي..)[١].

وفي حديث آخر عن فتح كربلاء يقول: (... حتّى فتح خالد ساباط المدائن، ثمّ توجّه إلى المدائن فلم يجد معابر فدلّوه على مخاضة عند قرية الصيّادين أسفل المدائن، فأخاضوها الخيل حتى عبروا، وهرب يزدجرد إلى اصطخر، فأخذ خالد كربلاء عنوة وسبى أهلها، فقسّمها سعد بين أصحابه...)[٢].

وإذا ما فسّرنا (إل) كان معناها (الإله) عند الساميّين أيضاً، ودخول تفسير التسمية في الإمكان لا يعني أنّها التسمية الحقيقية لا غيرها؛ لأنّ اللّغة والتأريخ متعاونان دائماً فهي تؤيّده عند احتياجه إليها، وهو يؤيّدها عند احتياجها إليه، فهل ورد في التاريخ أنّ موضع كربلاء كان (حرم إله) قوم من الأقوام الذين سكنوا العراق؟[٣]، أو مَقْدَسَ إلهٍ لهم؟ لا يُجيبنا التاريخ عن ذلك، ومن الأسماء المضافة إلى (إل) بابل وأربل وبابلي.

ومن العجيب أنّ لفظ (كرب) تطوّر معناه في اللغة العبريّة، قال بعض الأدباء

---

(١) تاريخ الطبري: ج٢/٥٧٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤: ٢٥٩، ٢٦٠ باب ٣١، حديث رقم ١١.

(٣) ينظر: تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي / ٢٤/ ١٢٨.

الأمريكيين: (ممّا يصوّر لنا فكرة عن سوء أُسلوب الحياة أن نجد الكلمة العبرية (كَرَبَ Karab) ومعناها يقترب تعني في الوقت نفسه (يُقاتل ويحارب)، ومن هنا كانت كلمة (كِراب Kerab) بمعنى معركة)[١].

لعلّ اسم (كربلاء) بمعنى (حرم الإله)، كان قد أُطلق على هذا الوضع في أحد الأماكن لذلك يمكن القول بتطوّر الاسم (كربلاء) من الحقيقة إلى المجاز، وبذلك لا يجب الالتزام بأصل معناه بل يجوز، وممّا قدّمنا يُفهم أنّ (كربلا) مقصور في اللغات القديمة (غير العربية) بواسطة أحد الأنبياء الماضين عليهم السلام، من باب الإخبار بما سوف يقع على أرض هذا الموضع في مستقبل الأيام من قتل ابن بنت خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله، وأنّ هذا الموضع سوف يكون من البقاع المقدّسة.

معلوم أن العرب توطنوا تلك البقاع قبل الفتح العربي، فدولة المناذرة في الحيرة ونواحيها كانت معاصرة للدولة الساسانية الفارسية وفي حمايتها وخدمتها كما تقول كتب التاريخ وأن المؤرخين لم يذكروا لهم إنشاء قرية سميت بهذا الاسم (أعني كربلاء) غير أن وزن كربلاء ألحق بالأوزان العربية ونقل (فعللا) إلى (فعللاء) في الشعر، فالأول موازن قرقرى وقهقرى، والثاني موازن لعقرباء وحرملاء، زيد همزة كما زيد برنساء[٢].

كربلاء اسم من أسماء ذلك المكان الذي هيمن فيما بعد لأنّ الرسول الكريم صلى الله عليه واله وسلم حين أخبر سبطه أنه يستشهد هناك، أعطاه الشيوع والهيمنة في التاريخ، وتحدثنا المراجع التاريخية أن كربلاء هي أم لقرى عديدة تقع بين بادية الشام وشاطئ الفرات وأنها كانت من أمهات مدن بين النهرين الواقعة

(١) المؤرّخون والشِعر، ترجمة توفيق إسكندران / ٤٦.

(٢) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، مج٧ /٢٢٩.

على ضفاف نهر بالاكوباس (الفرات القديم) وعلى أرضها معبد للعبادة والصلاة كما يستدل من الاسماء التي عرفت بها قديماً. وقد كثرت حولها المقابر إذ عثر على جثث الموتى داخل أواني خزفية يعود تاريخها الى ما قبل العهد المسيحي. أما الأقوام التي سكنتها فكانت تعوّل على الزراعة لخصوبة تربتها وغزارة مائها[١]. من كل ما تقدم تتجسد لنا المكانة الرفيعة التي حظيت بها هذه البقعة المقدسة والمنزلة السامية التي كانت عليها بين بلدان العالم.

معاني كربلاء

(كربلاء) بلدة عُرفت بهذا الاسم قبل الإسلام بزمن بعيد، بل لعلّ الظاهر من بعض الروايات أنّ اسم كربلاء موغل في القِدم إلى زمن آدم أبي البشر عليه السلام[٢]، بل هي معروفة في السماء بـ (أرض كرب وبلاء)، كما في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام[٣].

(وعلى حسبان كربلا من الأسماء الساميّة الآراميّة أو البابليّة، تكون من القُرى القديمة الزمان كبابل وأربيل، وكيف لا؟ وهي من ناحية نينوى الجنوبية.. ونينوى من الأسماء الآشورية..)[٤].

ويوحي احتمال كون اسمها منحوتاً من كلمتَي: (كور بابل) أي مجموعة قُرى بابلية، أنّها كانت آنذاك أُمَّ القُرى لقرى عديدة، منها: نينوى، والعقر

---

(١) ينظر: تراث كربلاء، سلمان هادي آل الطعمة / ٢٤.

(٢) ينظر: البحار: ج٤٤ / ٢٤٢، باب ٣٠، حديث ٣٧.

(٣) فعنه (عليه السلام) قوله: (وإنّها لفي السماوات معروفة تُذكر أرض كرب وبلاء، كما تُذكربقعة الحَرَمين، وبقعة بيت المقدس) ينظر: أمالي الصدوق: ٤٧٨٤٨٠، المجلس ٨٧ /٥.

(٤) موسوعة العتبات المقدّسة، قسم كربلاء /١٥.

البابلي، والنواويس، والحَيْر، والعين: عين التمر، وغيرها من القرى العديدة التي كانت تقع بين البادية وشاطئ الفرات.

ولعلّ (كربلاء) كانت قد أُسّست منذ عهد البابليين والآشوريين، وورثها عنهم التنوخيون واللخميّون، وأُمراء المناذرة وسكّان الحيرة تحت حماية الأكاسرة في إيران، الذين كانت سيطرتهم يومذاك قد امتدّت على مساحة واسعة جدّاً من آسيا.

كانت كربلاء عامرة ومتقدّمة من الناحية الزراعية آنذاك؛ لخصوبة أرضها وقُربها من الفرات، وملاءمة مناخها لكثير من الزراعات، وكانت تُموّن المنطقة والقوافل السيّارة المارّة بها بالمنتوجات من حبوب وتمور وأثمار، وقد ازدهرت حتّى في العصر الكلداني، وكان يسكنها قومٌ من النصارى والدهاقين، وكانت تُسمّى آنذاك بـ (كور بابل)، وقد أُقيم على أرضها معبد تقام فيه الصلاة، وحولها معابد أخرى، وقد عُثر في قرى مجاورة لها على جثث أموات في أوانٍ خَزفية يعود تاريخها إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام[١].

إن كربلاء اسم قديم في التاريخ، يرجع إلى عهد البابليين، وقد استطاع المؤرخون والباحثون التوصل إلى معرفة لفظة (كربلاء) من نحت الكلمة وتحليلها اللغوي، فقيل إنها منحوتة من كلمة (كور بابل) العربية، وهي عبارة عن مجموعة قرى بابلية قديمة منها (نينوى) التي كانت قرية عامرة في العصور الغابرة، تقع شمال شرقي كربلاء[٢]، وهي الآن سلسة تلول أثرية ممتدة من جنوب سدة الهندية حتى

(١) ينظر: وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١٤ /٥١٦.

(٢) ينظر: عمارة كربلاء دراسة عمرانية وتخطيطية، د.المهندس المعماري، رؤف محمد علي الأنصاري/١٣٩.

مصب نهر العلقمي في الأهوار، وتعرف بتلول نينوى [١]. وقد عبّر عنها الإمام الحسين عليه السلام في خطبة مشهورة له وذلك عندما عزم السير نحو الكوفة: **"وكأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا" [٢].**

وجاء في (لسان العرب) (كرب الأمر كروباً دنا).. قال عبد القيس بن خفاف البرجمي.

أبُنَيّ إن أباك كاربُ يومه ... فإذا دُعيتَ إلى المكارم فاعجل [٣]

قال ابن مقبل يصف ناقته:

فبعثتُها تَقِصُ المقاصر بعدما ... كربتْ حياةُ الناس للمتنور [٤] [٥]

وقد وردت لفظة (كربلاء) في رسالة السيد حسن الصدر فقال: "إنّها مشتقة من الكربة بمعنى الرخاوة. ولما كانت أرض هذا الموضع رخوة سميت كربلاء أو من النقاوة من كربلت الحنطة إذا هززتها ونقيتها ولما كانت هذه الأرض منقاة من الحصى والدغل سميت كربلاء. أو أن الكربل نبت الحماض كان كثُر نبته في هذه الأرض فسميت به والأظهر من هذه الوجوه الثاني والأوسط" [٦].

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن لفظة (كربلاء) مركبة من كلمتين آشوريتين هما: (كرب وايلا) ومعناها (حرم الله)، وذهب آخرون إلى أن الكلمة

---

(١) ينظر: دائرة المعارف الشيعية، محمد حسن العلمي، ج٩ /٣٥٦.
(٢) اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد ابن طاووس / ٢٦.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، حرف الكاف – كرب، ج١٣.
(٤) مادة قصر من الصحاح، أي قرب انطفاؤها...
(٥) تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي / ٢٤.
(٦) نزهة أهل الحرمين في عمارة المشهدين ، للسيد حسن الصدر/ ١٧.

فارسية المصدر، فهم يرون أنها مركبة من كلمتين هما (كار) و(بالا) ومعناهما العمل الأعلى أي العمل السماوي.

أما انطوان بارا فيعزو كلمة كربلاء بقوله: "وقيل عنها قديماً (كور بابل) ثم اختصرت إلى اسم كربلاء تسهيلاً للفظها، وبابل كما جاءت في نبوة أشعيا هي صحراء البحر كانت في سهل متسع يقطعه الفرات، وفيها غدران كثيرة حتى ليظن الناظر إليها بأنها صحراء طافية فوق بحر، فأطلق عليها هذا الاسم وفي هذا التفسير شيء من المعقول: إذ كربلاء منطقة صحراوية حارة، وفيها الفرات وبعض الغدران، وتسمية (صحراء البحر) فيها شبه كبير بتسمية (كور بابل)، فالكور معناه في العربية هو ذلك الجهاز الذي ينفخ الهواء فوق جمر الحداد لإحماء الحديد، وبابل هي الصحراء الحارة، فصار اللفظ (كور بابل) يعني- لهب صحراء بابل- كلهب كور الحداد"[(١)]. وتقع كربلاء على بعد عدة كيلومترات من مشرعة الفرات شمال غرب الكوفة، وكانت في عهد البابليين معبداً، والاسم محرف من كلمتي "كرب بمعنى معبد أو مصلى أو حرم و (ابلا) بمعنى (إله) باللغة الآرامية، فيكون معناها (حرم الإله) وهذا مما يؤيده وجود الأطلال في شمال غربي كربلاء الحالية، وكان البابليون يدفنون موتاهم فيها"[(٢)].

وفي تعّوذ الحسين عليه السلام من الكرب والبلاء، مرادف لفظي آخر جاء متطابقاً إلى حد كبير مع لفظة (كربلا). فالكرب، هو الشدة المصحوبة بالألم والبلاء هو النهاية وبلية الموت. ولو نسبنا اللفظة إلى مرادف آخر، لوجدناها تصح بلفظة (كر وبلاء) ومعنى الكر هنا، هو أحد وجهي الهجوم والتراجع في المعارك، وهو ما

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي، انطوان بارا / ٤٢.

(٢) كربلاء في التاريخ واللغة، تحسين آل شبيب / ٨٥.

يعني الهجوم (الكر) لأنّ التراجع يعني (الفر) وهكذا يقال في وصف معركة: (قتال بين كر وفر) أي بين إقدام وهروب. أما لفظة (كربلاء) فمعناها متمم لمعنى لفظة (كر) وبلاء هنا بعد لفظة كر، فالبلاء بعد الكرب، تعني الشدة والموت، وبعد الكر، تعني المضاء والنجاح في القتل والهجوم[١].

ومهما كان من آراء المؤرخين تظلّ كربلاء الأرض المباركة التي كرمها الله تعالى حيث ضمت بين جنباتها الجسد الطاهر لريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتزجت تربتها مع دماء العترة الطاهرة من آل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، فتسمية كربلاء كما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الوحي هي ربما أبعد مما ذكره المحللون لهذه اللفظة، فقد أعطى صلى الله عليه وآله وسلم تفسيراً واقعياً للفظة كربلاء، إذ ذكر فرات الكوفي في تفسيره: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة عليهما السلام: " يا بنتاه، ذكرت ما يصيبه بعدي وبعدك من الأذى والظلم والغدر والبغي، وهو يومئذ في عصبة كأنهم نجوم السماء يتهاون إلى القتل، وكأني أنظر إلى معسكرهم، وإلى موضع رحالهم وتربتهم، قالت: يا أبه، وأين هذا الموضع الذي تصف؟ قال: موضع يقال له: كربلاء، وهي دار كرب وبلاء..."[٢]، نعم: لقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرض كربلاء وقد نعتها بأرض كرب وبلاء قبل أن يدخل العراق إلى حظيرة الإسلام، وقبل أن تطأ أقدام المسلمين أرض العراق التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " يا بني - أي الإمام الحسين- إنك ستساق إلى العراق وهي أرض قد التقى بها النبيون وأوصياء

---

(١) ينظر: الحسين في الفكر المسيحي، انطوان بارا /٣١٣.

(٢) دائرة المعارف الشيعية، حسن الامين، ج٩ /٢٥٦.

النبيين"[١].

إذن (كربلاء) هي الأرض التي التقى عليها النبيون وأوصياؤهم، وشهدت أعظم معركة في التاريخ قتل فيها ذرية نبي الأمة صلى الله عليه وآله وسلم وهم حديثو العهد به، لابد أن تكون أرضاً مباركة كرمها الله تعالى وشرفها على بقاع الأرض الأخرى حتى جاءت هذه التسمية مطابقة للفظ والمعنى[٢].

وقد أعطيت أرض كربلاء مزايا عظيمة في الإسلام فكانت أرض الله المختارة، وأرض الله المقدسة المباركة، وأرض الله الخاضعة المتواضعة، وحرماً آمناً مباركاً، وحرماً من حرم الله وحرم رسوله ومن المواضع التي يحب الله أن يُعبد ويدعى فيها، وأرض الله التي في تربتها الشفاء. وهذه الأرض المباركة ذات الفضل الطويل والشرف الجليل، لم تنل هذا الشرف العظيم في الإسلام إلا بالإمام الحسين عليه السلام. " ولم يرتضِ الإمام الحسين عليه السلام من أسماء القرى التي أخبروه بها سوى اسم كربلا إذ عندما طرقت لفظتها مسامعه الشريفة.. ارتضاها من غير تأن فلم يكد أن قال: " هي هي، هي والله محط رحالنا ومناخ ركابنا ومسفك دمائنا. ثم أمر بأثقاله فحطت وبسرادقه فأقيمت، ثم كان من أمره ما كان ليوم التاسع من نزوله سلام الله عليه كربلا"[٣]، ومن مزايا كربلاء أنّها وصفت بأسماء كثيرة، هي أمّا أسماء عامّة للمنطقة التي منها كربلاء، فأُطلقت من باب إطلاق الكلّ على الجزء كإطلاق الطفّ على كربلاء، أو هي أسماء لقُرىً مجاورة لكربلاء، فأطلقت أسماؤها على كربلاء أيضاً، " أما أسماء الأمكنة، فقد تمحورت حول اسم

(١) تفسير فرات الكوفي، ابن إبراهيم الكوفي /٣٥.

(٢) ينظر: تفسير فرات الكوفي، ابن إبراهيم الكوفي/ ٣٥.

(٣) من مرقد الإمام الحسين عليه السلام، السيد تحسين آل شبيب/ ١٥.

كـربلاء، مثـل الطـف، والغاضـرية، ونينـوى، والكوفـة، والنـواويس، وعمـورا، والحـائر، والعـراق"[1] لارتباطهـا المباشـر بالحـدث، فـضلاً عـن أنّ تلـك المواضـع تحولت إلى رموز مجسدة للصراع بين الخير والشر، على الرغم من دلالتها الجغرافيـة المباشرة، فضلاً عن ارتباطها المباشر بموقف الحسين عليه السلام، مما جعل الشعراء يتشبثون بتلك البقاع بوصفها شواهد لتاريخ من الألم والحزن والثورة، ثمَّ إنَّ قـرب الشعراء العراقيين من تلك الأماكن ساعد في أن تكون مـلاذاً لتجـاربهم الـشعورية الحزينة.

وبعد هذا الاستعراض التاريخي لمعنى كـربلاء لابـد مـن الإشـارة إلى أسمائهـا التاريخية الـتي تعرفنـا بالمكـان لأنّ تلـك التـسميات وردتْ في شـعر شـعراء العـراق المعاصـر بعـد عـام ١٩٩٠م عـن وعـي، ثم ننتقـل إلى التحـول الأول وهـو المكـان الطارد.

---

(١) مع الركب الحسيني من المدينة وإلى المدينة، محمد جعفر الطبسي /٥.

المبحث الأول

أرض كربلاء وقداسة تُربتها عند الشعراء

لو نظرنا بعمق إلى ما يدور من حولنا في هذا الكون الرحب لوجدنا أنّ الله عز وجل قد فضل خلقاً على خلق، فالأرض فضلها على الكواكب فجعل فيها الحياة وشرفها بالأنبياء وأكرمها بهبوط الوحي، ثم خلق الماء فجعل منه فراتاً عذباً ومنه مالحاً أجاجاً، وفضل التربة بعضها على بعض فمنها الأرض السبخة التي لا ينبت فيها الزرع ومنها الصلبة التي لا يخرج منها إلاّ الحجارة ومنها الأرض الطيبة؛ ولو نظرنا إلى أرض مكة، وأرض كربلاء لوجدناهما قد أُعدّتا أن تكونا حرمين، فكربلاء ضمت جسد سيد شباب أهل الجنة، ومكة ضمت بيت الله.

إن أرض الحرمين (مكة المكرمة) و(المدينة المنورة)، هي الأرض المقدسة التي تهوي إليهما قلوب الناس، وأرض كربلاء، تهوي إليها قلوب المؤمنين، فهنا بيت وهنا بيت، وهنا حرم وهنا حرم أعظم، فلاريب أن أرض كربلاء مقدسة، شريفة، مباركة، أما لو أردنا البحث عن جزئيات هذه الأرض كالحرم، والحضرة، والجدث، والروضة، والضريح، والقبة، وموضع الرأس الشريف، والمشهد المقدم،

والتربة الطاهرة، والطين المقدس، فلا تكفينا هذه الصفحات. وقد عبر عنها الشاعر طالب الحيدري من (بحر الكامل) قائلاً:

منْ شاءَ أنْ يستافَ أزكى تربةٍ	فيها أريجُ التضحياتِ مُدافُ
في كربلاءَ المجدُ جمّعَ طيبَه	وسما فلم تنهض له الأوصافُ
من تربةٍ بدم الحسين تخّضبتْ	وزكتْ ألا فلْينهل المُستافُ[(١)]

وهذا رأي شاعر فالمدينة المنورة حيث يثوي فيها النبي الكريم صلى الله عليه واله وسلم، ومكة التي لها مكانتها الرفيعة.

تمتاز تربة هذه الأرض المقدسة (كربلاء) عن سائر بقاع العالم بقدسيتها الدينية السامية فكم أثنى عليها الشعراء والكتاب وأشادوا بها ورفعوها إلى المكانة اللائقة والدرجات الرفيعة التي تستحقها. فهي الأرض التي قدم إليها الإمام الحسين عليه السلام وقتل فيها، فاختلطت التربة بدمائه الطاهرة وأهل بيته من العلويين الأبرار وقد نعتت الأرض بأنها قبلة الإباء ومكة قبلة الصلاة، ولذا فضلها الله سبحانه وتعالى على بقاع المعمورة كافة. فأرض كربلاء جديرة بالثناء والإجلال.

وقد عرض الشاعر أحمد الوائلي[(٢)] صورة لكربلاء مطعمة بالنداء كي يشد انتباه المتلقي إلى هذه البقعة المباركة التي خلدها ثورة الإمام الحسين، فيلفت انتباهنا إلى أهدافها عبر هدير من دماء زكية ظل صوتها مدوياً حتى الآن قائلاً:

(١) ملحمة كربلاء، قصيدة (لولا عطاء الخالدين)، طالب الحيدري /١١١.

(٢) أحمد بن حسون بن سعيد بن حمود الوائلي الليثي الكناني (١٩٢٨-٢٠٠٣) هو رجل دين وأشهر خطيب حسيني وواعظ معاصر وشاعر وأديب عراقي حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة، ينظر: المجالس الحسينية لخادم العترة النبوية، د. الشيخ أحمد الوائلي/ ٧.

ويـا كـربلاء يـا هـدير الجـراح   وزهـــوَ الـــدم العلـــوي الأبـــي
ويـــا سـفر ملحمـــةِ الخالـــدين   بغـــــير البطولـــــة لم يكتـــــبِ
ويـــا شـــفة بنـــشيد الـــدما   تغــــرد عـــبرَ المـــدى الأرحـــب
ويـــا عبقـــاً في ثـــرى العلقمـــي   يـــشدُ الأنـــوف إلى الأطيـــب
ويـا صـرح مجـدٍ بنـاهُ الحـسينُ   وأبـــدعَ في رصـــفه المعجـــبِ
سـيبقى الحُـسين شـعاراً علـى   أصـــيلكِ والـــشفق المـــذهبِ [١]

كما عبر الشاعر علي الفتال[٢] عن حب الحسين عليه السلام وذكر تضحياته، لكن صور رمل كربلاء (المكان) متداخل طيبها وسناها وشذاها بعضها مع بعض فلم يعد تراب كربلاء كباقي تراب الأماكن، بل إن طيبه يعانق الدنيا، وضياءه يشرق، وشذاه يعم أرجاء المسافات التي تمتد منه إلى الأباطح قائلاً:

تجلـت كـربلا فـسما سـناها   وطـــاب يُعـــانق الـــدنيا ثراهـــا
ففيهــا عطــر مــن عبقــت دمــاه   فعطَّـــرت الأبـــاطح مـــن شـــذاها
حسين السبط من ضحَّى بنفس   لتزدهــــر العقيـــدة في عُلاهـــا [٣]

وهناك كثير من الأحاديث الواردة عن العترة النبوية صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين تتجلى فيها الخصوصية المكانية لتربة كربلاء. وبدت من خلالها

(١) ديوان الشعر الواله في النبي وآله، قصيدة الجرح، ج١ /٤٥.
(٢) علي كاظم حسن الفتَّال: شاعر عراقي من موالد كربلاء عام١٩٣٥م عضو اتحاد الادباء والكتاب العراقيين، وفي الهيئة الاستشارية للثقافة والفنون بمحافظة كربلاء، وأمين عام لاتحاد الأدباء والكتاب في المحافظة، وعضو اتحاد الأدباء والكتاب العرب، ديوان مخاضات الزمن/٣.
(٣) ديوان مخاضات الزمن، د. علي الفتال /٥٣.

الحكمة في تفضيلها على أرض مكة، بل على جميع بقاع الأرض، وأن الله حفظ بمن تضمنته تربة كربلاء، وهو الإمام الحسين عليه السلام شريعة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ففي اليوم الذي وصل فيه الركب الحسيني الطاهر إلى أرضٍ قاحلةٍ تقع على نهر الفرات، التفت الحسين إلى أصحابه وقال: ما اسم هذا المكان؟

قالوا: كربلاء دمعت عيناه وقال: (...هذا موضع كرب وبلاء هاهنا مناخ ركابنا، ومحط رحالنا وسفك دمائنا...) (١)

وحينما نستمع إلى قصة وصول (كوكبة الحق) إلى أرض كربلاء بالتفصيل ينبغي أن ندرك أن ذلك هو الإعلان للواقع الخارجي عن بدء الكشف عن سر أرض كربلاء وعظمتها ومكانتها وعلوها ورفعتها، وكيفية تحولها من مكان مجدب صحراوي إلى روضة من رياض الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى، وبفضل الدماء الطاهرة التي سفكت على ثراها.

كما شاءت إرادة الله جل وعلا أن يجعل من بعض الأزمنة والأمكنة بركات وفيوضات، كذلك أوليائه لهم فيوضات، وهذا ما لا شك ولا شبهة فيه للتنصيص عليه من الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومن الأمثلة المذكورة للتشريف الزمني ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (٢)، ومن الأمثلة المذكورة للتشريف المكاني في القرآن الكريم هو قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ..﴾ (٣) وقد

(١) الأرض والتربة الحسينية، محمد حسين كاشف الغطاء / ٣٣ -٣٤.

(٢) القدر / ٣.

(٣) الاسراء/١.

وقد وردت الاستعارة القرآنية بتشريف المكان في الكثير من كتابات الشعراء كقول السيد محسن الأميني فيها:

هـذه كـربلا فقف في ثراها ... واخلـع النعـل عنـد وادي طواها

فـاخرتْ كعبـة الحجـيج فكانـت ... أشـرف الكعبـتين قـدراً وجاهـا [(١)]

ولقد باتت كربلاء منذ مقتل الإمام الحسين عليه السلام على أرضها تزخر بالقيم والمثل والمعاني السامية وبأخلاقيات البطولة والشهامة والإباء والرجولة وأدبيات النهضة الهادفة لنصرة الحق ودحر الباطل، لذا كان لابد والحالة هذه من أن تستلفت أنظار دعاة الحق وطلاب العدل ورسل الفضيلة وأن تجتذب إليها كل المؤمنين والمتشوقين لنيل الفوز الدنيوي والأخروي.

وأنّ "المثل العليا التي ناضل من أجلها الإمام الحسين عليه السلام بما فيها صلاح الناس كل الناس، ظاهرة في الشعر العربي القديم، والوسيط، والحديث، على لسان الشاعر الناظم باللغة العربية غير مقتصرة على الموالي لأهل البيت عليهم السلام، بل تعدّاه إلى غير المسلم، كما انها غير منحصرة بالعراق الأرض التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام عام (٦١هـ).

ولذلك استحق النظم الحسيني على لسان المسلم وغير المسلم، العراقي وغير العراقي، أن يكون ظاهرة أدبية لم تسبقها ظاهرة في مجال الآداب العالمية، فما من أدب منثور أو منظوم لشعوب الكرة الأرضية إلا والمشهد الحسيني حاضر فيه"[(٢)]. ولما كانت أرض كربلاء هي المحتوى المكاني له، فقد كان هذا تحولاً إيجابياً مباركاً

---

(١) ديوان لواعج الأشجان، محسن الاميني / ٦.

(٢) الظاهرة الحسينية في الشعر العربي د. إبراهيم العاتي /٤٥.

للمكان الحسيني.

وقد عرف الشعراء بمكانة كربلاء المقدسة في أشعارهم وبيّنوا فضلها على باقي المناطق كما في قول الشاعر محسن الأشيقر*:

بالكعبة الشماء مولد ديننا	وبكربلاء تعاظمَ الاسلامُ
يا كربلاء أما رأيت أماجداً	حلوا بأرضكِ هم لنا أعلامُ
ببيوتهم نزلَ الكتابُ وفيهمو	صلى عليهم ما جرى الاقلامُ
قتلوا الحسين وصحبهُ وبنيه	لم ينج إلا من به أسقامُ[(١)]

كانت شهادة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة تحمل رسالة ناطقة بين طياتها منطق العقل والمنطق المستنبط من واقع الدفاع عن الحق ورفض للظلم مهما كانت عقيدته ومذهبه وقوميته.

والحق مهما كان من آراء المؤرخين تبقى كربلاء الأرض المباركة التي كرمها الله تعالى حيث ضمت بين جنباتها الجسد الطاهر لريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتزجت تربتها مع دماء العترة الطاهرة من آل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابهم الكرام[(٢)].

وقد نالت كربلاء الحسين عليه السلام اهتمام الأدباء والشعراء والمؤرخين، والكتّاب، والمفكرين من مختلف البلدان العربية والإسلامية والأجنبية. "وأصبحت

* محسن مصطفى الأشيقر شاعر معاصر، ولد في كربلاء سنة١٩٣٢م، حاصل على شهادة البكلوريوس في اللغة العربية، وله ديوان بجزأين، ينظر: ديوان الأشيقر،ج١ / ٥.

(١) ديوان الأشيقر، محسن مصطفى الأشيقر /٢٤.

(٢) ينظر: ملحمة الخلود واقعة الطف، عبد الإله عبد الرزاق الحسني /٦٥.

ثورته النور الساطع الذي ينير درب أصحاب الأقلام وأرباب الفكر والسياسة لما لها من فضل كبير في تحرير البشرية جمعاء من العبودية والذل.

فهي الثورة التي نادت لا للذل، ولا للخنوع، ولا للعبودية، ولا للظلم، ولا للطغاة والجبابرة. ونادت بنعم للحرية، والمساواة، والعدل، وتطبيق الشريعة السمحاء. كما استلهم منها الأدباء والكتّاب والفلاسفة ورجال الحكم والسياسة العظات الكثيرة "[١].

ومن هنا قال الأستاذ عباس محمود العقاد في فضل أرض كربلاء المقدسة: "إنها حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ويزورها غيرهم للنظر والمشاهدة، ولو أعطيت حقها من التنزيه والتخليد، لحق لها أن تصبح مزاراً لكل آدميّ يعرف لبني نوعه نصيباً من القداسة وحظاً من الفضيلة، لأننا لا نذكر بقعة من هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الإنسان من تلك التي اقترنت باسم كربلاء بعد مصرع أبي الشهداء"[٢] فأرض كربلاء كانت قبل الإسلام نواويس ومساجد ومرافق للأمم الغابرة، كما يشعر من كلام الإمام الحسين بن علي عليهما السلام في إحدى خطبه المشهورة حيث قال: "وكأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء "[٣]. وهذا الكلام يوحي بأنها مكان موحش طارد يكثر فيه الحيوانات المفترسة، ولكن بعد الواقعة تحولت إلى شيء آخر.

---

(١) ينابيع المودة، للقندوزي، ج٣ / ١٢.

(٢) أبو الشهداء، عباس محمود العقاد / ١٤٥.

(٣) ينابيع المودة، القندوزي، ج٣ / ١٣.

وإذا كان الأفضل السجود على الأرض المقدسة، فأي بقعة من بقاع الأرض أفضل وأطهر من تلك التربة التي ضمت جسده الشريف؟ فما ذاك إلا لأنها أكرم البقع مادةً وأطهر عنصراً وأصفى جوهراً من سائر البقع، كيف وقد انضم شرفها الجوهري إلى طيبها العنصري، ولما تسامت الروح والمادة، وتساوت الحقيقة والصور صارت هي أشرف البقع في الأرض بالضرورة[1].

لقد وقف الشاعر العراقي المعاصر، أمام هذه المشاهد والتأملات قبل الواقعة وبعدها، فصورها في بادئ الأمر طاردة، لأنّ الحقيقة كانت هكذا، ولكن بعد أن تشرفت بالدماء الطاهرة تحولت إلى أرضٍ مباركة مقدسة بفضل الله سبحانه وتعالى وبفضل الدماء الزكية الطاهرة.

(١) ينظر: معالم إنسانية في نهضة الإمام الحسين عليه السلام، جعفر الحائري /٣٨.

المبحث الثاني

تحولات المكان الحسيني (الكربلائي) في الشعر العراقي

استلهم الشعراء واقعة كربلاء بفضاءات شعرية واسعة، لأنّ الحدث عظيم ومهول ولاسيما الذين وظفوا حادثة كربلاء في الحياة المعاصرة بأساليب فنية جديدة وصاغوا نماذج أدبية رفيعة تنضح كالجرح المدمى وبالألم العميق المتجذّر في الوجدان فكانت كربلاء رمزاً للشهادة والتضحية في الشعر العربي وقد زادت نصوص الشعراء ثراءً بفضل كربلاء، مستلهمين معاني عاشوراء في الثورة والاستشهاد.

لقد استلهم عبد الرحمن الشرقاوي مادة مسرحيته (الحسين ثائراً) و(الحسين شهيداً) من تراجيديا كربلاء وصاغها بأسلوب فني مسرحي عكس فيها صدق المعاناة في الدفاع المستميت عن المبادئ والقيم الإنسانية الرفيعة في الثورة والاستشهاد بأسلوب درامي محكم، كما استطاع بمهارة وإبداع إبراز الصراع بين الإمام الحسين عليه السلام ويزيد وما يعكسه من تناقضات في المبادئ والمصالح والأهداف التي تعكس في الوقت نفسه فلسفة عاشوراء وأهدافها في الرفض والتضحية والفداء من أجل المبدأ والعقيدة[1]، كما كانت واقعة عاشوراء خير

(١) ينظر: واقعة كربلاء في الأدب العربي المعاصر، حسن هادي/٤٤.

درس معبّر عن أرادة الأمة وقيمها في كل زمان ومكان، فقد كان الشاعر والأديب والفنان يعبّر عن شدة ارتباطه بقضية الإمام الحسين عليه السلام فيشير بوضوح الى حضور قيم عاشوراء في أعماله فلم تكن عاشوراء مجرد حادثة تاريخية عـابرة وإنما كانـت ثـورة لهـا أبعادهـا الدينيـة والـسياسية والفلـسفية والفكريـة الـتي تـضمنت مفهومات وقيماً إنسانية عليا هي أساس خلودها عبر العصور، وقد انعكست هـذه القـيم والمفهومـات في الأدب والـشعر والفنـون الأخـرى فاستحـضرها الـشعراء والأدباء والفنانون بشكل مباشر أحيانـاً وغـير مباشـر أحيانـاً أخـرى، ووظّفوهـا في معالجة المشاكل الراهنة بحيث أصـبحت سمـة بـارزة مـن سمات الهويـة الثقافيـة الـتي غذت الحركة الأدبية والفنية بخبرات وتجـارب غنيـة، وطبعـت إنتاجهـا بمـسحة مـن الحزن والألم مثلما تحولت الى نماذج معاصرة في التضحية والفداء.

وقد وّظف بعض الأدباء والـشعراء والفنـانين واقعـة كـربلاء بوصـفها حـدثاً تاريخياً الى فضاءات أوسع تزامنت مع روح العصر فكانت الصلة نابـضة حيّـة بـين الأمس واليوم، وقد ذكرها الشعراء منذ الواقعة في عام٦١هـ ومـا زالـوا يتـذكرون تلك البقعة الملتهبة التي روّتها دماء الإمام الحسين عليه الـسلام وأصـحابه. كمـا أن المكان يمثل لدى الشاعر مفصلاً من المفاصل التي يعلق عليها ذكرياته، ويعزو إليها سبب آلامه وأحزانـه، لأنها – برأيـه– قـد شـاركت مـن دون أدنى شـك بالنتيجـة الحتمية، فهي حاملة الـذكرى الحزينـة والمفرحـة، فـلا غـرو أمـام هـذا الاعتبـار أن يحظى المكان بمكانة متميزة لرؤى وخيال الشاعر فنظرة الـشاعر إلى المكـان تختلـف عن نظرة الإنسان الاعتيادي فهي بعض من أجزائه وجزء من كليته المجتمعة بروحه وجسده [(١)]. إن كربلاء أرض تشرفت بالحسين وآله ولولاه ما كانت ولن تكون.

---

(١) ينظر: شعر رثاء الإمام الحسين عليه السلام في العراق ابتداءً من سنة ١١٠٠هـ حتى ١٣٥٠هـ، ←

لقد رسم الإمام الحسين عليه السلام تلك اللوحة الرائعة التي توّجها بلون الدم القاني، وقد وظف الشعراء تلك اللوحة بخطوطها وانحناءاتها وألوانها في شعرهم منذ مصرعه الشريف حتى الوقت الحاضر. فأصبح الرمز الحسيني مادة للأدباء والفنانين وكل ما يتعلق بكربلاء... وطفها، وعاشوراء من خلال قصائد الشعر ومدن الكلمات والجراح[(١)]. ومنذ فاجعة كربلاء سجل الشعر حضوره، واستطاع الشعراء تسجيل مواقفهم بعداً أو قرباً من تلك الفاجعة وكان للشعراء العراقيين المعاصرين قصائد رائعة في تخليد الإمام عليه السلام، إن أروع القصائد التي كتبوها طوال مسيرتهم الأدبية والشعرية كانت حسينية الطابع وقد حوت السهل الممتنع من الكلام والمعنى الذي يحرك المشاعر الإنسانية ويفجر في داخل النفس مشاركة وجدانية مع مصيبته، بل إنّ تلك الكلمات تكاد تكون رسالة تحمل بين جنباتها صيحة مدوية يطلقها الإمام الحسين عليه السلام في كل حين وفي كل مكان بوجه الباطل وبوجه الظلم والطاغوت والجبروت[(٢)].

إن كربلاء برمالها المجدبة وهجيرها، وحر عاشورائها وجفافها، ووحشة لياليها وقساوة نهارها، كانت الإطار المكاني الذي ضم كل ذلك، فتداخلت في وجدان الشاعر وصارت كربلاء تستحضر كل صور المأساة بمجرد حضور اسمها بحروفه الستة.

وهذا الشاعر طالب الحيدري يصدح بأهمية كربلاء المقدسة بالنسبة لبقية الاماكن ويربط ربطاً مثيراً للدهشة مشبها اياها بسورة الفاتحة مع بقية سور القرآن الكريم، وبغض النظر عن فضل فاتحة الكتاب على بقية السور الكريمة، فإنها هي

خالد كاظم حميد الحميداوي /٧٢.

(١) ينظر: آل البيت في شعر مهيار الديلمي، حيدر عبد الحسين مير زوين /٢٥.

(٢) ينظر: آل البيت في شعر مهيار الديلمي، حيدر عبد الحسين مير زوين/٢٥.

أوّل ما يبدأ به القرآن، وعليه فإنّ مفتاح المكان بين الأماكن على الأرض هي كربلاء فيقول:

يا "كربلاءُ" لأنت للبلدان	كالحمدِ أم الآيِ في القرآنِ
ما في رسالات السماء من الرُؤى	ومن المعاني زِدّتِهنَ معاني
ورسمتِ للأجيالِ أروعَ صورة	بدم الرجالِ وأدمعِ النسوانِ (١)

إن المكان الكربلائي أسس بمفرداته الجغرافية الحديثة رمزاً للأسى والجراح والحزن والندم، وقد أخذ الرمز ببعديه التاريخي والشعبي حيزاً في جملة من القصائد، وكانت صور الخيم والرؤوس والعطش والمأساة منفّرة على لسان الشاعر كاظم عبدالله العبودي* حين قال:

ومن رأى فتية صرعى كما شهبٍ

ألقت رحالَ الفدى مثل الندى ترفا

تسمو دماؤهم جادوا بها شغفاً

على ثرى "كربلا" فوق الذرى شرفا

يا مَنْ رأى لبوةً ترتاع والهةً

ثكلى وتدفع عن أشبالها العسفا

وصبيةً راعها أن تستجير بمن

من روعها انتفخت أوداجُهُ صلفا

(١) ملحمة كربلاء، من قصيدة (يا بنت زينب)، طالب الحيدري /٢٠٠.

*كاظم عبد الله العبودي، شاعر عراقي مواليد ١٩٥٢م صدر له العديد من الدواوين الشعرية، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق. لقاء شخصي في ٢٠١٣/٥/١٠.

وحّرةً هرعت لم تدر أين وما

ملاذها وجفت والبغي ما وجفا

وخيمةً ثُلَّ من أوتادها عمدٌ

وَحَّرقت كفٌّ عاتٍ ركنها سرفا (١)

لقد تغيرت سمات المكان في هذه الأبيات فلم يعد ذات أبعاد جغرافية محضة بل تحول ما برز فيه من أحداث ومأساة سمةً يغرق بها رمل كربلاء.. فرمال كربلاء هي بالبعد المكاني فتية صرعى ودماء ولبوة تدافع عن أشبالها وصبية مروعون وصبايا هائمات على وجوهن وخيمة محروقة الأوتاد.. هذه هي إذن مفردات المكان الطارد في الجغرافيا الكربلائية.

لقد برز التحول المكاني في صور توصيف مأساة مقتل الإمام الحسين عليه السلام وما حلّ بأهل بيته وأصحابه التي جسدها الشاعر فليح الركابي* في واقعة الطف بعد حدوث المأساة، فكان مكان الفاجعة مؤثراً في النفس ومكاناً طارداً منفّراً لأنّ البقية الباقية فيه نساء وأطفال دون رجال، ويحيطه الخوف والقتل، وسكانه الأيتام والأرامل فهذه الصورة المنفّرة الطاردة للمكان تحدثت عن آثار الفاجعة بعد انتهاء عمليات القتل والسلب والحرق حين انعدمت أبسط المقومات الإنسانية عند عدو كافر جاحد فعقد الشاعر مقارنة بين الصورة المنفّرة وبين موقف جنود الأعداء قائلاً:

---

(١) وعيون الهواشم أغلى ، كاظم عبدالله العبودي /٣٥.

* د.فليح الركابي: شاعر عراقي وأستاذ في كلية الآداب جامعة بغداد، صدر له العديد من الدواوين الشعرية والدراسات الادبية المعروفة. لقاء شخصي في ٢٠١٣/٦/١٥.

نساءٌ

وخوف

ويتمُ

وليس مع الركب من ناصرٍ أو حمي

سياط

وسبيُ

تذوقُ

ولوعة من أخسٍ ومن مجرمِ [١]

المكان موحش والصور معبرة عن هول المأساة بإيقاع بصري متوال فيه نواح وسبي وخوف ويتم، كل ذلك مكان طارد مفعم برائحة الموت التي تداخلت به وصارت تبعث من بين حروف كلمة كربلاء.

إن المتتبع لمراحل التاريخ الإسلامي يجد الكثير من الحركات التي تبنّت الدعوة إلى تنقية الفكر والعقيدة والواقع وإصلاحه، لكنها كانت على الدوام تقع في إشكالية الفهم التجزيئي للإسلام، وقد تبلورت من الواقع الاجتماعي رفض سلطة الإستبداد كناتج مهم وحيوي من ثورة الإمام الحسين الفكرية، وكفاحه النضالي على أرض كربلاء الذي يسمو بنبل أهدافه في سبيل الإصلاح والعدل الإجتماعي متطلعاً الى حياة حرة أفضل بلا اضطهاد واستغلال للإنسان [٢]، ومن

---

(١) منامات مستيقظة ، د. فليح الركابي /٨٣.

(٢) ينظر: الإمام المفكر محمد باقر الصدر" دراسات في حياته وفكره"، تأليف نخبة من الباحثين/٨٣.

ألفاظ المكان الطارد المنفّر التي جسدها الشاعر سبتي الهيتي* بعد واقعة الطف في كربلاء قوله:

ومن يكتب الشعر، إلا الدمُ
النازف اليوم في كربلاء
والضحايا من الأبرياء
تقوم قيامتهم
كل يوم يمر
على عرصات الفرات
حيث يجوس البلاء.
يا أمير النقاء.. (١)

لقد تمخضت رؤية الشاعر عن حقيقة هي أن الغايات السامية لا تتحقق إلا بالتضحية الكبرى، وهذا ما قدمه الإمام الحسين عليه السلام الذي ضربت فيه أمثالٌ بلغت أقصى حدود السمو في التضحية والفداء وأوضحت المعالم البارزة للسبل التي يجب أن تكون منهجاً لعبور العقبات والصعاب في هذه الحياة. فكانت كربلاء مكاناً تتطاير فيه الأشلاء وتفوح منه رائحة الدماء وهذا المكان بدا طارداً ومنفراً من خلال استعراض صورة الدم التي تلبس بها، والضحايا الأبرياء، والبلاء الذي حل بآلِ الرسول صلوات الله عليهم أجمعين.

---

*سبتي الهيتي شاعر عراقي مواليد ١٩٤٥م، صدر له العديد من الدواوين الشعرية، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب، لقاء شخصي ٢٠١٣/٧/١٥.

(١) ذاكرة الخلود (ديوان المراثي) ، سبتي الهيتي/١٦٠.

ويتوج الشاعر جابر الجابري * جهده الشعري بتاج كربلاء حين يشكل المكان في ذهنه شيئاً آخر..كائناً حياً واعياً لابد أن يحمل تفسيراً لما كان فراح يسألها قائلاً: أما ارتويتِ؟! أما شبعتِ من الدماء؟! وهذه كناية عن غزارة ما أريق فيها من دماء، ثم يصورها بودقة تصهر كل دعاة الصلاح وطلاب الحق، لقد كانت كربلاء دماً وقتلى وأن النفس الإنسانية تحاول أن تنفر من هذا المكان الدامي، فكانت صورة الشاعر مرعبة حين صورها بالمصهرة التي أذابت أرواح الشهداء فبدت مكاناً طارداً ومرعباً أول الأمر قائلاً من البحر الكامل:

يا كربلاء.. أما ارتويت من الدماء؟

أما شبعت من الدماء.. لا.. ليس ترويك الدماء

يا منجماً صهرت به أرواح كلّ الأولياء

يا تربة.. سجدت على أشواكها الحمرا جباه الأنبياء

لا.. ليس ترويك الدماء(١)

وبالرغم من أن كربلاء أصبحت رمزاً وأنموذجاً للتضحية والفداء والثبات على العقيدة والمبادئ فكانت منهلاً ثورياً ينهل منه كل الذين يرسمون لمسيرهم طريقاً لمقارعة الظلم والطغيان ودك عروش الظالمين والطغاة وإسقاطهم، فإنّ ذلك ما كان ليكون لولا أصوات المظلومين الصاعدة إلى السماء شاكية باكية حمراء

---

*السيّد جابر محمّد الجابري من مواليد عام ١٣٧٨ هـ بمدينة النجف الأشرف. نشأ وسط جوّ ثقافي وأدبي في النجف الأشرف، وبدأ حياته الأدبية الشعرية باكراً، له قصائد كثيرة في حقّ أهل البيت عليهم السلام، فهو يستلهم حياته وجهاده وأدبه وكذلك شعره من أهل البيت عليهم السلام ، جريدة المؤتمر، ع/ ٢٨٧٨ / ١٦كانون الأول ٢٠١٣م.

(١) الجُرح يا لغة القرآن، جابر الجابري /١٢.

لتنطلق في رحاب التحرر الغيبي والإلهي فتكون الإعصار الذي به تنهار عروش الظلمة المتجبرين ولولا الأشلاء وبرك الدماء ولولا عاشوراء ولولا ما قدمه الحسين عليه السلام.. أي أن كربلاء كمكان طارد لم يكن مجرد فراغ استوعب حدثاً بل كان المكان الطارد الذي يتولد بين أحشائه مكان جاذب وهذه سمة جديدة للمكان الطارد.. إن المكان الطارد في هذه المقطوعة يتفاعل مع الزمن الطارد (عاشوراء) وكلاهما ينتجان مكاناً جاذباً وزمناً جاذباً.

وقد صور الشاعر طالب الحيدري ما حدث قائلاً:

تَصَّاعدُ الأصواتُ للسماءْ

شاكيةً باكيةً حمراءْ

كأنها الإعصارْ

وكل حرفٍ نابتاً مسمارْ

في قدَميْ جبَّارْ

لا بُدَّ أنْ تنهارْ

أرائكٌ قامتْ على الأشلاءْ

سابحةً في بِرَكِ الدماءْ

بفضلِ عاشوراءْ

بفضلِ إرهاصاتِ كربلاءْ

بفضلِ ما قدَّمه الحسينْ[1]

(١) ملحمة كربلاء (حسين يا حسين)، طالب الحيدري/١٧٦.

وفي صور أخرى للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد* الذي صور فيها مفردات المكان الكربلائي ومكوناته وملامحه حين صور المأساة وما تعرض له الإمام الحسين عليه السلام من انتهاكات لحرمته كالتعذيب، أو الضرب بالسياط والذبح قائلاً:

أَلستَ الذي قالَ للباترات

خُذيني.. وللنَّفسِ لا تُهزَمي؟

وطافَ بأولادِهِ والسيوف

عليهم سوارٌ على مِعصَمِ

فَضَجَّتْ بأضْلُعِهِ الكبرياء

وصاحَ على موتِهِ: أقدِم! (١)

فالمكان الكربلائي هنا يتكون من الحسين الأبي الصامد المضحي وأولاده المنحورين بالسيوف وقفة الثبات التي لم تفارق الحسين عليه السلام حتى النفس الأخير.

ويرى الشاعر الدكتور أحمد الوائلي أن كربلاء كبعد مكاني ذي بعد زماني لم ينقطع بل ظل ممتداً زاحفاً إلى كل مكان وزمان حيث إنّ ما احتوته كربلاء هو رسالة حسينية تتخطى القرون وتهدم السدود لتصل إلى القلب، وتبعث الحياة في كل ضمير، حيث انبثقت من أرض كربلاء، فغطت بسناها مشارق الأرض ومغاربها.

---

*عبد الرزاق عبدالواحد: شاعر عراقي معروف ولد في بغداد عام ١٩٣٠م تخرج في دار المعلمين (كلية التربية) عام ١٩٥٢ وعمل مدرساً للغة العربية في المدارس الثانوية، شارك في معظم جلسات المربد الشعري العراقي.

(١) من مجرة الأئمة في رحاب الحسين عليه السلام، عبد الرزاق عبد الواحد/٢٢.

يا أبا الطَّف يا نجيعاً إلى الآن تمادى على شذاه الرُّمول

توَّج الأرض بالفتوح فللرَّمل على كلِّ حبَّةٍ إكليل

أرجفوا أنَّك القتيل المدمَّى

أوَمَن ينشئ الحياة قتيل!؟ (١)

إن الشاعر الوائلي رسم كربلاء متداخلة بين المشهد الطارد والجاذب فالطف نجيع ذو شذا توج الأرض بالفتح وبأكليل النصر وواهب دائم للحياة.

إن الدم صورة طاردة وهو أحد مفردات المكان الطارد الذي يجعل المكان مخيفاً، لكن دماء الحسين عليه السلام كانت حافزاً للثورة ودليلاً لها فيما بعد. فالشاعر عبد الرزاق عبد الواحد قدم صورة الاختضاب، وكسر الصدور الشريفة وهي صورة تثير الإنسان الغيور.

سلامٌ عليك فأنت السلام   وإن كنتَ مختضباً بالدّمِ!

وأنت الدليلُ الى الكبرياءِ   بما ديسَ من صَدْرِكَ الأكْرمِ

وإنكَ مُعتَصَمُ الخائفِين   أيا مَن مِن الذبْح لم يُعْصَمِ (٢)

إن الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد يرسم في هذه الأبيات صورة جديدة للمكان الطارد وهي صورة المكان الذي تبرز فيه المتناقضات بشكل واضح مكونة صورة ذات أبعاد جديدة وذات تعابير ملهمة، فالسلام فيها مختضب بالدم، والكبرياء بما ديس من الصدر الأكرم، وعصمة الخائفين بالذبح.. إن صورة مثل هذه الصورة لهي تحمل في طيّاتها نظرية صراع الأضداد التي دائماً ما تفتح عوالم

(١) حديث الجراح، لأحمد الوائلي /٢٢.

(٢) من مجرة الأئمة في رحاب الحسين عليه السلام، عبد الرزاق عبد الواحد/٢٢.

جديدة أرقى وأفضل.

وتعبّر الصورة الطاردة للشاعر عبد الأمير خليل مراد* عن عناصر منفّرة ومخيفة حدثت على أرض كربلاء الحسين قائلاً:

لو أنني صدرتُ بوحي وانتخبت

كربلاء

لقلت: يا تعاستي من زمنٍ

نحوسه عقيمة...

وخلدهُ فناء

هذا الفرات جرّةً يندبها

الذبيح

يسيل رهو الماء من شِقُوقها

كأنه الصلال فوق الشفة

الزكية

فتورق القضية

الدهر... غاضرية

الدهر... غاضرية [1]

---

* عبد الامير خليل مراد شاعر من الحلة مواليد ١٩٥٤م له العديد من الإصدارات الشعرية عضو الاتحاد العام للأدباء في العراق.

(١) الضحك من الايام الاتية، عبد الامير خليل مراد /٨٧.

فالعطش والذبح، والحرمان، عناصر طاردة والمكان مخيف أول الأمر لكنه بعد ذلك أصبح مورقاً لأنها الثورة والانتصار إنها ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي حولت المكان من حالة سلبية إلى حالة إيجابية. فضلاً عن أن الشاعر يوحد بين البعدين المكاني والزماني ولما كان البعد المكاني محدداً (بالغاضرية) والبعد الزماني (الدهر) غير محدد فالمعنى الذي يريد أن يقرره الشاعر هو أن المكان (كربلاء) استطال زمنياً ليكون حاضراً في كل الأزمنة.

تعتبر واقعة الطف من أكثر المعارك جدلاً في التاريخ الإسلامي فقد كان لنتائج المعركة وتفاصيلها آثار سياسية، ونفسية، وعقائدية ما تزال موضع جدل لاسيما في طريقة إحياء ذكرها إلى الفترة المعاصرة، حيث تعتبر هذه المعركة أبرز حادثة من بين سلسلة من الوقائع التي كان لها دور محوري في صياغة طبيعة العلاقة بين المسلمين عبر التاريخ وأصبحت معركة كربلاء وتفاصيلها الدقيقة رمزاً للشيعة ومن أهم مرتكزاتها الثقافية [1].

وفي المشهد الكربلائي أنواع شتى من عذابات الإنسان في اجواء القيظ والعطش، والقسوة، والقتل الجماعي، وحز الرؤوس، وهناك مأساة الجنون البشري، ومأساة الخيانة، ومأساة القتل المجاني، وكذلك مأساة المروءة والفضيلة.. الحسين عليه السلام اكبر من الحياة، ولعل لكبره هذا وعلوه خارج الدائرة التي يمكن للمرء ضمنها أن يتوحد مع البطل رغم تطلعه إليه ولذا يكون التعبير الفني عنه قاصراً على مداه الفاعل.

وحاكى الشاعر الدكتور الشيخ أحمد الوائلي أرض كربلاء التي احتضنت جسد الإمام الحسين الطاهر، ويطلب منها إيصال سلامه للحسين عليه السلام،

(١) ينظر: من وحي الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسيني /٤٧.

وأن تسكبه دمعة على رمالها، إن المكان الصحراوي منفر للإنسان لأنه يفتقد لأبسط مقومات الحياة وتلك رملة كربلاء في بادئ أمرها أرض جرداء، لكن ما الذي يجعل ملامح المكان حتى يتوسل الشاعر بالرمل ويسأله أن يبلغ سلامه وأن تحمله استغاثة وتسكبه فوقها دمع محبة وولاء.. وإن احتضان الرمل جسم الحسين هو المسبب إذن! فرمال كربلاء لا كباقي الرمال، والمشهد المكاني ليس كبقية الأماكن وإن كانت تضاريس المكان صحراء مقفرة ورمله سمراء.

أيها الرملة التي حضنت جسـ	ـم حسينٍ ولَفَّتْهُ رداءاً
بلّغي عني السلام حسينا	واحمليني استغاثةً ونداءاَ
واسكبيني دمعاً على رَملَكِ الآ	سر يجري محبّة وولاءاً [1]

إن معركة الإمام الحسين عليه السلام في أرض كربلاء مع قوى الباطل وشهادته وشهادة أصحابه وما تعرض له من ظلم وجور، لم يمنعه من أن يبذل دمه الطهور، موقناً أن هذا الدم هو الذي سيحقق لقضيته الانتصار والخلود، فكانت كربلاء بوصفها رقعة جغرافية مكاناً ذا مواصفات طاردة تتداخل فيها مواصفات المكان الجاذب.

لقد تجلى الظلم بأبشع صورة له يوم عاشوراء، فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يقاتل أناساً، بل كان يقاتل مجموعة من الوحوش التي نزعت عنها الضمائر الإنسانية وأفرغت من قلوبهم أبسط معاني الرحمة والإيمان فلم يكفهم ما فعلوا بالإمام وبأهل بيته وأصحابه من قتل وسلب حتى أغار أولئك الوحوش على مخيم الإمام الحسين لسلب من فيه وترويعهم وإرهابهم، وجلدهم بالسياط، وكان مشهداً منفراً مأساوياً جديداً فضلاً عن ذلك أوعزت القيادة العامة إلى الجند بحرق

(١) ديوان الشيخ أحمد الوائلي، (الرملة) /٦٥.

خيام آل النبيّ صلّى الله عليه وآله فحملوا مشاعل من النار وهم ينادون: احرقوا بيوت الظالمين [١].

ومهما صور الشاعر المأساة على رمال كربلاء بدقة مجسداً بشاعة العدو الذي حرق الخيام وقطع الرؤوس وسبى النساء والأطفال... فإنّ المشهد الكربلائي لا يكتمل إلا إذا وطئت ثراه بطلة الرمل الكربلائي السيدة زينب بنت علي عليهما السلام.

لقد كانت زينب سلام الله عليها بطلة كربلاء، والمرأة الشجاعة الباسلة التي قامت بواجبها الإلهي الإنساني، في طف كربلاء ولم ترهب الملوك والأمراء ولا الجنود والعساكر تلك السيدة التي يصعب وصف دورها، فبقدر صبرها تتألم وبقدر ألمها تصبر![٢]، وليس بغريب على تلك الذات العملاقة التي التقت فيها الأنوار الثلاثة: نور محمد وعلي وفاطمة عليهم السلام ومن تلك الأنوار تكونت شخصيتها اذ تجسد بمواقفها خصائص النبوة والإمامة وأمها الزهراء التي امتازت بتفضلها على نساء العالمين وهي كما يراها الشاعر طالب الحيدري:

يا بنتَ زينبَ ما نسينا زينباً	يوماً وموقفَها الشجاعَ الباني
هيَ خيرُ مدرسةٍ توطِّدُ عالَماً	أسمى بلا وهنٍ بلا أدرانِ
هيَ صورةُ امرأةِ الكمالِ كأمِها	في كلِ مجتمعٍ وكلِ زمانِ [٣]

وكان من عظيم إيمانها وإنابتها إلى الله تعالى أنّها في اليوم العاشر من المحرّم وقفت

---

(١) ينظر: كامل الزيارات، ابن قولويه، ٢٨٩، باب ٢٤/٩١.

(٢) ينظر: كربلاء ورموزها في الشعر العراقي الحديث، د. صدام فهد الاسدي، عبد الحسين برغش عبد علي/٥٣

(٣) ملحمة كربلاء، (يابنت زينب) ، طالب الحيدري / ٢٠١.

على جثمان أخيها، وقد مزّقته سيوف الكفر، ومثّلت به العصابة المجرمة، فقالت كلمتها الخالدة التي دارت مع الفلك وارتسمت فيه قائلةً: "اللّهمّ تقبّل هذا القربان"[١]

ولـولاكِ لم ينتـصر في الطفـوفِ　　　أخـوك لـدى الجولـة الحاسمـةْ

وقدمتـــــه هبــــة للــــسماءِ　　　وأنــــت علــــى شــلوه جاثمــةْ

فيـــا ترجمـــــان بطولاتــــهِ　　　وبــسملة النــصر والخاتمــةْ[٢]

إن اللسان ليعجز عن وصف شجاعة تلك المرأة المجاهدة، وأن اللغة على سعة مفرداتها لتضيق عن وصفها وعن التعبير عما ينطوي عليه الإنسان من الشعور نحو المرأة الكبيرة والقدوة التي وقفت بصلابة في أرض الطفوف ساندةً أخاها الحسين عليه السلام.

واستنبط الشاعر علي الفتال مزايا وسجايا السيدة زينب عليها السلام بقصيدة عنوانها (الموقف) قائلاً:

لـك في الطفـوف مواقـف ومواقـف　　　يابنــت مــن دمــه طفوفــاً نــازف

سـيظل يرتـشف الزمــان آوراهــا　　　ولهـا العقيـدة في المدى لمراشـف[٣]

وهناك الكثير من الأبيات التي تصف شخصية السيدة زينب عليها السلام ودورها القيادي في كربلاء، وما جاء في عظمتها يرجع إلى المشيئة الإلهية التي تربت وتغذت بها تحت سقف نبي الهدى[٤].

وللشاعر المعاصر رؤىً جديدة وآفاق ينظر من خلالها الى معطيات المكان

---

(١) ينظر: كامل الزيارات، ابن قلويه، ٢٨٩، باب٩١ / ٢٦.

(٢) ديوان د.علي الفتال / ٤٤.

(٣) مواقف، د.علي الفتال / ٣٤.

(٤) ينظر: كربلاء ورموزها في الشعر العراقي الحديث، د. صدام فهد الاسدي /٥٧.

الحسيني ويحاول استثمارها. نجد شيئًا من هذا في شعر جواد جميل* في قوله:

يا كِبَر الدماءْ.

يا لونَ إعصارٍ يخطّ الجرحَ.

في رمال كربلاءْ.

إغضبْ فهذا موسمُ الطواف بالمآزر الحمراءْ!! (١)

صورة الشاعر اللافتة للنظر هي (المآزر الحمراء) فالشاعر كرس موسم الطواف وهو طواف حول الكعبة أي موسم الحج وهو موسم العبادة والتوجه لله سبحانه وتعالى، والحجيج تأتزر بالملابس البيضاء.. الشاعر هنا يعد الجهاد موسم التوجه إلى الله تعالى والطواف حول المقدس، ولكن الجهاد يستدعي بذل الدماء كان الطواف التعبدي في الجهاد بمآزر حمراء، والمآزر الحمراء إشارة جميلة إلى المكان الكربلائي بصورته الطاردة.

ولديه توظيف أكثر عمقاً واتقاداً، ففي قصيدته (أشياء مثل الدم) يسأل الجرح، والطريق، والقلب، فيجيبه كل أولئك بما يفيد الإصرار على المضي في طريق العطاء والكفاح والشهادة على الرغم من أن الطريق مازال كما كان زمن الحسين عليه السلام:

وأخبرني بأنّ الطف مازالت تُرضّ

على ثراه الأضلعُ الحمرا

---

*جواد جميل: هو الاسم الحركي للشاعر حسن السنيد عضو في البرلمان العراقي، وقد عرفه لي الدكتور فليح الركابي في ٢٠١٣/٩/١٥.

(١) ديوان أشياء حذفتها الرقابة، (أشياء مثل الدم)، جواد جميل /١٨١.

وما زالت ملطّخةً هناك الأذرعُ البتْرا

ومازال الرضيعُ، يذوب من عطشٍ

فتمسح وجهَه (الحورا)

ومازال الحديدُ يئنّ، يُثقلُ مشيةَ الأسرى

وأخبرني بأن نَظما

وأخبرني بأن نَعرى

ولكنْ لم يقل: إنّ الجراحَ تُباعُ أو تُشرى!![1]

فما زالت المذبحة قائمة، ومازالت نماذج من الأضلع التي رُضّت في أرض كربلاء ونماذج من الرضّع الذين لم يجدوا حتى مثل الحوراء زينب التي كانت تمسح بيدها الكريمة وجوه أيتام الحسين.. ومازال الحديد.. ولكنه ذو ثقل آخر خلف قضبان السجون وسراديب المعتقلات، فكانت منفّرة، وبدا المكان طارداً لمن يراه، فصور الدم والقتل والدمار، والموت متوافرة فيه، المشهد منفر والمكان مفعم برائحة الدم والقتل، وقد تحول فيما بعد إلى مكان مقدس.

كما عبر الشاعر حسين القاصد* عما جرى للإمام الحسين عليه السلام في طف كربلاء من موت وقتل وذبح ونزف، وقد زاوج بين الدم والسيف والنزف وكلها صور طاردة للمكان.

بدأتْ وكان الموتُ إلفك

(١) أشياء حذفتها الرقابة، (أشياء مثل الدم)، جواد جميل /١٨١.

*حسين القاصد: شاعر وناقد عراقي من مواليد ١٩٦٩م وله دواوين منها: المجموعة الشعرية حديقة الأجوبة، أهزوجة الليمون، تفاحة في يدي الثالثة.

ومضتْ وظلّ الموت خلفك

ونزفت..

ثم نزفت

ثم

فكنت نزفك...

يكفيك أن حملوا السيوف ليقتلوك فكنت سيفك (١)

كانت الصورة نازفة ولكن النصر الأبدي كان حليفها، وكان الإمام عليه السلام سيفاً يدافع عن دين الله.

وعاش الشاعر حسب الشيخ جعفر* ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء على مستوى الفكر والواقع ووجد فيها صوراً أخرى للتضحية فهي ينبوع لكل الدروس العظيمة فصور هذه الدروس بهالات القداسة والإصرار البطولي المضمخ بالأشلاء والدماء والرؤوس المقطوعة، وهذا ما يجعل المكان طارداً موحشاً:

الجسدُ المنطفئُ المطحونُ بالحوافر

باقٍ على الطفوف

والرأس من بابٍ الى بابٍ على رماحهم يطوف

فمن يلمُّ لحمي العالق بالخناجر؟

---

(١) سادن الماء، حسين القاصد / ١٨.

* حسب الشيخ جعفر: ولد عام ١٩٤٢م في العمارة وتخرج في معهد غوركي للآداب بموسكو ١٩٦٦م. دواوينه الشعرية: نخلة الله ١٩٦٩م - الطائر الخشبي- ١٩٧٢م زيارة السيدة السومرية ١٩٧٤ - عبر الحائط في المرآة ١٩٧٧ - الأعمال الشعرية ١٩٨٥.. ديوان الشاعر / ٣.

وينزع السهم الذي يخترق الخواصر؟ [١]

لقد أضاف الشاعر صورة حركية للمكان حينما أشار إلى طواف الرأس من باب إلى باب أي من مكان منفر طارد إلى مكان منفر طارد آخر.

وعَدَّ الشاعر السيد مرتضى القزويني * أن ما تعرض له الإمام الحسين عليه السلام من تعذيب وقتل على أرض كربلاء هو صرخة مدوية، بل هو صوت الحق أطلقه في وجه الظالمين.

يا سيد الأبرار قد هزّت شجاك	الراسيات وشقت الجلمودا
يا بهجة المختار ضعضع قتلك	الاسلام والإيمان والتوحيدا
ورفعت رأس الفخر ترنو للعلى	حزت السعادة إذ مضيت حميدا
وتركت صوت الحق يدوي صارخاً	بيّضت وجهي اذ صرعت فقيدا
لك في محاني الطف صيحتك التي	ملأت سماع العالمين نشيدا
أنا قدوة للمصلحين أقودهم	نحو الفضيلة سائغاً وشهيداً [٢]

إذا كانت مطامح الشباب عيشاً رغيداً ومستقبلاً سعيداً حافلاً بكل ألوان النعيم كما نشاهد ونرى، ففي الطف شباب كربلاء كان كل أمانيهم ومطامحهم صموداً أمام الأهوال وصبراً في البأساء واستشهاداً بحد السيوف، ولم يكن لتلك

(١) ديوان وجيء بالنبيين والشهداء، قصيدة الصَّخر والنَّدَى، حسب الشيخ جعفر/٣٥.

*السيد مرتضى بن السيد صادق بن السيد محمد رضا بن السيد هاشم القزويني الموسوي الحائر: ولد في كربلاء سنة ١٣٤٩ هـ / ١٩٢٧م ونشأ بها تحت رعاية والديه، أخذ عن أبيه دروس العلوم الدينية، وقرأ المقدمات في النحو والمنطق والبلاغة والفقه وأصوله على العلامة الشيخ جعفر الرشتي والشيخ محمد الخطيب. قناة كربلاء الفضائية.

(٢) ديوان السيد مرتضى القزويني /٢٤.

الفتوة الغضة والصبا الريان أن تهتم أو تفكر بما أعد لها من غضارة الدنيا وما ينتظرها من صفو الحياة ولهوها ومتعها، بل كان كل همهم التطلع إلى أي سبيل من سبل الشهادة يعبرون وأي موقف من مواقف البطولات يقفون [١].

إن تلك الأرزاء تميَّزت بطابعها الخاص في مراثي الإمام الحسين عليه السلام وما حدث في كربلاء المقدسة، وقد تميَّزت بالرؤية الحكيمة التي تنسجم وشباب علي الأكبر عليه السلام، فقد جعل الشاعر يبكي على الشباب ويتحسَّر لأنه يمثل المستقبل، "ولعلَّ السبب في ذلك يعود إلى دواع نفسيّة تتمثّل بالغرائز المتأصلة في النفس الإنسانيَّة" [٢]، التي تدفع الإنسان إلى تحمل الألم لفقدان الشباب، لذا كان صوت الشاعر عبد الرسول الكفائي* مندفعاً نحو تلك الرزية العظيمة التي هزت السماء قبل الأرض قائلاً:

هانت برزء السبط أرزاء الورى	كل الرزايا رزؤه إنساني
فيه العزاء لكل خطب فادح	ما من مصاب مثله أشجاني
فابك الحسين بكاءه في كربلا	خير الشبيبة من بني عدنانِ
أعني علياً من ذؤابة هاشم	أردته أيدي الغدر والعدوانِ [٣]

هناك على مشارف العراق وفي الطريق إلى كربلاء كان الإمام الحسين عليه

(١) من وحي الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسيني /٥٤.

(٢) المصدر نفسه /٥٥.

* عبد الرسول الكفائي: هو السيد عبد الرسول نجل العلامة المجاهد السيد عزيز ابن السيدهاشم الحسيني الكفائي من اسرة علوية عريقة ، وله دواوين كثيرة منها ديوان نوافح الولاء، وديوان اللؤلؤ الرطيب في نظم الخطيب وغيرها. ديوان نوافح الولاء /٥.

(٣) قصيدة في رثاء علي الاكبر عليه السلام، عبد الرسول الكفائي / ٨٦.

السلام يسير على رأس قافلة الشباب الأبطال متحدياً أقوى سلطة وأبشع طغيان عرفه التأريخ من الحاكمين متحدياً كل ذلك بسبعين من الرجال والشباب ليحطم بهذا العدد القليل قوى الشر والطغيان ومعاقل البغي والعدوان وليعلم أبناء آدم كيف يموتون في سبيل العزة والكرامة.

كانت كربلاء المقدسة أرضاً جرداءَ مقفرة، قد ضمت في ثراها جسد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، وجسد أخيه أبي فضل العباس بن علي بن أبي طالب صلوات الله تعالى عليهم فأصبحت منارة مشرقة، فضلاً عما تضمه من أجساد أخرى ومن شهداء واقعة كربلاء ومنهم الحر بن يزيد الرياحي الذي قال فيه الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد:

سلامٌ على الحُرِّ في ساحَتَيك ... ومَقحَمِهِ جَلَّ من مَقحَمِ

سلامٌ عليهِ بحَجمِ العَذاب ... وحجمِ تَمزُّقِهِ الأشْهَمِ

سلامٌ عليهِ.. وعَتْبٌ عليه ... عَتْبَ الشغوفِ بهِ المُغرَمِ

فَكيفَ، وفي ألفِ سَيفٍ لُجِمتَ ... وعُمرَكَ يا حُرُّ لم تلجَمِ!؟[1]

وغيرهم من شهداء معركة الطف الخالدة، فآلى الله سبحانه وتعالى إلا أن يجعل من موضع قبره حرماً يطوف الناس حوله ليلاً ونهاراً يتوافدون عليه في مواسم كما تتوافد الحجيج لبيته في مواسم الحجيج والاعتمار. وقد أكدت هذه الحقيقة وذكرت في زيارة الإمام الحسين عليه السلام في قوله "وجعل أفئدة من الناس تهوي إليك". [2]

---

(١) في رحاب الحسين، عبد الرزاق عبد الواحد، جريدة العدالة، ع٦١٩، سنة٢٠٠٦م /٢٠.

(٢) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي / ٤١٨.

فالحلول بهذه الأماكن وما يشابهها ينقل الإنسان من حالة مادية إلى حالة روحانية ليعوض ما تجشمه من عناء الحياة وهمومها، ليعود إلى الرب العظيم متوسلاً وطالباً منه الرحمة والمغفرة، وهذا ما كثفه لنا الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد وهو يخاطب الإمام الحسين عليه السلام في قوله:

قدمتُ وعَفوَكَ عن مقدمي حسيراً أسيراً كسيراً ظمي

قدمتُ لأحْرمَ في رحبتيك سلاماً لمثواك من مَحْرَمِ!(١)

وهنا أيضاً يستعمل عبد الرزاق عبد الواحد كلمة (أحرم) في إشارةٍ إلى ما يقوم به الحاج عند التوجّه إلى مكة وكذلك (المحرم) وهو المكان المحرّم، وهو هنا أما يحاول أن يشير إلى قداسة المكان وأنه يجب أن يحرم قبل الدخول إليه لما يمتلك من قدسية والمقام الألهي أو أن أرض كربلاء هي حرم آخر يضاهي مكة وهو حرم للإباء والصبر والشهادة والتضحية.

ويستحضر الشاعر ضياء الاسدي* كربلاء وأجواءها في قضية الإمام الحسين عليه السلام ومضامينها الواسعة الممتدة، والرموز الضاربة والدلالة العميقة بقوله:

على ضفّةِ العطشِ (الكربلائيِّ)،

يومًا وُلِدْتُ،

وتحت لَهاتيَ طينُ الفراتْ

وبينَ جفونيْ العصافيرُ نائمةً،

---

(١) في رحاب الحسين، عبد الرزاق عبد الواحد ، جريدة العدالة، ع٦١٩، سنة٢٠٠٦م /٢٠.

*ضياء عبد الرزاق حسن فرج الله الاسدي: ولد عام ١٩٦٠ حاصل على الإجازة في الآداب، دواوينه الشعرية: ذاكرة الصمت والعطش ١٩٩٢، صدقت الغربة يا إبراهيم١٩٩٣.

والنخيلُ تهدهدها،

والصبايا تصوغُ لها الأغنيات [(١)]

حيث تداخل المشهد الكربلائي الزاخر بالعطش القاتل في ذاته حتى صارت مفردات المكان الحسيني وجود الشاعر وتكويناته النفسية والجسدية فعلى العطش ولد وهو الفراتي النشأة والتطلع، ونوم العصافير وهدهدة النخيل والصبايا، وهي الرموز الجمالية لدى الشاعر ينشد لهذه الأرض الرسالية أرض كربلاء الطاردة.

وقد طغى الوصف الموضوعي لما جرى في كربلاء على صوت الشاعر، حتى كاد يختفي في زحمة صهيل الخيول، وصليل السيوف، وأصوات النساء الثكالى، وصراخ الأطفال اليتامى وكانت طاردة منفّرة في مكان قتل ودماء كما يراها الشاعر عباس خضير حسين* في قصيدته (بكائية إلى كربلاء):

يا دمعةً ذرفتها في مطلع الفجر على رمال كربلاء

حتى إذا بكيت كربلاء

هممتُ بالفرات

جرت عيوني مثلهُ فمات

صرختُ يا حسين

فرددَ الاطفالُ والنساء والرجال

حسينُ يا حسينُ يا حسين

---

(١) ذاكرة الصمت والعطش، (بطاقة شخصيّة)، ضياء الاسدي /١٥.

*عباس خضير حسين: شاعر عراقي ولد في ١٩٧٣، اعتقل في عام ١٩٩٣، وأطلق سراحه ١٩٩٥وطرد من الجامعة في السنة ذاتها، وله ديوان " تدوين لزمن ضائع"، ديوان الشاعر/٢.

حسينُ يا حسينُ يا حسين [(١)]

إن للمكان في ذهن الشاعر عباس خضير حضوراً جارفاً متسلطاً على انفاسه وبصره وأحاسيسه حتى أن الحزن الكربلائي، والغضب الكربلائي ينمو بفجر كربلاء وعلى رمال كربلاء ويموت الفرات، يتفجر صراخاً على صانع مشهد كربلاء ومخرج قصتها الفاجعة...

وفي قصيدة الفارس الصريع وكربلاء الهزيمة للشاعر راضي مهدي السعيد* يصور من خلال مأساة الحسين في كربلاء ويؤكد إدانته لسلبية الأمة وتقاعسها وجبنها في كربلاء حين حصلت المأساة:

في كربلاء الامس كان الجرح والهزيمة

لأمة لم تحمل الراية حين شبّت السيوف

واخترقت مفاوز الصحراء خيل تمتطيها أذرع لئيمة

ترهب فارساً أتاها يزرع الحتوف

في أعرق تشدها خطى محاريب

سنين شمسها رميمة [(٢)]

---

(١) ديوان "تدوين لزمن ضائع"، بكائية الى كربلاء، عباس خضير حسين / ٢٢.

*راضي مهدي السعيد: شاعر عراقي ولد عام ١٩٣٢ في بغداد. قطع مراحل دراسته الابتدائية والثانوية بتفوق ، وتخرج في معهد إعداد المعلمين ، وكلية الحقوق العراقية. دواوينه الشعرية: رياح الدروب ١٩٥٧ - مرايا الزمن المنكسر ١٩٧٢ - الشوق والكلمات ١٩٧٧ - ابتهالات لوطن العشق ١٩٨٥ - الصيحة ١٩٩٨إلى جانب مجموعتين شعريتين مشتركتين هما: المعركة ١٩٦٦ - أصداء على الشفاه ١٩٦٧.

(٢) ديوان مرايا الزمن المنكسر، الفرس الصريع وكربلاء الهزيمة، راضي مهدي السعيد / ١٩٦.

ويصور الشاعر الكفائي الذين شاركوا في المشهد الكربلائي بالزهور التي ذوت على الرغم من أنها في أرض الخصب والنماء وكذلك يصور البطولة العباسية والحسينية وهي تصارع العطش عند نهر زاخر بالمياه.

فذي فتية كزهور الرياض ذوت وهي في روضها الممرعِ
وثاوٍ على ضفة العلقمي ظمي على حوضه المترع [١]

ونرى الشاعر جابر الكاظمي* يلمح الى دليل قاطع على عظمة كربلاء التي أصبحت مرآة للإنسانية جمعاء في قوله:

يا أيها العاتن الشهيد شمخت في الخالدين حرا
وبات ذكراك في فؤادي له أجيجٌ فما استقرا
وجمتُ عشرا نطقت شعرا كأنني قد قذفت جمرا [٢]

وللشاعر علي العلاق[٣] طلليات في عزاء الحسين فقد ورد في إحدى قصائده الكثير من الإضاءات الخاصة بالفضاءات المكانية والزمانية، ولا سيما الطاردة في بادئ الأمر حيث كانت كرباً وبلاءً معبراً عن الصورة النافرة لأسر الذين أطلقوهم حينما مكنهم الله عليهم وشتان بين مكة بعد فتحها، وكربلاء بعد نزول السبط فيها قال:

ضربوا بعرصة كربلاء خيامهم فأطل كرب فوقها وبلاء

(١) ديوان نوافح الولاء، عبد الرسول الكفائي (زينب الحوراء) /٢١.

*جابر الكاظمي: جابر جليل كرم البديري الكاظمي (١٩٥٦ في الكاظمية) هو شاعر عراقي، معظم أسرته يكتبون الشعر، درس الأدب العربي، ثم هاجر من العراق سنة ١٩٨٠ إلى سوريا.

(٢) ديوان كليم الحسين، جسر الخلود، جابر الكاظمي /٣٣.

(٣) د. علي العلاق: شاعر عراقي وتدريسي في جامعة الشارقة، صدر له العديد من الدواوين والدراسات، عضو إتحاد الأدباء العرب.

لله يـــوم فيـــه قـــد امـــسيتم أسـراء قـوم هـم لكـم طلقـاء [(١)]

وقد تعدى الشيخ الوائلي درجات الإبداع في وصفه خلود الإمام الحسين عليه السلام سوى وثيقة وقعتها العصور في قوله:

فـارو الخلود فمـا كـان الخلـود سـوى وثيقـة وقعتهـا باسمـك العـصر [(٢)]

في حقيقة الأمر يحير الباحث أمام نص الوائلي، فماذا ينتقي وماذا يختار وماذا يترك، فهو نص منسوج بصور فضاءات المكان وخاصة هذا المكان الخالد الطف في قوله:

يا أبا الطف ساحة الطف تبقى وعليهـــا مـــشاهد لا تـــزول [(٣)]

وكان للأطفال دور لا يقل أهمية عن دور الكبار في مأساة كربلاء (طف كربلاء) حيث إن دمعة الطفل المترقرقة على خده الدامي، تعطي للمشهد الكربلائي لونه الخاص، بل تقلب صورها في واقعة كربلاء فتراها باكية عطشاً، والفادية لحاميها بنفسها والمحتملة لكل الآلام والعذابات، وطفل رضيع يُذبح على صدر أبيه هو سيد موقفها، وهذا صوت طفلة فقدت الناصر ولم تجد إلا جسد أبيها تستغيث به.

وقد عبر الشاعر الشيخ ياسين عيسى عن وحشية المكان وتناثر الجثث على الرمال وقد مُثّل بها.. وهذه مشاهد منفّرة وطاردة في بادئ الأمر فالمكان مكان حروق وتشريد وقتل:

(١) ادب الطف، د. علي العلاق، ج٩ / ١١٧.
(٢) ديوان الوائلي، ج١/١٨.
(٣) ديوان الوائلي، ج١/٢٢.

قمْ...قمْ أبي

لِمَ الرقاد؟

ألا ترى!

أحرقوا خيمِي

شّردوا حرَمي

قتلوا عِتْرَتي

قمْ.. قمْ أبي (١)

إنَّ دلالة اسم كربلاء تخطَّت المعنى المجسَّد إلى معنى حي حاول الشاعر رشيد ياسين* من خلاله ان ينطقها بما شهدت من مآسٍ، فكانت رمزاً لا تنضب دلالاته كما في قوله من (من الخفيف).

إيـهِ يـا كـربلاء عـودي بهـا تيـْ ـكَ المآسـي مـن نائبـات العـصورِ

وصـفي موكبَ الحـسين وقـد قـا مَ يلـبي ضـراعةَ المـستجيرِ (٢)

وهذا الشاعر الوائلي يقف منوهاً بحشاشة كبد أبي عبدالله الحسين عليه السلام في رضيعه، وكيف اصطفاه الله من دون الخلق ليبقى رمزاً يشع بالزهو والانعتاق.

تعـود بـي الـذكرى لطفـل بمهـده إليــه شمــوخ مــن غــدٍ يتطلــعُ

فتــسألني عــيني أبالمهــد صــارم تململ أم طفـل مـن الـدر يرضـعُ

---

(١) ديوان الطفولة في كربلاء، الشيخ ياسين عيسى /١٠٨.

* رشيد ياسين: شاعر عراقي ولد فى بغداد عام ١٩٢٩ وتوفي في٢٠١٢عن عمر ناهز الثالثةوالثمانين عاماً، بدأ كتابة الشعر في سن مبكرة سطع نجمه في أواخر أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين في العراق؛ كواحد من الرواد البارزين في حركة الشعر العربي المعاصر.

(٢) يوم الحسين، رشيد ياسين / ١٧٩.

طلعت فما هز البطولات مثلها   سمات ربيع وهي بالأمس بلقعُ[١]

إن الكارثة الإنسانية الكبرى، والنتائج الوخيمة إذا ما تهدد وضعُ الطفولة في استقامته وتوجيهه، لأنها هي مشروع الإنسان في الأرض وإذا ما فسدت البذرة فلا نتاج على البيدر، وأي نكبة تربوية على الطفولة أو أي تقصير في شأنها له مردوده السلبي على مستقبل الإنسانية، والعكس صحيح، إن قتل الأطفال أمر مرعب، يفتقر إلى أبسط مقومات الإنسانية وهذا المشهد منفّر جعل المكان طارداً تخاف منه النفوس. وهذه الاجواء الحزينة الدامية كانت طاردة ومنفّرة بأجوائها الحزينة.

وللشاعر محمد الحلي* صورة تطفح بالأسى عندما يصف دماء الطفل الرضيع التي رمى بها الإمام الحسين عليه السلام إلى السماء في طف كربلاء، وكان الموقف في منتهى الاباء حيث يقول:

سيدي يا أبا الرَّضيع المُدَمىَّ   من دِماءِ الرَّضيعِ ضجَّ الإباءُ

قد تعالتْ "هيهاتَ" منكَ تُدوِّي   يتهاوى برَجعِها الطُلقاءُ

صَرخةٌ أيقظَ الزمانَ صداها   بكتِ الأرض عندَها والسماءُ

بيَدَيكَ الدِماءُ ماجتْ إباءً   حينَ عَزَّ الإباءُ والكبرياءُ[٢]

لقد أضاف الشاعر محمد راضي مهدي السعيد[٣] إلى المشهد الكربلائي

(١) الحسين في ضمير الشعراء، د.احمد الوائلي، ج١/٤١.

* د. محمد عبد الكاظم الحلي: شاعر عراقي معاصر، ولد في ١٩٥٤ وهو أخو الباحثة وله ديوان مطبوع، وأشعار كثيرة في حب آل البيت الأطهار عليهم السلام ومختلف الاغراض الشعرية.

(٢) يا حسين، د. محمد الحلي / ٣٥.

(٣) محمد راضي مهدي السعيد: شاعر عراقي ولد عام ١٩٧٧م صدر له العديد من الدواوين والدراسات، حاصل على شهادة الدكتوراه في الادب.

صورة رائعة عن الترابط الوثيق بين المرء وأخيه، أن مشهد الموت وهو يحيط بالحسين وتوجه الحسين إلى أخيه العباس.. لقد أشار الشاعر إلى أن الانهيار الحقيقي هو حين يفقد الرجل المخلصين من حوله... وهذه الصورة تذكرنا بأبيات دريد بن الصمة حين قال:

دعاني أخي والخيل بيني وبينه ... فلما دعاني لم يجدني بقُعددِ

فجئتُ إليه والرماح تنوشه ... كوقع الصياصي في النسيج الممدّدِ

وقد تفوقت صورة الشاعر السعيد على صورة ابن الصمة حين أخذ أخو دريد يستنجد بمن هو قادر على نجدته، غير أن الحسين لم يكن يستنجد وإنما كان يريد المواساة فوجدها في من سبقهُ إلى الموت:

اخرج على أخيك فالمنون

دائرة عليه... والحصون

آخذة في الانهيار (١)

ثم قوله متحدثاً عن سبايا واقعة الطف، وما حصل لهن بعد تلك والواقعة فالرباب وهي زوجة الإمام الحسين عليه السلام كانت تمسح التراب عن رأس سكينة بنت الإمام الحسين عليه السلام بينما عمها العباس يشاغل الجند ويصدهم، مما حدا بالمكان أن يكون طارداً ومترباً قائلا:

وكانت (الرباب)

تنفض عن رأس (سكينة) التراب

وبينما يشاغل العباس

---

(١) تحولات الروح، محمد راضي السعيد/٨١.

جند الأمير

كان النفير

يجنح نحو الصمت..

مدن سكنت في أعالي الضياء

وفي زمن في زوايا الدعاء[١]

وفي قصيدة باتجاه الألق للشاعر نوفل ابو رغيف* يصور فيها كربلاء وكأن لها طعماً دلالة على القتل والدماء التي أريقت على تلك الأرض التي تشرفت بجسد الحسين، هكذا غدت كربلاء بعد واقعة الطف الأليمة.

وفي لحظةِ طعمها كربلاء

خلفها عالم من عتب

كانت الأرض قبّرةً من ذهب

تحلق فوق ثراك

فمملكة من بقايا ترابك كانت هناك

صغار... ونار

وخيل..

ورائحة من خطاك [٢]

والشاعر عمار جبار خضير يصف علياً الاكبر ابن الامام الحسين عليه السلام

---

(١) المصدر نفسه /٨٠.

*د. نوفل ابو رغيف دكتوراه فلسفة في الأدب العربي نقد النقد: شاعر وإعلامي/ اصدر ثلاث مجموعات شعرية وأربعة كتب في النقد.

(٢) ديوان نوفل ابو رغيف / ٢٢٢.

بأن له طلعةً تشبه طلعة رسول الله صلى الله عليه واله وعلي عليه السلام وقد قطعته السيوف وداسته الخيل، في أرض كربلاء، فكان المنظر ومكانه منفرين:

لــك طلعــةٌ تحكــي الــنبيَّ وغــرةٌ   تحكــي عليــاً ذاك ليــث الغــابِ
يــا قاصــدا قــبر الــذبيح بكــربلا   ابلغــه مــن فــيض الأســى تــسكابي
سـلم علـى الـشهداء مـن آل الهـدى   واقــرأ عليــا بلغــتي وخطــابي
يـابن الحـسين شـفاعة هـي ترتجـى   يــوم الممــات ومبعثــي ومــآبي(١)

ونجد في أبيات الشاعر محمد الحلي صوته واضحاً من خلال تلهفه، وتحسره لما أصاب السيدة زينب عليه السلام أخت الإمام الحسين عليه السلام في طف كربلاء، ونجد اللغة هادئة، تتسلل بهدوء ورصانة إلى ذهن المتلقي لتفجعه بدموع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي زينب وأخاها ذبيح كربلاء من خلال الخيال المتجسد في الصورة الواردة في البيتين الثاني والثالث.

إنــيِّ لَــأبكي حــينَ أذكُرُهــا ومــا   أبكــي علِيّهــا مُــشفِقاً أرثيهــا
فهــيَّ الــتي في كــربلاءَ تكلمَــتْ   بلــسانِ فاطِمَــةٍ وبــأسِ أبيهــا
يــادمعُ تُبكــيني عُيــونُ المُــصْطَفى   تَبكــي عليهــا والــذّبيحِ أخيهــا(٢)

إنها محاكاة لطبيعة الأحداث التي جرت في كربلاء، وانتهت بسوق نساء الحسين عليه السلام سبايا في مشهد مؤثر، كان بمنزلة المنبع الثر لصور الشعراء.

والحقيقة أنَّ المشهد الكربلائي جرى على أهل بيت النبي، أشد قسوة مما يذكره الشعراء، لكن الوجه الآخر للمشهد الحسيني في ذلك اليوم كان أكثر إشراقاً، وأعذب رواية، فالحسين عليه السلام على قلَّة أنصاره، وكثرة أعدائه تحدّى الخصم

(١) علي الاكبر.. سيدي، عمار جبار خضير/١٧.
(٢) ديوان ما رأيت إلا جميلاً، د. محمد الحلي/٢٥.

قائلاً: " لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد"(١).

إن ترجمة استشهاد الأمام الحسين عليه السلام بحق إرادة ربانية فقد كان محتضناً أرض الطف كمسرح المأساة وسرى الحدث حيث رفرفت أرواح الشهداء من أرض كربلاء إلى عنان السماء وتعلمت البشرية دروساً كيف يصون الإنسان مبادئَ ومعاني وتنوع الرؤى والحيثيات والمعطيات كون الإمام الحسين عليه السلام قِبلةَ الثائرين في ملحمته الخالدة في واقعة الطف الكبرى أرض الشهادة والفداء(٢).

ويتجدد حزن الشاعر بتجدد ذكرى كربلاء، التي صارت نغماً يحلو للشاعر ترديده، لأنه يرى في وقفة الحسين صفحة من صفحات الاسلام المشرقة، التي لا تزال باقية، وعبّر الشاعر صدام الأسدي* في قصيدته (الإمام الحسين عليه السلام وعنوان الشهادة)، عن أن الحسين عليه السلام عاش أمير القلوب وسيبقى لأنه أطلق العنان للدماء أن تروي أرض كربلاء، فتتحول من مكان مجدب إلى روضة مزهرة يانعة يقول:

هو أنت عنوان الشهادة سيدي	بل أنت أعطيت الشهادة مولدا
عش في القلوب كما نراك حسيننا	واترك جراحك للبرية معبدا
من أين أبدأ يا حسين وكيف لي	ألقى دماءك في طريقك مشهدا
وسقيت قفراء الخراب كرامة	ووقفت في درب المحال محددا (٣)

---

(١) تاريخ الطبري، ج٤ /٣٢٣، والإرشاد، الشيخ المفيد / ٢٣٥.

(٢) أمير المنبر الحسيني، محمد سعيد الطريحي / ٤٥.

*د.صدام فهد الاسدي: مواليد البصرة ١٩٥٣م عضو الاتحاد العام للأدباء في العراق ، استاذ في كلية التربية جامعة البصرة، صدر له العديد من الدواوين الشعرية.

(٣) عنوان الشهادة، د. صدام فهد الاسدي /٣٤١.

وقد صور الشاعر خلود الإمام الحسين عليه السلام، وهزيمة خيول الفاتحين، وأن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام هو الأمتداد العظيم الذي أخرس كل التقولات وهزم الأعداء بصبره، وكان تحولا رائعا بعد أن أراد الطغاة الفناء لهذا البيت:

إضرب لنا مثلاً على عمر	الشعوب، وجدت زين العابدين
ما اكبر المحراب يصهل	في خيول الفاتحين
ما اكبر الصلوات تسحق	كل زيف الناكرين [(١)]

لقد تجلّى دور الإمام علي بن الحسين (السجاد) عليه السلام في قيادة مشروع الاِحياء وثورة التصحيح بالارتقاء بمهمته الرسالية إلى استكمال هذا المشروع وريادة هذه الثورة من خلال مدرسة علمية كبيرة بوجوده في المدينة المنورة التي هي البداية الثانية. ولكل هذا فإنّ الإمام وعدداً قليلاً من المخلصين الذين تظافرت جهودهم على نصرته إستطاع أن يحقق نتائج قياسية ويترك آثاراً عظيمة لا يقدر على تحقيقها أي زعيم أو قائد يمرُّ بظروفه، فدوره العلمي كان رائداً وعظيماً في إحياء الرسالة المحمدية وتعميقها في نفوس المسلمين [(٢)].

وإذا ما أردنا أن نختم حديثنا عن كربلاء (مكاناً) احتضن المأساة والألم الحسيني فبما رسمه الشاعر عبد الهادي الحكيم* الذي اعتمد الحنكة والمهارة

(١) الحسين عليه السلام منقذ البشرية، د. صدام فهد الاسدي / ٣٤٥.

(٢) دائرة المعارف الشيعية، للشيخ محمّد حسين الأعلمي، ج٢٣ /١٩٣.

*د. عبد الهادي الحكيم: ابن السيد محمد تقي ابن السيد سعيد الحكيم، تلقى تعليمه الاولي والثانوي في مدارس جمعية منتدى النشر في النجف الأشرف، حصل على شهادة البكالوريوس من كلية الفقه في النجف الاشرف في اللغة العربية والعلوم الاسلامية بدرجة امتياز عام ١٩٧٠م، واصل دراساته العليا بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة، وجامعة السابع من ابريل بليبيا، نال شهادة الدكتوراه في الشريعة الاسلامية عن بحثه المعنون "عقد التأمين حقيقته ومشروعيته "لندن / المملكة المتحدة سنة ٢٠٠١ والآن هو عضو في البرلمان العراقي.

التصويرية في وصف رضيع الإمام الحسين عليه السلام وما آل إليه من ذبح وعطش وظلم، حين ذُبح بسهم في رمضاء كربلاء قائلاً:

ورضيع في جيده رقة البل ... لو ممزوجةً بماء الجمان

وبخديه صفحة البدر وضاء ... تراءت وحمرة الارجوانِ

ظـآمِئٍ مرّتَين: للْبَاردِ العَذْب ... وَلِلثّدْيِ، لارْتِضَاعِ الحنَانِ

الى ان يقول:

نَحَروهُ بِسَهمِهم فأراقُوا ... حُمْرةَ الوَردِ فوْقَ غُصْنِ البَانِ

وَأسَالوا مَاءَ الطُّفولَةِ واغْتَالوا ... بحِقْد بَرَاءَةِ الصِّبْيانِ

نحَرُوهُ فَضَرّجُوا الغُنّةَ العَذبةَ ... تَحلُو بِصَوْتِهِ الوَلْهَانِ(١)

كانت كربلاء مكاناً طارداً، والبحث في تلك الدلالات وأبعادها يعطي انطباعاً حياً للمعنى الحقيقي للمكان من خلال انسجام المفردة الشعرية البسيطة في إيصال الفكرة للقارئ. كما أنَّ دلالة اسم كربلاء تخطَّت المعنى المجسَّد إلى معنى حي حاول الشاعر العراقي من خلاله أن ينطقها بما شهدت من مآسٍ، فكانت رمزاً لا تنضب دلالاته.

من كل ما تقدم نجد أن أرض كربلاء ملئت أحاسيس ومشاعر الشعراء وتشربت في أذهانهم وضمائرهم ووجدانهم وسكنت في عيونهم ومحاجرهم وصار إذا ما ذكرت كربلاء فإنّ صور المكان هي الدماء، الرؤوس المقطوعة، وحرق الخيم، والاجساد المتناثرة، والرضيع المذبوح، والأسر، والدموع، والصراخ تحضر مع إيقاع الكلمة حينما تخرج من الفم.. معلنة أنها مكان طارد ولكن هل بقيت كربلاء ذلك المكان الطارد؟

(١) مملكة الحب، عبد الهادي الحكيم، ترتيلة في ذكرى استشهاد عبدالله الرضيع / ١٦٦.



الفصل الثاني

كربلاء المكان الحسيني الجاذب

(المكان المقدس)

مدخل

عرجنا في الفصل الأول على أرض كربلاء المقدسة بوصفها مكاناً طارداً موحشاً يصور القتل، والأشلاء، والجثث، والسبي، وقسوة الأعداء على بيت آل محمد صلى الله عليه وآله.

إن اسم كربلاء اشتهر بدءًا بهذه السمات وعرف بهذه الألوان، ونتطرق في الفصل الثاني للمكان الجاذب وهو المكان المقدس الذي غدت فيه كربلاء روضة من رياض الجنة، بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف الخالدة، التي تحولت إلى محج لمحبي آل البيت عليهم السلام من المسلمين في العالم.

إن الحقيقة التاريخية الثابتة التي توصل إليها المؤرخون والباحثون الأثريون، هي: أن أرض كربلاء قاحلة وغير آهلة للسكن، ولكنها تحولت بعد مدة ليست بطويلة في أعقاب استشهاد الإمام الحسين بن علي وأصحابه البررة عليهم السلام في عام واحد وستين للهجرة، إلى منطقة مأهولة ومزدحمة بالزائرين والوافدين إليها، من كل حدب وصوب لغاية روحية وعاطفية سامية هي التبرك والتشفع بقبر الحسين الشريف عليه السلام.

لقد توافرت لهذه الأرض الأسباب الموجبة لأنّ تكون مكاناً مقدساً، بعدما حوت في جوفها جسد الحسين الشهيد عليه السلام آية من آيات الطهر والقدسية والبركة ما جعلها بمثابة قطعة من الجنة المخلّدة على الأرض، بدليل أنها أضحت تمثل معاني الإباء، والكرامة، والمبدأ، والعقيدة، وتجسّد العلاقة الصميمية بقيم السماء والدين، والرباط الوثيق بالفضيلة، والسمو الروحي، فاستحقت بذلك أن تدخل التاريخ الإسلامي من أوسع أبوابه، وبات لتراب هذه الأرض قدسية وبركة لجميع عشاق الحسين عليه السلام ومواليه وشيعته في العالم الإسلامي (١).

ومنذ ذلك اليوم أصبحت كربلاء نقطة مضيئة في تاريخ المسلمين وقبلة للثوار والأحرار ومزاراً لكل المسلمين يتوافدون عليها من مشارق الأرض ومغاربها.

لن يشهد التاريخ مثيلاً لما حدث في كربلاء، فقد شهدت أرضها أروع ملاحم الإباء وأسناها، وتجسدت على ثراها أنبل المواقف الإنسانية وأسماها، وخالطت تربتها أطهر الدماء وأزكاها، فتطرز اسمها بخيوط الشمس وحفت حول تاريخها النجوم لقد أصبحت كربلاء نقطة تحول مهمة في تاريخ المسلمين ونقطة انطلاق للكثير من الثورات والانتفاضات ضد الظلم والطغيان في العالم منذ أن رفع سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام راية الرفض بوجه السلطة الأموية الظالمة، وواجه ذلك الجيش الجرّار بنفر قليل من أهل بيته وأصحابه فجسدوا أروع دروس الإباء والبطولة، ولقد وقع هذا الفصل في ستة مباحث هي، المبحث الأول: كربلاء روضة من رياض الجنة، المبحث الثاني: كربلاء قبلة أنظار العالم، والمبحث الثالث: كربلاء مكان حسيني مزدهر، المبحث الرابع: المكان الحسيني رمزاً ثورياً، المبحث الخامس: لغة الشعر، والمبحث السادس: الصورة.

---

(١) ينظر: تاريخ الحركة العلمية في كربلاء، نور الدين الشاهرودي / ٨.

مما لاشك فيه أن العروج على واقع كربلاء بعد واقعة الطف مسألة لابد منها لغرض إطلاع القارئ على تحولات هذا المكان المقدس جراء الأوضاع السياسية.

فقد تشير المصادر إلى أنّ بني اسد الذين كانوا يسكنون قريباً من كربلاء اقاموا رسما لقبر سيد الشهداء عليه السلام، ونصبوا له علامة ورمزاً وبنوا سقيفة على القبر الشريف وعندما ظهر المختار بن أبي عبيدة الثقفي في الكوفة وأعلن حكومته الموالية لأهل البيت عليهم السلام وبدأ بالانتقام من قتلة الحسين عليه السلام في الكوفة حتى تم القضاء عليهم في معركة الخازر وقتل أميرهم عبيد الله بن زياد على يد إبراهيم بن مالك الأشتر، سارعت الشيعة لزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام والشهداء من أهل بيته وصحبه فظهر القبر الشريف وأصبح محطاً لأنظار الشيعة في كل مكان وخاصة في الكوفة، والمدائن، والبصرة فقام المختار بتشييد بناء على القبر الشريف واتخذ له قرية من حوله [1].

يا كربلا مني عليك سلامُ	متواصل ما دامت الأيامُ
لك في القلوب مكانة وجلالة	من بعد بيت الله أنت إمامُ [2]

وقد فسح العباسيون في بداية حكمهم المجال لزيارة قبر الحسين عليه السلام فأم موسى والدة الخليفة المهدي العباسي، صرفت أموالاً على القائمين بالعناية بالقبر الشريف، وبقي الشيعة يتوافدون لزيارة القبر الشريف حتى جاء هارون العباسي خامس الخلفاء العباسيين، فضيق الخناق على الزوار، وقطع شجرة السدرة، وكرب موضع القبر، وهدم ما حوله من

(١) ينظر: تاريخ كربلاء، عبد الجواد الكليدار٢٦٤.

(٢) ديوان الاشيقر، السيد محسن مصطفى الاشيقر/٢٤.

البيوت، وذلك عام ١٩٣هـ[١].

وفي عهد ابنه المأمون بنى على القبر بناءً شامخاً بقي حتى سنة ٢٣٣هـ وهي السنة التي تولى فيها الخلافة المتوكل العباسي الذي حذا حذو الرشيد في عدائه لأهل البيت عليهم السلام، لا بل زاد عليه فعندما رأى أن زوار الحسين عليه السلام يتزايدون يوماً بعد يوم ويقصدون القبر من كل مكان ولم يقتصر الزوار على الشيعة فقط، بل امتد الى بقية طوائف المسلمين وأنّ محبة الإمام الحسين عليه السلام تغلغلت في قلوبهم، أمر بهدم القبر الشريف، وما حوله من البيوت، ومنع الناس من زيارته، ثم حرث أرضه وأفاض الماء عليه، فحار حول القبر من كل جانب وكان الذي نفذ كل هذه الأعمال رجل من أصحاب المتوكل اسمه (ديزج) وكان يهودياً فكان يؤتى إليه بزائر قبر الحسين عليه السلام من قبل المسلحين المنتشرين على سائر الطرق فيقتله بأمر من المتوكل سنة ٢٤٧هـ الذي أمر بتهديم القبر الشريف، يقول ابن الرومي:

بنفسي الأُلَى كَظَّتْهُمُ حَسَرَاتُكُمْ فَقَدْ عُزِلوا قَبْلَ المَمَاتِ وَحُشْرِجُوا

ولم تَقْنَعُوا حتى استثارت قُبُورُهُمْ كِلاَبَكُمُ منها بهيمٌ وَدَيزَجُ[٢]

ثم جاء بعده ابنه المنتصر بالله الذي شيد مرة أخرى الضريح المقدس وبنى على المرقد الشريف بناءً عالياً يرشد الناس إليه وشجع الناس على زيارته، كما أطلق أوقاف العلويين التي كان المتوكل قد صادرها وأحسن الى أهل البيت عليهم السلام، وقربهم وأجزل لهم العطاء مما شجع بعض العلويين على الأقامة

(١) ينظر: المصدر نفسه/ ٢٦٤.

(٢) ديوان ابن الرومي /٧٣.

بالقرب من القبر الشريف في كربلاء وكان في مقدمتهم إبراهيم المجاب بن محمد العابد بن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وهو أول علوي استوطن كربلاء وكان ذلك عام٢٤٧هـ.

وبعد أن تداعى البناء الذي بناه المنتصر على قبر سيد الشهداء قام بتجديده محمد بن محمد بن زيد بن الحسن بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الملقب بالداعي الصغير حيث بنى قبة على القبر الشريف لها بابان ثم بنى حولها سقفين وأحاطهما بسور وذلك سنة ٢٨٠هـ.

وعند قيام الدولة البويهية قام عضد الدولة عام ٣٧٩هـ ببناء ضريح من العاج ذي أروقة وعليه قبة ومع قيام الضريح الجديد بدأ تشييد البيوت والأسواق حول القبر الشريف وقد أُحيطت المدينة بسور كبير وازدهرت كربلاء في عهد عضد الدولة ازدهاراً واسعاً وتقدمت معالمها الدينية، والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والأدبية.

وبقيت عمارة عضد الدولة البويهي حتى قام الوزير ابن سهلان ببناء سور جديد حول المرقد الشريف وأقام العمارة من جديد على القبر الشريف وبعد سقوط دولة البويهيين جاء السلجوقيون الى الحكم وقد أبدوا اهتماماً ملحوظاً بالعتبات المقدسة [(١)].

ومن بغداد عام ٩١٤ هـ توجه إسماعيل الصفوي الى كربلاء لزيارة قبر الحسين عليه السلام، فأمر بتذهيب الضريح وأهدى أثني عشر قنديلاً من الذهب،

(١) ينظر: تاريخ كربلاء، عبد الجواد الكيليدار/٢٦٦.

كما أمر بصنع صندوق للقبر من الفضة دقيق الصنع وقد تم نصبه عام ٩٣٢ هـ. كما فرش الحضرة الطاهرة بأنواع من المفروشات القيمة وقد اعتكف الشاه إسماعيل الصفوي في حضرة الإمام الحسين عليه السلام ليلة ثم توجه لزيارة قبر الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في النجف الأشرف.

وفي العهد القاجاري تم تذهيب قبة الإمام الحسين عليه السلام ثلاث مرات، فقام السلطان محمد خان مؤسس الدولة القاجارية في إيران بتذهيب القبة سنة ١٢٠٧هـ.

أما التذهيب الثاني فقد حصل في عهد السلطان فتح علي شاه القاجاري، لأنّ التذهيب الأول كان أسوداً فكتب إليه أهالي كربلاء بذلك فأمر الشاه بقلع الاحجار الذهبية القديمة واستبدالها بالذهب الجديد كما أنه أهدى شبكة فضية الى المرقد الشريف وقد تبرعت زوجته بتذهيب المئذنتين.

أما التذهيب الثالث للقبة كان فوق الشبابيك المطلة على داخل الروضة بسطر من ذهب ضمن الآيات القرآنية المكتوبة في الكتيبة من حول القبة[١] لقد أصبح المكان جاذباً، مزهراً.

وفي عام ١٢١٦ هـ تعرضت كربلاء والحرم الحسيني الطاهر لهجمة بربرية حيث قامت الجماعة الوهابية بقيادة سعود بن عبد العزيز الذي استغل ذهاب معظم أهالي كربلاء الى النجف الأشرف لزيارة ضريح أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير الأغر، فحاصر المدينة ودخلها عنوة وقتل أكثر أهلها في الأسواق والبيوت وكانت قوة كبيرة تقدر بنحو اثني عشر ألفاً، وبعد قتلهم أكثر سكان

---

(١) ينظر: مدينة الحسين، السيد محمد حسن آل كليدار / ١٢.

كربلاء التفوا نحو خزائن القبر الشريف وكانت مشحونة بالأموال، والنفائس فأخذوا كل ما وجدوا فيها [١].

وأما في العصر الحديث فقد تعرضت كربلاء المقدسة إلى أقسى هجمة، بربرية جديدة من قبل قوات الرئيس العراقي حينذاك صدام حسين المجرم إذ تم الهجوم على المدينة، وتدمير البساتين، والأبنية، والمساجد، والحسينيات، والبيوت، حتى لم يعد لها أثر حيث حوصرت المدينة، وطلب من أهلها أن يتركوها باتجاه بحيرة الرزازة ورشقت برشقات متوالية من الصواريخ، ثم اشتد القصف مما إضطر السكان إلى مغادرة بيوتهم باتجاه البحيرة، وما أن امتدت حشود السائرين على الطريق مسافة طويلة حتى بدأت الطائرات تحصدهم وتقتل الأبرياء والعزل، وكلما تقدمت قوات النظام كان ثوار كربلاء يتصدون لها بعمليات تعرضية جريئة وأوقعوا بها بعض الخسائر، وقد قُصف مرقدا الإمام الحسين بن علي وأخيه العباس بن علي، عليهما السلام فضربت قبّة العتبة العباسية والروضة الحسينية بالصواريخ وقذائف المدفعية بأمر من حسين كامل وقصف في ١١/٣/١٩٩١مقام كف العباس الأيمن والدور السكنية التي حوله، ثم اتجه الجيش إلى قصف الصحن الحسيني ونسف باب القبلة، ثم اتجه النظام لاستخدام القصف المدفعي والصواريخ وقذائف الهاون من قبل الجنود الذين يختبئون في البساتين المجاورة لمركز مدينة كربلاء فكان القصف يشمل السكان اللاجئين في المرقدين وأصيب العشرات من اللاجئين بقصف الروضتين المطهرتين [٢].

إن حادثة كربلاء زادتْ من تعلق المسلمين بآل البيت عليهم السلام، وجعلت

---

(١) ينظر: تاريخ كربلاء، عبد الجواد الكليدار /٢٦٧.

(٢) ينظر: شاهد عيان ذكريات الحياة في عراق صدام حسين ، جمانة كبة /٧٣.

كثيراً منهم يؤيدونهم تأييداً مطلقاً [١]، لقد شهد المكان الحسيني تحولات عديدة بفعل الظلم وجور السلطة الحاكمة.

فهذه المأساة من أشهر حوادث التاريخ الإسلامي التي فجرتْ قرائحَ الشعراءِ وأمدتْهم، بفيضٍ من الشعرِ الحسيني [٢]، الذي مَثَلَ "صدى تلك الدماء التي سفكت بغير حساب" [٣] فصبغت أدب الشيعة بالحزن العميق [٤]. فهذا الشاعر الوائلي تثور نفسه الأبية إزاء هذا الخطب الجلل، عندما استهدفت مدافع الجبن ضريح الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك قيام نظام البعث الحاكم في العراق بقمع الانتفاضة الشعبانية، فاستهدفت مدافعه في كربلاء رمز الثورة المجسد الإمام الحسين عليه السلام، فيقول:

إنّ تهاوى الضريحُ والإيوان	ما تهاوى الشموخ والعنفوانُ
إنما تهدمُ الحجارة والمضمون	يبقى على المدى ويُصانُ [٥]

إن لثورة الإمام الحسين عليه السلام آثاراً مهمة في حياة الأمة الإسلامية، فإنها جعلت الإسلام يزداد تألقاً ونورا [٦]، قال المسيو ماربين: " إن الحسين قد أحيا بقتله دين جدّه وقوانين الإسلام، وإن لم تقع تلك الواقعة... لم يكن

(١) ينظر: الشعر السياسي من وفاة النبي إلى نهاية العصر الأموي دراسة وصفية ونقدية، د. حبيب مغنية،/٨١.

(٢) ينظر: دراسات في الشعر العراقي الحديث، سلمان عبد الهادي ال طعمة /١١.

(٣) اثر التشيع في الأدب العربي، محمد سيد كيلاني/٩٠.

(٤) الشعر الواله في النبي وآله ، د. الشيخ أحمد الوائلي/ ١٣٩.

(٥) ينظر: أدب الشيعة حتى نهاية القرن الثاني الهجري، طه عبد الحسيب حميده /١٥٢، وفن الرثاء في الشعر العربي العصرين الفاطمي والأيوبي/ أطروحة دكتوراه /٦٢.

(٦) ينظر: في رحاب الإمام الحسين /الشيخ فوزي آل سيف /١٠

الإسلام على ما هو عليه الآن قطعاً"[١].

قال الشاعر علي الفتَّال في ذلك:

فالدين ظلَّ من الشهادة ساطعاً   وازداد في كلِّ العصور سطوعا [٢]

بعد هذه الجولة في رحاب كربلاء تاريخياً نعود إلى موضوعنا هو كربلاء المكان الحسيني الجاذب في الشعر العراقي المعاصر، لنقرأ إبداع الشعراء المعاصرين وتصويرهم لهذا المكان الطاهر المبارك، وهي مكان مقدس وروضة من رياض الجنة.

(١) السياسة الإسلامية، نقلاً عن المأتم الحسيني مشروعيته وأسراره، السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي /١٠٠.

(٢) هو ذا إذن، د. علي الفتال/٤٣.

المبحث الأول

كربلاء روضة من رياض الجنة

كربلاء مصدر إشعاع فكري منذ قرون موغلة في القدم، فقد أسهمت في تطور النهضة الأدبية والحركة الفكرية في العراق مساهمة تستحق كل إكبار خلال مراحل تاريخية مختلفة، وقد ضمت بين حناياها جمهرة من خيرة الشعراء والأدباء والمفكرين كانوا المصابيح التي تتوهج في سماء الأدب والمعرفة، وقد سايروا التيارات الأدبية المختلفة من خلال ندوات وأمسيات ومهرجانات شعرية، ساعد ذلك على خلق مناخ أدبي تتوافر فيه كل الشروط اللازمة لنمو الأدب.

ومن الأحاديث التي أظهرت الخصوصية المكانية لأرض كربلاء، من أنّها هي البقعة المباركة بجانب شاطئ الوادي الأيمن، في رواية للإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: "**شاطئُ الوادي الأيمن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو الفراتُ، والبقعة المباركة هي كربلاء**"[1]. أعطيت كربلاء - حسب النصوص الواردة - مزايا عظيمة في الإسلام فكانت أرض الله المختارة، وأرض الله المقدسة المباركة، وأرض الله الخاضعة المتواضعة، وحرماً آمناً مباركاً، وحرماً من حرم الله وحرم رسوله

(١) التهذيب، للطوسي، باب فضل الكوفة، ج٦ /٣٨.

ومن المواضع التي يحب الله أن يُعبد ويدعى فيها، وأرض الله التي في تربتها الشفاء.

وهذه الأرض المباركة ذات الفضل الطويل والشرف الجليل، لم تنل هذا الشرف العظيم في الإسلام إلا بالحسين عليه السلام، عن أَبِي عَبْدِ الله الصادق عليه السلام: "مَوْضِعُ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام مُنْذُ يَوْم دُفِنَ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ"[١]، وَقَالَ أيضاً: "مَوْضِعُ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام تُرْعَةٌ مِنْ تُرَعِ الْجَنَّة"[٢].

العراق هو الموطن الأول للمسلمين من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وموطنهم الأخير[٣]، والشاعر يُعد بحق ترجماناً لوجدانه الفردي ووجدان أمته الجماعي"[٤]، فإنّ شعراء كربلاء لم يستطيعوا أن يتركوا الكتابةَ في هذا الغرض الشعري الذي يعبر عن صدق العاطفة، فضلاً عن أن للمكان أثرًا كبيراً في شعراءِ المدينة،" فكل بقعة من مدينة كربلاء تحمل شيئاً من ذكرى آل البيت فهنا أقاموا خيامهم، وهناك ساحة جهادهم، وحتى هواءِ المدينةِ الذي استنشقهُ الشاعرُ ذكرهُ بالإمامِ الحسين عليه السلام قال الشاعر علي الفتَّال:

للآن عطر بخور التضحيات على   أديمها فاح من نهرٍ ومن جُرُف[٥]

فإلى كربلاء تهفو النفوس، وتطير القلوب ومع ذكرها تدمع العين وتهيج بنا العاطفة، هذا الشعور ليس من صنعنا نحن البشر، بل الله خلقنا من فاضل طينة

---

(١) كامل الزيارات، ابن قولويه / ٤٥٦.

(٢) المصدر نفسه/ ٤٥٦.

(٣) ينظر: أدب العراق الحديث دور الأدباء الشيعة، صادق عبد الرضا /٤٣.

(٤) الأدب العربي في كربلاء من إعلان الدستور العثماني إلى ثورة تموز١٩٥٨م (اتجاهاته وخصائصه الفنية)، د. عبود جودة الحلي/١٤٨.

(٥) هو ذا إذن /٨٤.

أهل البيت لنصبح بمشيئة الله الشيعة الذين قال عنهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا، يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا"[(١)].

تظل كربلاء خالدة؛ لأنها تحكي الشمم والكبرياء والموقف الإنساني الخالد، فقد ولد الإمام الحسين عليه السلام يوم استشهاده ليكتب في صفحات التاريخ مخلداً ولتصبح أرض كربلاء المكان الأكثر قدسية وروضة من رياض الجنة.

فالشاعر محمد حسين الصغير* يؤكد علاقة القباب الذهبية بالإيمان فكان انطفاء سراج هذه القباب، في (كيف يطفئ نور الله طغيانُ) ثم إنّها معلم للهداية تبقى أبد الدهر تستضيء بها كربلاء وذلك في قوله:

هذي (القباب) سراجٌ لا انطفاءَ له	وكيف يُطفئُ نورَ اللهِ طغيانُ
تهدي السماءَ نجوماً من أشعتها	ويستضيءُ بها في الليل حيرانُ
وتُحشّدُ الأرضُ فيها الشهب سابحةً	وتستطيلُ إليها وهي أكوانُ
ما زال فيها نشيدُ الحق مُنطلقاً	يصحو به الدهرُ حيثُ الدهرُ سكرانُ [(٢)]

(١) شجرة طوبى، الشيخ محمد مهدي الحائري، ج١ / ٣.

*د. محمد حسين الصغير: شاعر عراقي معاصر، ولد في مدينة النجف الاشرف عام ١٩٤٠م. التحق بالحوزة العلمية، وأكمل دراسته في البحث الخارج مرحلة الدراسات العليا في الحوزة للمرجع أبي القاسم الخوئي عام ١٩٥٢م حصل على جائزة الرئيس جمال عبد الناصر للدراسات العليا في جامعة القاهرة عام ١٩٦٩م أكمل دراسته العليا في جامعة القاهرة وجامعة بغداد وجامعة درم البريطانية. حصل على الدكتوراه في الآداب بدرجة الامتياز ودرجة الشرف الأولى عام ١٩٧٩م حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٨٨م، كما أنه مؤسس الدراسات العليا في جامعة الكوفة، وقد حصل منها على مرتبة الأستاذ الأول عام ١٩٩٣م، كما حصل على مرتبة الأستاذ الأول المتمرس عام ٢٠٠١م.

(٢) ديوان أهل البيت (عليهم السلام)، د. محمد حسين الصغير/١٨٧.

لقد تحولت القباب عند الشاعر من مجرد بناء إلى سراج إذ أنها تهدي الناس إلى سبل الرشاد والتقوى وهذا السراج أيضاً ليس كأي سراج بل هو امتداد للنور الإلهي الذي قال عنه الله، ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[1]، فهو عصي على من يحاول إطفاءه، لأنّ نور الله لا يُطفأُ... وهنا يوجد تداخل رائع بين القباب الحسينية والنور الإلهي.

كما يؤكد الشاعر طالب الحيدري على قوافل الزوار التي تفد إلى كربلاء من أقاصي الشرق والغرب، يطوفون حول ضريح الإمام الحسين عليه السلام، ويلوذون به فهو الوسيلة إلى الله تعالى وهذا ما جعل كربلاء المقدسة روضة من رياض الجنة قائلاً:

تلفتتْ إليك أعناق الورى	نحوكَ تنحو وعليكَ تُقبلُ
ومن أقاصي الشرقِ والغربِ معا	قوافلٌ إلى حماكَ ترحلُ
وفدٌ يعودُ غانماً وآخرٌ	يحطُّ في مَكانهِ وينزلُ
كأنَ كربلاءَ في قيامةٍ	حيثُ الملايينُ أكفٌّ تسأل
وحيثُ كعبةُ الولاءِ والهوى	فيه الحسينُ والكتابُ المنزلُ
ضريحُ خيرِ الناس أماً وأباً	هو المطافُ أو هو المُقبّلُ[2]

إن قضية الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء تأخذ مدى روحياً عند الشاعر، فإنها تزيد من همة النشاط الوجداني لديه، وتسحب الفكرة من أعماقه لصوغها بأحاسيس ومشاعر صادقة "لأنّ الكلمة تحاكي في إيقاعها معناها كما

---

(١) الصف / ٨.

(٢) ملحمة كربلاء، المشعل، طالب الحيدري /١٩٨.

يحاكي الهديل صوت الحمامة والخرير صوت الماء"(١).

وقد عبر الشاعر محمد الحلي الذي يرى القباب العالية المحاطة بأنفاس معطرة يضوع منها شذى الحياة، عن أنّ أرض كربلاء جنة لكونها تضم قبر ابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما جعلها روضة من رياض الجنة على مدى الدهر قائلاً:

وأرفـــعُ كفـــي إلى قبـــةٍ ... تـضوعُ بأنفاسِـهِ الزاكيـاتِ

كـــأنّ ملائكـــةً محـــدقينَ ... يطوفـونَ فيهـا طوافـاً سُـعاةْ

جمـوع تُـصَلّي عليـهِ وأخـرى ... تُعطِّـرُ بالطيـبِ كـلّ الجهـاتِ

مكـانٌ مـن الأرضِ أم جنـةٌ ... يـضُمُّ لـسبطِ الرسـولِ رفـاةْ

أُحِـسُّ "الحـسينَ" يـردُّ الـسلامَ ... ويبـسُطُ كفيْـهِ بالمكرمـاتِ(٢)

في هذه الأبيات تداخل المكان في وجدان الشاعر الحسيني حتى غدا المنظور المادي والروحي يأتلفإنّ مع بعظمهما، فالمهرجان الملائكي الزاخر تحركه الملائكة صعوداً ونزولاً تسبيحا وصلاة وتنظيماً، ولم يعد الضريح مجرد منظور مادي بل صار المكان الملائكي الذي يبسط فيه الحسين كفيه بالمكرمات لزائريه.

"وفي السلم الإبداعي للقصيدة الحسينية أصبح التناسب بين الإيقاع والمعنى معياراً للحكم على رقي تجربة الشاعر، فكلما وازن الشاعر بين الإيقاع والمعنى فذلك دليل الموهبة"(٣)، فثمة علاقة وطيدة بين اختيار الشكل والمضمون الذي

(١) فن الشعر، هوراس / ٢٤.

(٢) إمام الخلود، الشاعر الدكتور محمد الحلي، حولية الكوفة، ع٣، لسنة ٢٠١٣/ ٢٣٢.

(٣) دلالة الصورة الحسية في الشعر الحسيني، د. صباح عباس عنوز /٤٢.

يرتضيه الشاعر لأنّ " الكلام الفني ولا سيما الشعري كلام مصوغ على أساس صوتي، ولا يكتسب تأثيره إلا بتنوع صور الأداء، ومن هذه الصور الاستعمال الأمثل للإيقاع، ذلك يعني استغلال قيم الألفاظ الصوتية مضافاً إليها حسن التصرف في بناء الجمل فضلاً عن بنائها العروضي "(١)، وفي المكان الحسيني نرى كثيراً من الشعراء يتناغم إيقاعهم مع معانيهم التي تنساب من أحاسيسهم الفياضة ومن عقيدتهم الراسخة وذوبان مهجتهم بسبب وقفتهم على أطلال آل البيت عليهم السلام، التي ذهب إليها الشاعر عبر زمنه النفسي وهو يغوص في أعماق التاريخ متذكراً آل البيت عليهم السلام في تلك الواقعة الأليمة.

ففي ذهن الشاعر الحسيني يتداخل معنى الخلود بمعنى الوجود، فإنّ فعل الجور الخالد ينعكس بوجود الخلود العظيم الذي يحسه الوجود المكاني بالمأذنة الشريفة، وهذا ما وصفه الشاعر فليح الركابي قائلاً:

قالوا ترجل فارس موحد ... صه ياردى ان العظيم مخلدُ

صه ياردى أن الحسين منائر ... رغم الطغاة وجورهم هو سرمدُ (٢)

وهنا يؤكد الشاعر الركابي الحقيقة السابقة وهي أن البريق المكاني بلغ بلا شك القدرة على الرؤيا عند الباغين.. وهنا أيضاً الوجود المتسامي الذي يتحد مع كل فجر قائلاً:

ذاك البريقُ بكربلا ... في أعين الباغين مضٌّ

يا سيدي دفءٌ شذا ... ك وكلكم للظلم رفضُ

(١) أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية، د. صباح عباس عنوز /٢٢٠.

(٢) صراخ في اروقة الصمت، د. فليح الركابي /٥.

أنـــت الـــذي مـــنح الوجـــو　　　د تـــسامياً والفجـــر بـــضٌّ [١]

كما وصف الشاعر كاظم عبدالله العبودي* المكان الحسيني (كربلاء) بأنه منائر تسطع في عين الشمس وتبقى مدى الدهر خالدة في قوله:

ظلت مدى الدهر عين الشمس مطلعها　　　حتى عن الليل يجلو ساطعاً سُدفا

ظلت مناراً فما ضل السراة به　　　ظلت مناراً ويهدي كل من جذفا

فما تمسك في اركانها سلف　　　إلا هي العروة الوثقى لمن خلفا

وما تيمَّمت إلاّ قصد تُربتها　　　أنمى سرى بي ركاب صوبها عطفا [٢]

وعبر الشاعر عبد الامير خليل مراد عن كربلاء بأنها اضحت اشعاعاً فكرياً، ومصدراً إيمانياً لكل المسلمين في العالم، وهذا مما أعطاها دعماً معنوياً بقوله:

لو أنني خاصرتُ كربلاء

لشممت ريّ النحر في زفيرها

منارةً من رفرفٍ

وجنَّةً غناء

إلى قوله:

هذا أبو الفضل... وذي علوقه

---

(١) المصدر نفسه /٥.

*كاظم عبد الله العبودي مواليد قضاء الرفاعي محافظة ذي قار، شاعر وكاتب عضو اتحاد الأدباء والكتاب تخرج من معهد الصحة العالي ببغداد ومن مجاميعه الشعرية (عيون الهواشم أغلى وإكراماً لعيون ليلى ورؤى غادة كانت زهراء) ولديه رواية مطبوعة بعنوان (وابتسم المطر).

(٢) وعيون الهواشم اغلى، كاظم عبدالله العبودي /٣٦.

مجرة لا تنطفي...

ولطفه انتماء[١]

سرعان ما وجدت كربلاء نفسها تؤدي دوراً حضارياً بارزاً ومتزايداً مع مرور العصور الإسلامية اللاحقة إذ ذاع صيتها لأهميتها الروحية والدينية والثقافية والعمرانية، كما أنّها أصبحت معالم يقصدها المسلمون من شتى أنحاء المعمورة لزيارة أضرحتها وإقامة الشعائر والطقوس الدينية. فكربلاء مكان مقدس وإشراق حضاري تأوي إليه النفوس قبل الأجساد. وقد أكد الشعراء تحول المكان الحسيني الذي أصبح قبلة للمحبين وعشاق الحرية في العالمين العربي والإسلامي.

(١) الضحك من الأيام الآتية، عبد الأمير خليل مراد /٢٧.

المبحث الثاني

كربلاء قبلة أنظار العالم

امتازت أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد واقعة الطف، بالسّعة في تعريف الناس بشرافة هذه التربة المقدسة وبما تحمل من خصائص، وذلك لاشتهار المكان بين الناس ومعرفتهم إياه، بسبب فاجعة مقتل الإمام الحسين صلوات الله عليه، ولتوجيه الناس إلى التحلي بالآداب واللياقة عند توجههم لزيارة صاحب التربة ومشرّفها، ولنقل الحالة المعرفيّة عند أهل الإيمان من مرحلة العلم بحقيقة الشيء إلى مرحلة العمل، فكان حملهم لهذه التربة كاشفاً عمّا توصلوا إليه من معرفة بها، فتقديسهم لها واستشفاؤهم بها وسجودهم لله عليها، دافعهُ العلم بخصوصية هذه التربة، ومنها عن الإمام أبي جعفر الصادق عليه السلام قال: "خلق الله كربلاء قبل أن يخلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام، وقدّسها وبارك عليها، فما زالت قبل أن يخلق الله الخلق مقدسة مباركة، ولا تزال كذلك")[1].

---

(١) التهذيب، للشيخ الطوسي، ج٩ /٧٢.

ولقدم مدينة كربلاء التاريخي، ولجمال مناظرها، ولطيب هوائها فقد سكنها الأشراف من الأمم السابقة، وآباؤنا القدماء، وقد خلف هؤلاء مواقع أثرية متعددة ومنتشرة في أرجاء المدينة كافة، منها ما اتلفته العوامل الطبيعية، ومنها ما هو باق لحد الآن يشهد بحضارة الامم ورقيها التي سكنت هذه الأرض الطيبة[١].

إن الأكثرية الساحقة من المسلمين وغير المسلمين في البلاد العربية والإسلاميّة وغير الإسلاميّة تعرف الشيء الكثير عن مدينة كربلاء المقدّسة، لِما لها من ماضٍ مجيد، وتاريخ تليد، ومكانة مرموقة، ومنزلة سامية، وقد أصبحت قِبلةَ أنظار المسلمين ومحط رحال العلماء، ودار هجرة الأدباء والشعراء.

وهكذا أصبحت كربلاء بعد هذه الواقعة من المدن الإسلاميّة المقدسة والحواضر المعروفة، فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يُعلي شأنها، ويجعلها مهوى أفئدة الملايين من المسلمين، ومقصدَ الجموع الغفيرة من الصالحين، وحباها بنعمة دائمة لا تزول، واسمها يتردد على ألسنة المؤمنين يترنمون به، ويلهجون بذكره، ويهفو إليها البعيد والقريب بعد أنْ خصها البارئ الجليل بمقام كريم ومرقد عظيم، ذلك هو مرقد سبط الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم، الإمام الحسين ابن عليّ عليهما السّلام، فنُسبت إليه المدينة[٢]، وقيل عن كربلاء مدينة الحسين عليه السلام، ومن هنا اكتسبت أرض كربلاء عامل جذب روحي ومعنوي قوي جداً ظل يشد الناس المؤمنين إليها، وكل أولئك الذين باتت واقعة عاشوراء المفجعة تثير في نفوسهم كوامن الحزن واللوعة والأسى، وتستنهض هممهم للتوجه إلى هذه الأرض، وشد الرحال إليها من كل حدب وصوب لغاية التشرف والتبرك

---

(١) أضواء على معالم كربلاء، محمد النويني، ج١/٣٢.

(٢) ينظر: معالم إنسانية في نهضة الإمام الحسين، جعفر الحائري/٦٥.

والتشفع بزيارة روضة أبي الأحرار وأصحابه الصناديد، وسيد الشهداء الأبرار، وسليل رسول الله الإمام الحسين عليه السلام، فيما الكثيرون من هؤلاء المندفعين، والمُتشوّقين لزيارة قبره الشريف لم يكتفوا بزيارته بصورة عابرة، أو في خلال وقت قصير، بل تشبّثوا بهذه الأرض، وفضلوا البقاء فيها لأطول فترة ممكنة، وحتى لآخر أيام حياتهم، ممن تمثلت أمنيتهم الغالية في ان يكون محياهم ومماتهم، بجوار قبر الحسين عليه السلام[١].

ويستثمر الشاعر الركابي الجانب الديني في مقاربة شمولية، تفصح عن التشكيل البنائي للنص وهندسته اللغوية، إلى درجة الرهافة الفنية وتكوينها الجمالي، فلا ريب أن ذلك يجعل هذا الجانب وسيلة أسلوبية فاعلة في خريطته الشعرية، كما في نص سيد الرفض، الذي تتواشج فيه الصور المجسدة لمضامين واقعنا الإسلامي وتراثنا الخالد، ولعلّ السر يكمن في أن فرصة الحدث التاريخي الممتد من واقعة الطف، تتيح له أن يجعل نصه في مناخ طقسي، رغبة بالتفجع والإحساس بالمأساة، التي تداعبها هواجس الماضي والحاضر"[٢] قائلاً:

أيا سيدي

عدوت السنين

شربت الهموم

وأوقدت غيظك

سموت الرماح

---

(١) مقتل الحسين، محمد بحر العلوم /١٩٦.

(٢) د. فليح الركابي..يفتح مسارب الكلام.. في (منامات مستيقظة)، د. كريم حسن اللامي، مقال في جريدة المشرق، تاريخ النشر ٤/ ٨ / ٢٠١٣.

أقمت الصلاة

وأحييت فرضك

سموت كذكر

لأنك أنت الحسين

سيورق في الجدب روضك

لأنك أنت الحسين..

لقد كنت كلاً

ويبقون بعضك [١]

"فالشاعر يوظف وسائل تعبيرية فنية في البناء الشعري انحصرت في اللغة الموحية والصورة الفنية المدهشة والإيقاع النغمي والمفارقة التصويرية.. فضلاً عن توظيف الشخصية كمعادل موضوعي لتجربته الذاتية واستدعاء النصوص الغائبة وتضمينها في بنية القصيدة لأحداث نوع من التلاحم البنيوي بينهما"[٢] كما في النص:

ياسادتي

شواهد تلك الرماح رجالهم

تدحرج الرؤوس في الازمنة

فاليوم كان البارحة

فاليوم كان البارحة [٣]

---

(١) منامات مستيقظة، سيد الرفض، د. فليح الركابي/٧٢.

(٢) التعامل الإشاري في منامات مستيقظة، علوان سلمان، جريدة المشرق، ٢٠١٣/٩/١٤.

(٣) منامات مستيقظة، قراءة في منامات موحشة د. فليح الركابي/٧٢.

فالشاعر يتعامل مع الرمز (الحسين) إشارياً من خلال بعض المسميات (الرماح وتدحرج الرؤوس..) ويكشف انفعالاً.. ويعبر عن تجربة في سياق موحٍ ومشع الدلالة.. كونه الثائر الذي ظل مستقرا في مخيلته ووجدانه باعتباره الرمز المنقذ الذي يفتقر له الواقع بسردية الحدث التاريخي بكل جزئياته وحيثياته لتتنامى عنده فاعلية الإحتواء الخالق للتوهج الإبداعي المبني على أفق مفتوح.

تعدّ القصيدة أنشودة لمعاني الدماء الثائرة الخالدة، والحياة الحقيقية والمبدأ الحر والنور المشرق، والرسالة الناصعة، وقد افتتحها بالعزيمة والعطاء والهمة والمجد السامي. إن كربلاء والحسين عند الشاعر الوائلي حياة لا تموت لأنها وُلِدت لتبني وتبدع، وهي ثورة وعطاء لمستقبل زاهرٍ بأيدي المكافحين والثائرين:

وأنت حياة لا تموت على المدى ... توالد في خلقٍ وتنشي وتبدعُ

أبا الثورة الكبرى صليل سيوفها ... نشيدٌ بأبعادِ الخلود مرجَّعُ

تُشير وإيماضُ القواضب مِشْعلٌ ... وتحدو بركب الثائرين فيتبعُ[1]

وإذا كان الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد يرى كباقي الشعراء أن كربلاء تستلهم ضياءها من الحسين عليه السلام، فإنه يقر أن كربلاء كانت وفية للحسين حينما احتضنت جراحه وعطشه، وصارت تشع سناءً حسينياً وزفرات حسينية حتى توحد المشهد الحسيني بأرض كربلاء، فصارت أرض كربلاء موضع تقبيلٍ لما تحضنه من الجرح الحسيني العظيم. كما استطاع الشاعر أن يمنح الصورة رؤية بصرية وحركية في أن واحد، حيث جعل المنائر تتلألأ ضياءً ونوراً والقاً:

فَيا سيّدي يا سَنا كربلا ... يلألىءُ في الحَلَكِ الأقتَمِ

(١) مولد الحسين، أحمد الوائلي / ٥٣.

تـــــشعُّ منـــــائرُهُ بالـــــضّياء وتزفُـــــرُ بـــــالوَجَعِ المُلـــــهَمِ

ويـاعَطَـشاً كـلُّ جَـدْبِ العـصور سيَــشربُ مـــن وِرْدِهِ الزَّمـــزَمِ

ســأطبَعُ ثَغـري علـى موطِئَيـك ســلامٌ لأرضـكَ مـن مَلْـثَمِ!(١)

إنّ الحسين عليه السلام في شعر الشيخ أحمد الوائلي مفهوم منفتح ومُنْطلِقٌ في كلِّ زمنٍ وكلّ جيلٍ يكافح من أجل عزته وكرامته، بل هو الأنشودة المغـردة في حناجر الأحرار والكلمة المدوّية التي تتردد على ألسنة الثائرين في العـصر الحاضـر، وهـو أبٌ للحريّـة الـذي قـدم أغلـى مـا عنـده في أرض الطفـوف، وبـسبب هـذه التضحية أصبحت كربلاء قبلـة أنظـار العـالم، كمـا يؤكـد هنـا وفـاء أرض كـربلاء للحسين عليـه الـسلام لأنهـا احتـضنت هـدير الجـرح وهـو الـدم العلـوي الأبي، والبطولة الخالدة، لقد بنى الحسين مجد كربلاء بقيمته الإنـسانية الثوريـة وكـربلاء مـا انفكت تترجمه بأصيلها وشفقها فيقول:

أيــا كــربلاء يــا هــديرَ الجــراح وزهـــو الـــدمِّ العلـــويِّ الأبـــي

ويـــا ســـفر ملحمـــةِ الخالـــدين بغـــــير البطولـــــةِ لم يُكتـــــب

ويــا صــرح مجــدٍ بنــاه الحــسين فأبـــدع في رصـــفه المعجِـــب

ســيبقى الحــسين شــعاراً علــى صــعيدكِ والــشفق المــذهب(٢)

إنّ كربلاء الحسين عليـه الـسلام عنـد الـشيخ الـوائلي سـاحة للانـدفاع نحـو التضحية لا نحو الدموع التي تُبرِّد القلوب بعد اشتعالها فقط، فالحسين عليه الـسلام عنده نهضة نضالية لمعنى القوة والعزيمة.

(١) في رحاب الحسين، عبد الرزاق عبد الواحد /٥.

(٢) سيبقى الحسينُ شَعاراً، الشيخ أحمد الوائلي /٣٥.

وقد وصف الشاعر محمد الحلي جموع الوافدين الى كربلاء رجالاً ونساءً، جموعاً وفرادى، كباراً وصغاراً، يجيئون شوقاً إلى كربلاء الحسين قائلاً:

يَشُدُّ الرحالَ إليك الأنام ... ويشمَخُ قبرُك كَالراسياتْ

يجيئونَ من كل فجٍ عميقٍ ... تسابقُهم مهجٌ خافقاتْ

رجالاً نساءً صغاراًكباراً ... جموعاً فُرادى رُكُوباً مشاةْ

يجيئونَ شوقاً بأفئدةٍ ... من الحبِّ تجهلُ معنى الأناةْ

يجيئونَ كي يُعلنوا أنهم ... على حبِّ آلِ الرسولِ الهداةْ

يطوفونَ حولَ الضريحِ طوافاً ... بألسنةٍ لم تزلْ ذاكراتْ

فتَخضَرُ أرواحُهم بالدعاءِ ... وتُمسَحُ أحزانهُم بالصلاة

وبالموتِ تُسكَنُ كلُّ القبورِ ... وقبرُكَ ممتلئٌ بالحياةْ

فيا سيدي يا إمامَ الخلودِ ... ويا مددَ الرافضينَ الأباةْ

سنبقى نزورُك ياسيدي ... ويرغِمُ قبرُكَ أنفَ الطغاةْ (١)

لقد رسم الشاعر محمد الحلي هذا التوافق الحركي المتناسق بين حركة الزائرين الوافدين إلى كربلاء، وبين حركة المكان الحاضن لهم يأتون من كل فج عميق، تسابقهم مهجهم الخافقة بحب الحسين، وتضم حركتهم كل أنواع المتحركين، من رجال، نساء، صغار، كبار، فرادى، جموع، مشاة، ركوب، والحركة الثورية فيهم متسارعة لا تترك مكاناً لحركة الأناة، والخوف، الإحباط، بل إنّهم يتحركون باتجاه الإعلان عن حركتهم، التي تبلغ ذروتها بالطواف حول الضريح الطاهر.

---

(١) امام الخلود، د. محمد الحلي /٢٢.

إن حركة هؤلاء الزائرين تتلقفها حركة المكان الكربلائي المقدس، حيث تفيض القداسة والبركات فتمنح حياتهم خضرتها وربيعها ويمحو حركة الحزن التي فيضها المكان.. إنّ التناسق بين الزائرين والقبر الشريف يبلغ مداه، (مداه الحركي) فيما يشير الشاعر إلى أن الحركة (لون الحياة) هي اللون الذي يمتلئ به المكان الحسيني خلافاً لحالات السكون التي تخيم على قبور الناس. وأنه يؤكد حقيقة لا جدال فيها، وهي أن الإنسان ينتهي بالموت ويسكن قبره إلا أن قبر الإمام الحسين عليه السلام ممتلئ بالحياة لكثرة زائريه، لذا سوف تبقى كربلاء مكاناً جاذباً أبد الدهر. وأنّ هذا التحول المكاني في الشعر الحسيني المعاصر في العراق كان إيجابياً لأنّ الإمام قبلة لعشاق الحرية.

إن التركيز على عنصر المأساة التي وقعت في كربلاء أدى إلى إختزال تعاليم هذه المدرسة الفكرية العظيمة بعنصر المصيبة الفاجعة التي حلّت بالحسين وأهل بيته وأصحابه وغابت عن أنظارنا الأهداف التي سعى إليها الحسين عليه السلام منْ وعي النهضة الى تحقيقها حتى خيّل للبعض أنّ النتائج (الموت والسبي..) التي حصلت في كربلاء هي الأهداف التي سعى الإمام الحسين لتحقيقها من أول الأمر.

إنَّ موضوع المكان الحسيني يتميَّز بالثراء، وكثرة التفاصيل، وغزارة الموضوع، وتنوع المفاصل المؤثرة فيه، الأمر الذي يحتم على الشعراء التنوع الشعوري، فالشاعر وإن كان مقلداً في البناء والشكل الفني، فإنَّه من المستبعد أن تتشابه استجاباته العاطفية للمواقف المؤثرة في واقعة الطف، مع استجابات غيره من الشعراء، لاسيما أنَّ الأمر يتعلق بمعتقده الديني. وقد تجلى في نصوص الشعراء تحولات المكان الحسيني الجاذبة المشرقة.

المبحث الثالث

كربلاء مكان حسيني مزدهر

وحيث إنّ أرض كربلاء قد سبقتها الألطاف الإلهية فكانت حاملة للتشريفات النبوية والرسالية ما جعلها الربوة المقدسة، وطوى، والجانب الأيمن، وروضة من رياض الجنة. امتازت تربة كربلاء بميزات عديدة منها تشريفية وتفضيلية اختصت بها هذه التربة، لذا فإنها مقصد أهل البيت عليهم السلام، ومقصد المؤمنين في الالتماس للفيوضات الالهية، ونزول البركات الربانية.

شغل المكان من دون سواه إحساساً بالمواطنة، وإحساساً آخر بالزمن وبالمحلية حتى تحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء من دونه، فوجد فيه بعض الشعراء تاريخ بلادهم ومطامح شخوصهم فكان واقعاً ورمزاً لشرائح وقطاعات مُدن وقرى وكيانات نتلمسها ونراها أو كياناً مبنياً في المخيلة ولهذا نجده قد احتل حيزاً في اللغة شأنه شأن أي عنصر من عناصر الإبداع الفني لمفردات اللغة الشعرية.. حيث زخر شعرنا العراقي بدلالات مكانية متنوعة وفي أساليب عديدة ومختلفة وإذا أمعنا النظر في القصائد التي ذكرت أرض كربلاء لوجدناها تعكس لنا رمزاً قدسياً متأصلاً ومتجدداً، فالمكان يتخذ في الشعر محاور دلالية ورموزاً فكرية،

وأبعاداً وعلائق متداخلة القيم الى جانب كونه مميزاً بالخصائص الفنية، وقد يتجاوز مفهومه الحقيقي على الأرض من خلال تلك التعبيرات المتبادلة مع المحدود مما يقربه من الأفهام، وينطبق فيه التجسيد على العديد من الأغراض الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية (١).

فمن سمو التاريخ الذي حرص عليه الشاعر محمد حسين الصغير في تطاوله الأنجم الزاهرة الى استضاءة الذكرى به حين فاض البهاء وصبغ فجر الأفق بدماء أبقت الطريق الرسالي سالكاً خالياً من الشوائب العبثية الرذيلة، وموشحاً ليقيم الفضيلة:

سما عظماً تاريخُكَ الأنجمَ الزهرا   وفاض بهاءً تستضيءُ به الذكرى

وفاض جهاداً.. ضمَّخ الأُفق فجرهُ   دماءً بها الإسلام قد أدرك الثأرا (٢)

لقد كان الإبداع واضحاً حيث أظهرته الصورة الحسية الصادقة للشاعر محمد حسين الصغير وهو يقف متصاغراً أمام الإمام الحسين عليه السلام ليراه رمزاً خالداً ذا إباء وشموخ يسر كل الناظرين المتأملين لعظمته، فكانت الصورة مشبعة بفيض الوجدان بقوله:

هذا بقاؤك بالخلود مرصع   في كل منعطف إباؤك يصدعُ

يا سيد الشهداء هذي صرختي   ضاقت أسىً ولفيض عفوكَ تطمعُ

ما كدت اكتب في شغافٍ همسة   إلاّ ذوت وبجمر قلبي تهجعُ(٣)

---

(١) ينظر: حقيقة الاثر الغيبي في التربة الحسينية، السيد نبيل الحسني/ ١٠.

(٢) ديوان أهل البيت، عندما تتمتم عيون المغفرة، د. محمد حسين الصغير/ ٥٨.

(٣) المصدر نفسه/ ٦٠.

لقد كانت الصورة تعبيرية إيحائية، فضلاً عن الصورة الحسية التي كانت مرسومة ببناء فني فيه تماسك اللغة وهدف الموضوع.

أظهر الشاعر أن الخلود يطأطئ رأسه للحسين عليه السلام لفعله الإنساني المجيد في طف كربلاء حين كانت هذه الأرض مسرحاً لأبشع جريمة عرفتها الإنسانية.

أما الشاعر محمد الحلي في قصيدته نشيد الوفاء يرسم بعض التفاصيل الكربلائية التي أظهرت أن الحسين عليه السلام جعل أرض كربلاء مدرسة للبطولة والرجولة.

أبا الأحرار هل أبقيتَ مجداً عظيماً لم تُذِللهُ ارتقاءا

وقفتَ ترى حياض الموتِ طفلاً تعانقهُ وتحتضنُهُ انحناءا

وذقتَ مرارة الخذلان جهراً فلم تخذلْ بما خضتَ الإباءا

وقد أبكاكَ أن تغدوا سبيلا لمن قتلوكَ أن يردوا الشقاءا

فأية رحمةٍ سكنتْ جموحاً وأيُّ جموحِ قلبٍ ما أفاءا

فلو أن البطولةَ من حروفٍ فأنت ملكتها ألِفاً لياءا (١)

لقد أقتنص الشاعر محمد الحلي من بين صور البطولة في كربلاء صورة قلّما اقتنصها الشعراء وهي مما لم نجد لها شبيهاً في كل البطولات وهي بكاء المقتول على قاتليه شفقة منه عليهم.

إن الصفة البارزة عند الإمام عليه السلام هي الإباء عن الضيم حتى لقب عليه السلام بـ(أَبيّ الضيم) وهي من أعظم ألقابه عليه السلام ذيوعاً وانتشاراً بين الناس، كان المثل الأعلى لهذه الظاهرة. فهو الذي رفع شِعار الكرامة الإنسانية،

ورسم طريق الشرَف والعِزّة، فلم يخنع، ولم يخضع لقرود بني أمية، فآثر عليه السلام الموت تحت ظِلال الأَسِنّة.

لقد علّم أبو الأحرار عليه السلام الناسَ نُبل الإباء ونبل التضحية، وقد كانت كلماته عليه السلام يوم الطف من أروع ما أُثِرَ من الكلام العربي في تصوير العِزة، والمنعة، والاعتداد بالنفس، فكان يقول عليه السلام:

(ألا وَإِنَّ الدَّعي ابنَ الدَّعي قَد رَكَزَ بَينَ اثنَتَينِ، بَين السِّلَّةِ والذِّلَّة، وهَيهَات مِنَّا الذِّلَّة، يأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون، وحِجُور طَابَتْ وَطَهُرتْ، وأُنُوفٌ حَمِيّة، ونُفوسٌ أَبِيَّة، مِن أنْ نُؤثِر طَاعةَ اللِّئام عَلى مَصَارِعِ الكِرَام)[1].

وقف عليه السلام يوم الطف كالجبل الصامد، غير حافل بتلك الوحوش الكاسرة من جيوش الردّة الأموية. وقد ألقى عليهم وعلى الأجيال أروع الدروس في الكرامة وعِزَّة النفس وشَرَف الإباء قائلاً: (وَالله لا أُعطِيكُم بِيَدي إِعطاء الذَّليل، وَلا أفرّ فِرارَ العَبيد...)[2] وقد تفوق الإباء الحسيني على المكان فتدفق شجاعة وتضحية وهذا ما وصل إليه الشاعر جاسم بديوي قائلاً:

دنا منك الفرات كسير عين	وقبّلَ ما تدوس ونزّ رملا
هناك غسلت وجه الموت حياً	وكان بلا يدين وكنت وصلا
لأنك زرت قبرك مذ جراح	تطوف بك الجراح فصحت أهلا
لأنك قد قتلت الحرب مر	مطأطأة الرماح عليك خجلى

---

(١) نشيد الوفاء، محمد الحلي /٢٧.

(١) مقتل الحسين للمقرم /٢٨٠.

(٢) معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري، ج٣ / ١٠.

ومنك قد ابتدأت فصرت بدءاً   نهائياً يزيد اذا اضمحلا [(١)]

لقد صارت كربلاء شعلة وهاجة أنارت درب الثائرين في تاريخنا الماضي، وهي شمس هدى لن تنطفئ تنير وتضيء المستقبل، فعلى الرغم من حرب الحاقدين وبغي الظالمين ونصب الناصبين العداء لأهل البيت عليهم السلام، فإنّ هذه الثورة المباركة التي كبرت لها الدنيا وخشعت لها الإنسانية وتوارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل ومن بلد الى آخر، أخرجتها بثوبها الجديد قيمة إنسانية كبرى وقدوة حسنة وكنزاً عظيماً من دروس الإباء والشموخ والصبر على تحمل الصعاب والتضحية في سبيل الله ومبادئ الإسلام كربلاء مدرسة الروح الإسلامية الثورية التي خرّجت الأبطال والمضحين لله وللإسلام المحمدي العلوي النقي، وبهذا كانت كربلاء الخلود والانتصار.

يؤكد الشاعر عبد الأمير خليل مراد الحقيقة الظاهرة للعيان التي تفصح أنّ ما حصل في كربلاء المقدسة، إنما هو انتصار الدم على السيف، وانتصار الفضيلة على الرذيلة.

أنا الذي اختصرت عالمي

بالرفض فاجتزت القرون مسيحاً اخر

يتلو من فوق الصليب

أبجدياته الجديدة

الأبجديات التي تعلمنا تقاويم الماضين ونذر الآتين

وهو يصرخ في وجوههن

(١) غيوم من قصب، جاسم بديوي /٤٨.

البقاء لنا ولإعدائنا الموت

هكذا قال لنا الله

{ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }

ذلك لأنّ الدم دائماً يعلو على السيف

وهو بشارة الحرية الباقية

إذ يتدلى الرأس

على الرمح

كأنه الشمس...

نعم... إنّه الشمس (١)

شاءت الإرادة الإلهية أن تجعل مشاهد رموز كربلاء وملحمتها الخالدة مركز إشعاع لقيم السماء، يستلهم منها طلاب الحقيقة والكرامة روح الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم، وبذلك تغلبوا على جميع محاولات الصد عن سبيل الله وشرعه القويم، فكانت كربلاء مناراً يهتدي بها المسلمون وغيرهم.

---

(١) الضحك من الأيام الآتية ، عبد الأمير خليل مراد / ٦٢.

المبحث الرابع

المكان الحسيني رمزاً ثورياً

يعدُّ التاريخ منبعاً ثراً من منابع الإلهام الشعري، الذي يعكس الشاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤيا إنسانية معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته وأحلامه، وهذا يعني أن الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر، تجعل النص الشعري ذا قيمة توثيقية، يكتسب بحضورها دليلاً محكماً، وبرهاناً مفحماً على كبرياء الأمة التليد وحاضرها المجيد، أو حالات انكسارها الحضاري ومدى انعكاسه على الواقع المعاصر. بمعنى آخر، يستلهم الشاعر أوجه التشابه بين أحداث الماضي، ووقائع العصر وظروفه إن سلباً أو إيجاباً، وهو في هذا كله يطلق العنان لخياله لكي يكشف عن صدى صوت الجماعة، وصدى نفسه في إطار الحقيقة التاريخية العامة التي يبحث عنها، أو الموضوعات التاريخية الكبرى، التي تشكِّل حضوراً بارزاً في تاريخ الأمة من دون الخوض في جزئيات صغيرة.

لم تكن كربلاء واقعة تاريخية وحسب، إنما معركة حضارية تجسدت فيها وتلخصت كل تجارب البشرية من آدم إلى يوم استشهاد الحسين ولاحت منها كل معاني الحياة وفلسفتها ورسمت للمستقبل خطوطه ووضحت للأجيال أهدافها،

حيث كانت أعظم معركة في التاريخ بين الحق والباطل. لقد شحنت كربلاء إرادة الأمة بالعزيمة الراسخة بما بلورت من الأحاسيس الخيرة في الإنسان، ذلك لأنّ لهذا الإنسان مخزوناً كبيراً من العقل والإرادة والعاطفة، وهو غالباً ما يرحل عن هذه الدنيا قبل أن يفيد من هذا المخزون الضخم.

إن من أهداف رسالات السماء، ومصلحي البشر إثارة دفائن العقول، وشحذ الإرادة والعاطفة وتحريكهما واستخراجهما من باطن الإنسان إلى واقعه، وهذا ما فعلته ملحمة كربلاء بالضبط، فقد كانت هي الطليعة والقدوة لجهد الإنسان في تفجير مخزونه الإرادي والعقلي والعاطفي، ففي زيارة الإمام الحسين عليه السلام نقرأ عبارات مثل: (السلام عليك يا قتيل العبرات، وأسير الكربات)[١]، فملحمة كربلاء ما زالت تستدر دموع الناس عامة وخاصة الموالين، ومجالس العزاء كانت وما تزال تقام على مدار أيام السنة لاسيما في شهر محرم الحرام، كما أن ذكر الإمام الحسين عليه السلام أصبح على كل لسان وفي كل مكان ومناسبة. لقد قام الإمام الحسين عليه السلام ثائراً، وتحول مع مرور الزمن إلى ثورة بل إلى مفجر للثورات في ضمير الإنسان، ولم يعد عليه السلام ذلك القتيل على رمضاء كربلاء، ولم تعد عاشوراء تلك المدة المحدودة من الزمن، فلقد أصبح الإمام عليه السلام رمزاً للثورة[٢].

وهكذا فقد تحول الإمام الحسين عليه السلام من شخص إلى رمز، ومن رمز إلى مسيرة، ومن مسيرة إلى حقيقة ثورية، وحينما نقول إنه عليه السلام كان ثورة، فهذا يعني أن كل قلب سيتفجر بالثورة عندما يرتبط بينبوع الإمام عليه السلام،

(١) ينظر: بحار الأنوار، للمجلسي، ج٩٨ / ٢٢٥.

(٢) ينظر: الإمام الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة، للسيد محمد تقي المدرسي /٤٥.

فحينما يذكر عليه السلام تقفز إلى الأذهان فكرة الشهادة والبطولة والفداء وكل معاني العمل من أجل الله تعالى والمستضعفين والمحرومين في الأرض، وكلما تجددت ذكرى عاشوراء تفتحت أبصارنا، وتفجرت طاقاتنا، إذ أن ملايين البشر على امتداد الأرض يتحولون في يوم عاشوراء تحولاً ثورياً يغذيهم بمعاني الثورة خلال السنة كلها.

منذ أربعة عشر قرناً مضت وإلى الآن نجد الناس يستمدون من ثورة الإمام الحسين عليه السلام معاني الثورة والاندفاع والتضحية، مما يدل على أن هذه الملحمة قد تحولت إلى مسيرة، والإمام عليه السلام إلى ثورة، وهذا حدث مهم في حياة الناس.

إن الحسين عليه السلام يشكل رمزاً ثورياً ضد الظلم والاستبداد فلم يعد رمزاً دينياً فقط بل رمزاً لبطل قومي، ثوري يستلهم الشعب ثوريته وتضحيته من خلال إعادة ذكراه. لهذا نرى أن كثيراً من القصائد والأغاني والأشعار الحسينية لها أبعاد وأهداف سياسية[١] وكذلك أصبح المكان الكربلائي رمزاً وتحول من صحراء إلى رمز للفداء.

ولنتأمل شعر الدكتور محمد حسين الصغير وهو يخاطب المتلقي ويركز على الصورة الحسية لأرض كربلاء التي أصبحت رمزاً للتضحية والفداء، ثم يعمد إلى الإستعارة لرسم صورته حين جعل التربة الكربلائية تفيض دماءً ناطقة فجعل نطقها هو الدماء التي عليها وهنا يؤكد الشاعر على أن المكان الكربلائي لم يعد مجرد مكان جامد تحكمه أبعاد الطول والعرض بل صار كائناً حياً ناطقاً بكل ما

---

(١) ينظر: الإمام الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة، للسيد محمد تقي المدرسي /٤٥.

حفلت به أرض كربلاء من سمات وبطولات ومواقف:

قف في ربى الطفِّ وانشُدْ رسْمَ من بانوا فإنهـا في جـبينِ الـدهرِ عنـوانُ
واسْـتَلهِم التربـةَ الحمـراء ناطقـةً بهـا الـدماءُ الزواكـي فهـي تبيـانُ
حتـى إذا نزلـوا في (كـربلاء) سـرت للحـرب فـيهم مغـاويرٌ وفرسـانُ
تـذرعوا الـصبرّ، فالأبـدانُ أضـحيِةٌ واستـشعروا المـوت، فـالأرواح قربـانُ (١)

ثم يرسم الشاعر محمد حسين الصغير مشهداً حياً ضاجاً بالخيل والسيوف والموت في ساحة الطف التي ترفل بالتضحية والعطاء قائلاً:

البيـدُ بالخيـلِ.. والبطحـاءُ حافلـةٌ بالمـشرفيةِ والآفـاق حُـسبّانُ
والارضُ ترمـلُ بالأبطـال زاحفـةٌ إلى المنايـا.. ووادي الطـفُ ميـدانُ(٢)

ويقف مظفر النواب على جدث الحسين ليعيش معالم الثورة في صورة خلابة، إذ يشم في ترابه عبق السماء المشع في الألباب، ويسمع هول المعركة، ويرى الرأس المحزوز والخيام المحروقة، ومع ذلك يقبِّل قدسية وجنتيه باعتزاز ويراه بكل المرايا وكل الأبعاد المؤدية للثورة شامخاً كالعَلَم فيصدح قائلاً:

..." لأنّ ضريحك عاصمة الله فيه "
ومن المسك للروح أجنحةٌ وفضاء
كأني أعلو ويجذبني أنْ ترابَك
هيهات يعلى عليه..
وبعض التراب سماء تضيء العقول..

(١) ديوان أهل البيت، د.محمد حسين الصغير /١٨٧.
(٢) ديوان أهل البيت، د.محمد حسين الصغير /١٨٨.

ليس ذا ذهباً ما أقبِّله..

بل حيث قبّل جدُك من وجنتيك..

ودرَّ حليبُ البتول..

لم يزل هِمَماً للقتال ترابُك..

أسمع هول السيوف..

ويوشِك قفلُ ضريحك أن يتبلَّجَ عنك..

أراك بكل المرايا على صهوة من ضياء..

وتخرج منها، وأُذهل أنَّك أكثرُ منا حياةً..

ألستَ الحسينَ بن فاطمةَ وعليٍ؟ لماذا الذهول؟!

لدى الرأس منك إمام الزمان، عهد

تطيل وقوفك ضد يزيد الى الآن..

لله ما بتاريخنا من مغول..

وعنه انحدار السيول..

إننا في زمان يزيد كثير الفروع

وفي كل فرع كربلاء" (١)

لقد أبدع الشاعر مظفر النواب حين قال (لأن ضريحك عاصمة الله فيه): إنها جملة ذات تركيز عالٍ ومفهوم عميق في جعله كربلاء رمزاً ليس كمثله رمز، إن العاصمة هي المكان الذي يضم كل المواقع الرئيسية التي منها تتحرك المواقع

---

(١) عروس السفائن، مظفر النواب/١٥٣.

الأخرى، لأنها المالكة والمسيطرة والموجهة وغير ذلك مما يؤهلها لأنّ تكون عاصمة.. إن معالم عاصمة الله عاصمة المطلق، والواجب الوجود، ومن له الأسماء الحسنى، والذي صفاته عين ذاته.. إذن فأي رمز شامخ يمثله ضريح الحسين عليه السلام حينما يكون الضريح عاصمة الله.. إن هذا الرمز يحتوي كل شيء، ولا ينحصر في شيء، ولا يسبقه شيء ولا يتأخر عنه شيء... ولأن كربلاء هي ما يضم ضريح الحسين.. فإنّ أرض كربلاء هي بلا شك أرض عاصمة الله..

لقد كانت هذه القصيدة رسالة إلى الإنسانية جمعاء بأن عشاق الحسين يقبّلون روحاً تعيش في أروقة الضريح لا يقبّلون حديداً. وأنّ كربلاء تحولت رمزاً ثورياً بفضل جسد الإمام الشريف.

وكانت كربلاء تقفز الى وجدان القصيدة وتتجدد صورها عند الشاعر تراوده في كل حلم ولو كان عن وعي، وما زالت تنبئ بالموت والمأساة وبشهادة البطولة وذبح الطفولة، والحسين عليه السلام نجمٌ يضاء بالدماء المجبولة بطين الشهادة.

إنّ "واقعة كربلاء لم تكن موقعةً عسكرية انتهت بانتصار وانكسار بل كانت رمزاً لموقف أسمى لا دخل له بالصراع بين القوة والضعف، بين العضلات والرماح بقدر ما كانت صراعاً بين الشك والإيمان بين الحق والظلم"[(١)]، إنّ الرمز هنا هو "الحسين" الذي لولاه ما كانت كربلاء وقد جعله الشاعر فليح الركابي درساً، ومصحفاً يرتل على مر الدهور بقوله:

تساقطت الرؤوس

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي، إنطوان بارا /١٢٢.

فكنت لها الدروس

أيا سيدي تعلمت الدنا منك الثبات

فيزيد مات

وألف ألف يزيد في المهملات

وبقيت أنت الحياة

أيا من لبست القلب درعاً

لا داحس تشبه يومك

أبداً ولا البسوس

يا وترها

تحطمت برأسك الفؤوس

وعلوت أثقفها

فيا أعلى الرؤوس

وقد صرت مصحفنا

على مر الدهور

ترتله النفوس [١]

وقصيدة الصخرة والندى للشاعر حسب الشيخ جعفر يصور فيها أن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على أرض كربلاء هو رمز لكل شهيد في سبيل قضية نبيلة حيث أصبح راية تلتفّ حولها الجموع، فحينما استقر به المطاف:

---

(١) منامات مستيقظة، د. فليح الركابي/٧٢.

رأساً وحيداً متربا ً مقطوع

في طبق من ذهب يضوع بالمسك والحناء

رأى وجه أمه الزهراء

مبللاً طوال ليل الموت بالدموعْ

ورفرفتْ حمائم بيضاء

تؤنسه طوال ليل الموت كالشموعْ [1]

إن الشعراء الذين ذكروا كربلاء في أشعارِهم كُثر، فقد وردت كربلاء بمضامين كثيرة عبر الشعراء فيها عن حبهم وتقديسهم هذه التربة الطاهرة، فهم يرون أن كربلاء أصبحت رمزاً حسينياً بوجه الظلم والطغيان وقد ازدادوا تمسكاً بالنهج الحسيني حين أصبح المجتمع نهباً للحركات الهدامة التي تحاول تخريب مادة الإسلام الحقيقية.

(١) أشياء حذفتها الرقابة بدون تاريخ أو سند طبع، حسب الشيخ جعفر/١٨١.



الفصل الثالث

تحولات المكان الحسيني بعد واقعة الطف

يعد المكان أحد أهم العوامل، إن لم يكن أكثرها إحتواء لمضامين التجربة، مما يجعله أكثر العناصر صلة بالنفس، لذلك لا يظهر المكان في الشعر شيئاً معزولاً، مفرداً أو تكويناً مجرداً، او بناءً أجوف، وإنما يظهر بكونه ممارسة ونشاطاً إنسانياً مرتبطين بالفعل البشري ويحمل من بين ما يحمله من مواقف وعواطف وخلجات ومشاعر وانفعالات الكائن الإنساني، ويجسد الأفكار بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة المعلنة والمختفية الواقعية والمتخيلة، والمحتملة والممكنة للإنسان عبر تاريخه العام والخاص"[١].

ولما كان المكان يخضع خضوعاً مطلقاً للحدث، لأنّ الحدث لابد أن يقع في مكان ما في الأرض، فقد وجد الشعراء أنفسهم يرتبطون بالأماكن التي يعيشون فيها، وإذا ما شطت بهم هذه الأمكنة، اعتزلوا الناس، وشعروا بالذل والوحدة، وقد تعددت الأماكن الحسينية بعد واقعة الطف الأليمة فكانت هناك أماكن عديدة حينما تمّر الرؤس والسبايا تترك أثراً مشرقاً يكون له تأثير في نفوس الشعراء والمحبين.

وقد أثرى تحول المكان موضوعات القصيدة الحسينية فذكروها كما مر بنا مكاناً منفراً لأنه مكان قتل وأشلاء ثم صوّروها مكاناً جاذباً للزائرين حين أصبحت

(١) ينظر: إشكالية المكان، ياسين النصير /٢٩٣.

منائراً وقباباً تستظل بها النفوس طالبة الشفاعة والرحمة من رب العالمين(١).

وفي هذا الفصل نحن بصدد دراسة تحولات الأماكن الحسينية الأخرى بعد واقعة الطف. وقد أقتيد المتبقّون من آل البيت عليهم السلام في قافلة سبايا إلى الكوفة ومنها إلى الشام، وكان السبايا من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله والبعض الآخر منهم من أزواج وأولاد الشهداء الآخرين أخذت نساء بني هاشم إلى الشام ومن هناك أعدن إلى المدينة، أما النساء من غير بني هاشم فقد أطلق سراحهن بواسطة أقاربهن أثناء مرورهن بالكوفة والتحقن بقبائلهن وقد تحدثت المصادر عن السبايا باسم "الأسرى" أيضاً.

ومن البديهي أنّ سبي بعض أهل البيت منافٍ لقوانين الحرب عند المسلمين، وهو أيضا تجنٍ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلاّ أنّ بني أمية اجترحوا ذلك العمل انطلاقاً مِمّا يكنّونه من حقد على عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت رؤى الشاعر محمد الحلي في صورة الحشود السائرة لقبر سبط رسول الله صلى الله وآله وسلم الإمام الحسين بن علي بن ابي طالب عليهما السلام، وهي تحمل في قلوبها كربلاء لتجدد الحب والولاء لذلك الموّسد في الضريح، صورة مركبة يتداخل فيها الجانب الحسي والنفسي باتجاه الصورة الحسية، فالتفاعل النفسي الذي يؤخر الصورة هو الشعور بعدم رد الجميل والوفاء للإمام الحسين بكل ما قدمه، ولو كان المنظر يحتوي على الدماء والتحدي والاعتراف والبعد والحب والقلوب التي هاجت في الصدور لترفرف حول قبة الحسين عليه السلام:

وفاءً ما أقَلَّ لهُ الوفاءا   وإنْ خُضنْا لذِكراهُ الدماءا
حشودُ السائرين لِسِبطِ طه   تُيمِّمُهُ صباحاً أو مَساءاً

---

(١) ينظر: إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، الشيخ محمد بن طاهر السماوي/١٣٣.

مَشَتْ رايتُها بالحُبَّ نَشوى مُجدِّدَةَ لبيعتِه الوَلاءا

من الحُبِّ الذي فيها قُلوبٌ تُرفْرِفُ حولَ قُبَّتِهِ انْتِشاءا

إذا ما كُلُّ قَلْبٍ حازَ صَدْرا فإنّ قُلوبنَا في كربلاءا (١)

فكربلاء هذه المدينة التي شهدت صراعاً بين قوى الخير المتمثلة بالحسين عليه السلام وأصحابه، وبين قوى الشر المتمثلة بيزيد وزمرته، فبقى اسمها مرتبطاً بالحسين من يوم استشهاده إلى يومنا هذا، وسيبقى مرتبطاً به عليه السلام إلى ما شاء الله...، ومما لاشك فيه أن مرقد الإمام الحسين عليه السلام قد أكسب هذه المدينة قدسية خاصة، وجمالية خاصة، ومشاهد متفردة، وبهذا فقد عُنِيَ الشاعر علي الفتَّال بوصف مدينته كربلاء. ومن ذلك مشهد شروقِ الشمسِ على قباب هذه المدينة قبة الحسين وأخيه العباس عليهما السلام، وغيرها من القباب التي تتوشَّح ببريقٍ يسحرُ الناظرين ويزيدها جمالاً شعاع الشمسِ في الصباحِ قال:

مدينتي مدينتي مدينة الـ قباب قد وشحها الذهب

ففجرها كأنَّه الياقوتُ والـ ـمرجان قد صيغ من اللهبْ

وشمسها تُداعب القبابَ في الصـ ـباح والقباب تلتهبْ (٢)

فتحولات المكان الحسيني عند الشعراء لها أصداء واسعة المدى، إذ يصف الشاعر كربلاء وهي أرض مخضبة بدماء سيد الشهداء وفوقها الجثث والأشلاء المقطعة مرة، وآخرى يصفونها روضة يضوع منها عبق الإمامة والشهادة تحوي القباب الشامخة. وقد وقع الفصل في مبحثين هي: الدخول إلى الكوفة،الطريق إلى الشام.

---

(١) يا حسين، د. محمد الحلي/ ٢٢.

(٢) تجليات الفتى يوسف، د. علي الفتال / ٧٥ - ٧٦.

المبحث الأول

الدخول الى الكوفة

الكوفة اسمها وموقعها

إن أول الأماكن التي ساقوا إليه سبايا آل البيت عليهم السلام بعد واقعة الطف هو (الكُوفةُ) وهي، بالضم: الرِّمْلَةُ الحَمْراءُ المُسْتَديرَةُ، أو كلُّ رَمْلَةٍ تُخالِطُها حَصْباءُ، ومدينَةُ العِراقِ الكُبْرَى، وقُبَّةُ الإِسلامِ، ودارُ هِجْرَةِ المُسْلمينَ، مَصَّرَها سَعْدُ بنُ أبِي وقّاصٍ.. ويقال لها: كُوفانُ، ويُفْتَحُ، وكُوفَةُ الجُنْد، لأَنَّهُ اخْتُطَّتْ فيها خِطَطُ العَرَبِ أيّامَ عُثْمانَ، خَطَّطَها السائِبُ بنُ الأَقْرَعِ الثَّقَفِيُّ[1].

والكوفة "مدينة مشهورة في العراق، قيل سميت كوفة لاستدارة بنائها. وفي حديث سعد، لما أراد أن يبني الكوفة قال: "تكوفوا في هذا الموضع" أي اجتمعوا فيه، وبه سميت الكوفة" [2].

وقيل: كان اسمها قديماً " كوفإنّ " ومن كلامهم " تركتهم في كوفإنّ " أي في رمل مستدير[3].

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي/٥٤ والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، ج٢/٤٢٧.

(٢) تاريخ الكوفة، السيد أحمد البراقي / ١٤٥.

(٣) مجمع البحرين، للطريحي /٨٧.

ولم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تعميرها من قبل العرب المسلمين، وليس في موقعها ما يشير إلى أنها كانت في يوم من الأيام مستوطناً من المستوطنات العربية أو العراقية القديمة، وإنما كان موضعها جزءاً سهلياً من الضفة اليمنى للفرات الأوسط وإلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة، ويدعى سورستان.

والكوفة مدينة جميلة تقع على نهر الفرات، وعلى مسافة أثني عشر كيلومتراً من مدينة النجف، ومئة وستة وخمسين كيلو متراً من بغداد، وستين كيلومتراً جنوبي مدينة كربلاء، وأرضها سهلة عالية، ترتفع على سطح البحر بـ٢٢ متراً وشاطئها الغربي أعلى من الشرقي بستة أمتار تقريباً، مما يجعلها في مأمن من الفيضانات قديماً وحديثاً، وكلما سرنا غرباً ارتفعت الأرض عن سطح البحر تدريجاً لتصل إلى ستين متراً ونصف المتر، ثم تنحدر انحداراً شديداً نحو الجنوب الغربي لتمتد إلى بحيرة مالحة ضحلة عرفت ببحر النجف غرباً [١].

كانت الكوفة صحراء واختار الصحابيان الجليلان سلمان الفارسي وحذيفة ابن اليمان، موقعها سنة (١٧) للجيش الإسلامي أيام خلافة عمر بن الخطاب لذلك سميت (كوفة الجند)، أي مجمع الجيش وبنيت سنة (٢٢هـ) بالآجر في عهد ولاية المغيرة بن شعبة على سبعة محلات لكل قبيلة، واتخذها الإمام علي عليه السَّلام سنة (٣٦هـ) بعد معركة الجمل عاصمة للخلافة الإسلامية واتجهت إليها أنظار العالم الإسلامي، وأصبحت مدينة علمية وتجارية في عهده عليه السَّلام، حتى قامت الخلافة العباسية سنة (١٣٢هـ) فاتخذوا الهاشمية لهم، ثم بغداد، فذبلت نظارة الكوفة حتى سنة (٥٨٠ هـ) [٢].

---

(١) الأخبار الطوال، أبو حنيفه الدينوري ١ ٢٥٣.

(٢) ينظر: تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، ج٢ ١ ٢٧٤ وابن خلكان، ج٢ ١ ٤٥٤.

سكان الكوفة الأوائل

توافدت القبائل العربية على الكوفة من كل مكان، وبدأت بها حركة الإعمار يذكر ياقوت الحموي نقلاً عن الشعبي: أن مساحة مدينة الكوفة بلغت في العصر الأموي ستة عشر ميلاً مربعاً وثلث الميل، شيدت عليها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار لسائر المسلمين، وأخذت رقعتها تمتد في أوائل العصر العباسي غرباً باتجاه النجف، وشمالاً باتجاه الحيرة، وانتشرت حولها كثير من الضياع والقرى.

وكان أول الوافدين عليها بعد العرب هم الفرس، والنصارى، السريان، ويهود نجران[(١)]. وكان عدد الفرس كما يقول البلاذري: أربعة آلاف ممن قاتلوا في معركة القادسية وجلولاء[(٢)]. وكان لهم نقيب يقال له (ديلم) أو دهقان فأطلق عليها (حمراء ديلم) لأنّ العرب كانت تسمي العجم الحمراء.

أما السريان فقد سكنوا الكوفة، حيث كانو يسكنون الديارات التي كانت قائمة في أطراف الحيرة والنجف، وتوثقت صلاتهم بالمجتمع الإسلامي الجديد، وتعاطوا التجارة والصيرفة، يضاف إلى ذلك هجرة جماعات من النبط سكان البطايح المجاورة فانضموا لسكانها العرب القادمين من الجزيرة، ثم توالت الهجرات.

وأصبحت الكوفة منذ تأسيسها محطاً للقبائل العربية، وسكنها أشراف العرب من قبائل اليمن وحضرموت، وقسمت عند تأسيسها إلى سبعة أحياء، خصص كل حي منها لقبيلة معينة، مثل قبيلة بني أسد، والنخع، وكندة، ومزينة، وتميم، وجهينة،

---

(١) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٤ /٤٩٣.

(٢) ينظر: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري / ١٢٥.

وبقيت هذه الأحياء قائمة حتى حكم عثمان بن عفان، وحينما قدم الإمام علي بن أبي طالب عليه السّلام إليها بعد موقعة الجمل سنة (٣٦هـ)، أجرى تعديلات في توزيع أحيائها، وظل هذا النظام معمولاً به حتى أوائل القرن الرابع الهجري[١].

وبدأت الكوفة تزدهر وتمتد تبعاً لاتساع نشاطها التجاري والاقتصادي وصارت قبلة أنظار العرب وزعمائهم واتخذت لنفسها سمة الزعامة والقيادة في فترة عرفت من أخصب مراحل تأريخها على الإطلاق، وكان للكوفيين، فضلاً عن ذلك، تأثير في الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية، وأخطر من ذلك كله أن الكوفة أثرت في الفتوحات الخارجية، وأدت دوراً خطيراً في تلك الفتوحات، حيث حددت علاقاتها بالأمصار الأخرى واتخذت لوناً خاصاً[٢].

إن مسير ما تبقى من الركب الحسيني بعد فاجعة الطف، وما رافقها من مصائب وآلام وآثام، ابتداء من كربلاء وأحزانها المروعة ومروراً بالكوفة وغصصها الخانقة وانتهاءً بالشام. لقد كان تعامل الأعداء مع النساء في هذا الركب في منتهى القساوة والفظاظة وكأنهم يحاولون الانتقام منهن، ويطلبون بثارات بدر وحنين![٣].

وحُملت عقائل النبوة وحرائر الوحي سبايا إلى الكوفة ومعهن الأيتامُ وقد ربطوا بالحبال، وحملوا على جمال بغير وطاء، وقد عزفت أبواق الجيش، وخفقت راياتهم، وكان المنظر رهيباً تهلع منه القلوب، وعند مجيء عليّ بن الحسين من كربلاء إلى الكوفة، ومعه النسوة وقد أحاط بهم الجنود، وقد خرج الناس ينظرون إليهم، وكانوا على جمال بغير غطاء، جعلت نساء أهل الكوفة يبكين ويندبن، وكان عليّ

(١) ينظر: تاريخ الكوفة، السيد أحمد البراقي / ١٤٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، ج٢ / ٢٧٧.

(٣) السيدة زينب عليها السلام رائدة الجهاد في الإسلام، الشيخ باقر القرشي /١٣٤.

ابن الحسين قد أنهكته العلّة، وفي عنقه الجامعة، ويده مغلولة إلى عنقه، وهو يقول بصوت ضعيف: (إن هؤلاء يبكون وينوحون من أجلنا فمن قتلنا)[1].

وهنا انبرت بنات الرسالة وسليلات بيت النبوة ليشاركن في المشروع الحضاري الذي يسعى لإخراج الأمة من عتمة الظلمة الفكرية والإعلامية الأموية، من خلال الوقوف في وجه كل المقولات التي سعى الأمويون لترويجها، كان لزينب بنت علي عليهما السلام في كربلاء والكوفة والشام دورٌ مهمٌ في كشف خطر المشروع الأموي.

وقد حظي هذا الدور الرسالي لسليلات الوحي بإهتمامٍ بالغ من الشعراء الذين تناولوا المشهد الحسيني وكتبوا فيه الكثير الكثير وتناولوه من مختلف الزوايا فقد عرض الشاعر طالب الحيدري مسيرة الحزن التي مر بها آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، وجسد قضية الأمة الإسلامية الإنسانية تجسيداً صادقاً، فهو عاناها وعبر عن هذه المسيرة بحرارة العاطفة وصدق الانفعال، واستطاع أن يجعلنا نفكر في هذه المسيرة الأليمة، وأن تنتاب نفوسنا ثورة على الأوضاع المهيمنة في عصرنا الراهن.

يا آل بيتِ رسولِ اللّهِ أدمعُنا	على مصائبكم نورٌ يُغَذّينا
لأنّها حِممٌ تنصبُ محرقة	- فيها الحقائقُ – يخشاها أعادينا
من "السقيفةِ" و"الشورى" بدايتها	وزادَها ما جرى في "الطفِ" تمكينا
وسوفَ تبقى قوافيها تؤججُنا	ما أشعلتْ دمَنا الظامي مآسينا
مسيرةُ حزنٍ لا تخفى على أحدٍ	تكلّمتْ بالذي نُخفي مآقينا [2]

---

(١) نور الأبصار في مناقب النبي المختار صلى الله عليه وآله وسلم، الشيخ بن حسن مؤمن الشبلنجي /٢٧٦.

(٢) ملحمة كربلاء، مسيرة الحزن، طالب الحيدري / ١٩١.

وبسبب هذه المسيرة المحزنة التي كان أوجها في طف كربلاء "فقد اختطَّ مسارٌ جديدٌ عرف بأدب الطف في الربع الأخير من القرن العشرين على يد مجموعة من الشعراء المعاصرين، مغايراً لما كان عليه أدب الطف في القرون الثلاثة الأخيرة الذي سار على وتيرة واحدة في الشكل والمضمون، ولم يتميز فيهما إلا في بعض المحسنات اللفظية أو البديعية"[١]

واستحضر الشاعر كذلك في قصائده لأهل البيت عليهم السلام التراث الشعري العربي في أبهى صوره، وكل تلك الصور المعبرة يقدمها وهي تحمل نفسه الشعري الخاص ومصطبغة بموسيقى عذبة، ففي قصيدة عشق الحسين يقول الشاعر:

واصدح بلحن هواك وانشد معلنا   أنا عاشق السبط الشهيد بكربلا

واسجد على أرض يضوع بتربها   أرج النبوة والولاية والعلا [٢]

فقد بين الشاعر قضية ولائه بكل وضوح وسلاسة في قالب موسيقي يأخذ بالألباب لقد قدم الشاعر في هذين البيتين النتيجة على السبب باعتبارها أمراً مفروغاً منه لأهميتها عنده فبعد أن أعلن عن ارتباطه الروحي بالحسين عليه السلام مقدما بصيغة الأمر (اصدح) في البيت الذي يليه قدم المبرر لذلك الولاء ببيان أهمية التربة وقداستها التي اكتسبتها من ذلك الجسد الذي يمثل امتداداً للرسالة المحمدية وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وشموخ الحسين عليه السلام وعزته في معركة كربلاء [٣].

(١) ينظر: مقدمة ديوان الوائلي، ج١/ ١٠.

(٢) ديوان في رحاب كربلاء، قدوة الشهداء، عبود الحلي/ ٢٢.

(٣) في رحاب كربلاء.. لحن للولاء، دراسة نقدية في ديوان الحلي، علي حسين يوسف، المركز الخبري لشبكة الإعلام العراقي.

المبحث الثاني

سبايا آل محمد صلى الله عليه وآله في الكوفة

يعد التاريخ منبعاً ثراً من منابع الإلهام الشعري، الذي يعكس الشاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤية إنسانية معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته وأحلامه، وهذا يعني أن الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر، تجعل النص الشعري ذا قيمة توثيقية، يكتسب بحضورها دليلاً محكماً، وبرهاناً مفحماً على كبرياء الأمة التليد وحاضرها المجيد، أو حالات انكسارها الحضاري ومدى انعكاسه على الواقع المعاصر، أي يستلهم الشاعر أوجه التشابه بين أحداث الماضي، ووقائع العصر وظروفه سلباً أو إيجاباً، وهو في هذا كله يطلق العنان لخياله لكي يكشف عن صدى صوت الجماعة، وصدى نفسه في إطار الحقيقة التاريخية العامة التي يبحث عنها، أو الموضوعات التاريخية الكبرى، التي تشكِّل حضوراً بارزاً في تاريخ الأمة من دون الخوض في جزئيات صغيرة.

كوفـإنّ يـا واحـة غنـاء يرفـدنا تراثهـا فـيض هطـال مـن الـديم

أشـرقت مـا بـين بـر فـاح منيبـه بالطيبـات وشـطآنٍ مـن الكـرم[١]

سلك موكب السبايا من كربلاء المقدسة إلى الشام طريقاً طويلة مرت بالمدن التالية من كربلاء إلى الكوفة جنوباً من ثم إلى القادسية. بعدها شمالاً إلى تكريت والموصل، ثم غرباً عبر جبل سنجار، ثم منطقة الجزيرة في الشمال السوري، وبعدها إلى حلب، حماة، بعلبك في لبنان وصولاً إلى دمشق في سوريا.

ونلاحظ أنهم اختاروا الابتعاد عن الخط المباشر من كربلاء إلى دمشق عبر الصحراء نظراً لوجود السباع، وخطورة الطريق وندرة المياه. كما أن المرور عبر المدن والعمران يوفر لجيش الطاغية الراحة وإبراز سلطته من خلال عرض السبايا[٢]. والمناطق التي مرت بها سبايا آل البيت عليهم السلام هي: اقساس، وباب الساعات، والباب الصغير والبطان، والبيضة، وحفرة المنحر، ودير الراهب، والرهيمة، وزبالة..الخ[٣].

الدخول إلى الكوفة

تحرَّك موكب سبايا أهل البيت عليهم السلام من كربلاء المقدّسة نحو مدينة الكوفة، في الحادي عشر من المحرّم ٦١ هـ، وهو يقطع الصحاري، حاملاً الذكريات الموحشة والمؤلمة لليلة الفراق والوحشة، التي قضوها على مقربة من مصارع الشهداء، وهم على جمال بغير وطاء ولا غطاء. ففزع أهل الكوفة،

(١) البحور الزاخرة في مدح العترة الطاهرة، السيد علي الحيدري/١٧٩.

(٢) ينظر: الإرشاد، الشيخ المفيد / ٢٣١.

(٣) الحسين في طريقه إلى الشهادة، علي بن الحسين الهاشمي /٨٧.

وخرجوا الى الشوارع، بين متسائل لا يدري لمن السبايا، وبين عارف يكفكف أدمعاً ويضمر ندماً. دخل السبايا عليهم السلام إلى الكوفة أُسارى، وأمر ابن زياد أن لا يخرج أحدٌ من داره مسلحاً، ونشر عشرة آلاف فارس وراجل في الأزقة والشوارع والأسواق لئلاّ يتحرك أحدٌ من شيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام، ثم أمر بإعادة الرؤوس التي سبقت إلى الكوفة والسير بها أمام السبايا، والدوران بهم في أزقة الكوفة وأسواقها، وحين رأى الناسُ ذريةَ رسول صلى الله عليه وآله والرؤوس على الرماح وعقائل النبوة على إبلٍ بلا أقتاب ولا أستار ارتفعت أصوات الناس بالبكاءِ والنحيب عند ذلك تكلّمت زينب الكبرى وأختها أمّ كلثوم وفاطمة بنت الحسين والسجاد عليهم السلام على الترتيب بقلوبٍ موجعة وأكباد ملتهبة وأصوات حزينة اجتذبت مشاعر السامعين، حتّى أن جنود ذلك الجيش الخاسر ندموا على فعلتهم، لكن بعد فوات الأوان [١].

وكان للنساء اللواتي اصطحبهن الإمام الحسين عليه السلام دور كبيرٌ في ثورته، وهو الإعلان عن تلك الثورة العظيمة والصدع بها، وبيان مظلومية الإمام، وكيفية قتله، وبهذا تتكامل النهضة الحسينية، ولولا ذلك لبقيت هذه النهضة محصورة في زمان ومكان محددين [٢]، ولم يكتب لها أن تأخذ الدَّوي في ذلك الزمان كما هي وقفة السيدة زينب عليها السلام عقيلة بني هاشم في الكوفة، وكيف أنها بينت للناس حال أهل البيت وحقَهم المغصوَب، فقد" جاهدت بكل ثقلها من الشجاعة المحمدية والبلاغة العلوية والفصاحة الفاطمية في محاربة الظلم... وذلك لا يوجد إلاّ في آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) ينظر: ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي، ج٣ /٧٨.

(٢) ينظر: معالم إنسانية في نهضة الإمام الحسين، جعفر الحائري /٦٥.

الذين آتاهم الله تبارك وتعالى من مخزون علمه ما لم يؤته غيرهم وأودع في قلوبهم ينابيع الحكمة"[١]، وبهذا يشير الشاعر علي الفتال قائلاً:

ووقفتِ أنتِ بكوفة الخجلى على	شُمِّ الرواسي وهي منكِ تراجفُ
حتى إذا ما الحق بان تراجعوا	فتراشقوا بالذنب ثم تأسفوا [٢]

فقد أخزتْ العقيلة زينب قتلة الحسين في الكوفة [٣] وفعلت مثل ذلك مع يزيد في قصره؛ إذ أنها خطبَتْ ببلاغةٍ وشجاعةٍ قائلة " أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تُساق الأُسراء أنَّ بنا على الله هوانًا وبك على الله كرامة..." [٤] هكذا أراد الحسين عليه السلام من العقيلة زينب عليها السلام أن تكون " وأن لا تظهر أمام الأعداء بمظهر الضعيفة المغلوبة على أمرها لكي لا يشمت بها الأعداء" [٥]، إن دور زينب عليها السلام "دورٌ طليعيٌّ مهمُ جدًّاً" [٦].

وقد كنّى الشاعر الفتال السيدة زينب عليها السلام بقوله (بنت من سن الفصاحة)،وكنّى التلّ الزينبية بقوله (تل الخلود)، قائلاً:

وقفتِ على تلِّ الخلود بقامةٍ	فرعاء تستمري الهدى بخطابها

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي، ج٣ /٣٤٤.

(٢) هو ذا إذن، د. علي الفتال /١١٥١١٦.

(٣) ينظر: اللهوف على قتلى الطفوف، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس /٢٠١.

(٤) مثير الأحزان، نجم الدين الحلي /٨٠، وطريق الكرام من الكوفة إلى الشام، عبد الله الخطيفي /١٨٠ وما بعدها.

(٥) معالم إنسانية في نهضة الإمام الحسين، جعفر الحائري، ج٤/١٨٤.

(٦) في رحاب كربلاء، د. عبود جودي الحلي/٦٣.

هي بنت من سنِّ الفصاحة مؤمناً فتنــاثرت منهــا علــى أعتابهــا [١]

لقد كان للسيدة زينب سلام الله عليها وقفة صارمة وجريئة في وجه الظالمين عند سبيها في الكوفة وهذا ما دعا الفتال الى القول (تل الخلود) فقد خلدت وقفتها عبر التاريخ.

ولم يزَل المشهد الكربلائي منذ سنة إحدى وستّين للهجرة يتعاظم أهميّة وشأناً عاماً بعد عام، ويتسامى قدراً وقداسة ويزيد ذكره ولا يبيد ويمتدّ عزاء الحسين عليه السلام انتشاراً في شرق الأرض وغربها.

تقــرعين الخــصوم بــالمنطق الفــص ـــل فيــأتي الــدليل تلــو الــدليل

ازأري فـــــالزئيرُ عنـــــدكِ إرثٌ ومـــزاج الأســـودِ إرث الــشبولِ [٢]

وقد استعار الشاعر الوائلي لمنطق السيدة زينب عليها السلام وخطابتها زئير الأسد ليوحي لنا بالقوة والجرأة فضلاً عن الشجاعة في مقارعة الخصوم وإدانتهم وليعطي للحق صوتاً مدوياً يسكت الجبابرة والطغاة ويخيفهم.

وصدح الشاعر مظفر النواب معبراً عما جرى من أحداثٍ بشعة في أرض الكوفة من حمل رأس الحسين عليه السلام وسبي النساء والأطفال بعد واقعة الطف ويستلهم هذه الصورة المؤلمة ليراها مرة أخرى واقعاً ملموساً على أرض العرب.

قتلتنا الردة يا مولاي كما قتلتك بجرح في الغرّة

هذا راس الثورة

يحمل في طبق في قصر يزيد

(١) ديوان هو ذا أذن، د. علي الفتال /١٢٤.

(٢) ديوان الشعر الواله في النبي وآله، د. أحمد الوائلي / ١١٢.

ويزيد على الشرفة يستعرض ... ويوزعهنّ كلحم الضأن...
لجيش الردّة..
ويصبح نداء الثورة مشتعلاً
ونداء لملك الثوار أن يظهر من جديد [١].

مازالت المذبحة قائمة ومازالت نماذج في الأضلع الحمراء التي رُضّت في أرض كربلاء ونماذج من الرضّع الذين لم يجدوا حتى مثل الحوراء زينب التي كانت تمسح عن وجوه أيتام الحسين.. ومازال الحديد.. ولكنه ذو ثقل آخر خلف قضبان السجون وسراديب المعتقلات... كل هذا يحدث ولكن أنصار الحسين عليه السلام لم يفكروا لحظة في أن يغيّروا مسار الطريق أو يساوموا أو يبيعوا القضية بدريهمات الطاغية يزيد.

ويوم توارى الحسينُ
رأينا خيولاً ملطّخةً بالخطايا
رأينا سكاكينَ بيضاءَ... بيضاءَ...
تُولَدُ خلفَ دموعِ السبايا! [٢]

لقد كانت الكوفة مكاناً جديداً، وقد تحول المكان من مكان معركة إلى مكان رئاسي، وقصر فخم فيه إدارة الدولة التي أمرت بقتل الإمام الحسين عليه السلام، فلاقوا أشكال الاضطهادِ من إعدامٍ، وإحراقٍ، وسجنٍ، وعذابٍ، وقطعِ لسانٍ، وإقصاءٍ عن الوطن، والأهل [٣]، وتحول وضع الأسرة النبوية إلى مأسورة

---

(١) وتريات ليلية، مظفر النواب /٢١ ٢٣.
(٢) الحسين لغة ثانية، تنبؤات، جواد جميل /١٥.
(٣) ينظر: مقدمة وتزودوا من حب آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قصائد خالدات في حب ←

تحت سلطة أبناء الطلقاء، فكانت القصيدة باكية حزينة تصف الرؤوس المقطوعة، وما دار في تلك الملحمة الخالدة على أرض كربلاء المقدسة.

كما تقف الشاعرة ناهضة ستار* على وصف موقف بطلة كربلاء عقيلة بني هاشم وفخر المخدرات السيدة زينب عليها السلام التي شهدت واقعة طف كربلاء بمصائبها وكانت الصوت الإعلامي لتلك الفاجعة، يتحرك النص الشعري عند الشاعرة وفق منظومة سردية صورية، تُكسر فيها الرتابة التعبيرية.

بدأت وحين كلامها بدأ الكلامُ   وعلى جفاف الوقت أمطرها الغَمامُ
فتجمعَ الوجعُ الإمامُ بجملة   رفقاً بها يا أيها الوجعُ الإمامُ
يعقوبُ أدمُعها إشارةُ نهضةٍ   فازت بيوسفها إذا انعتق الغرامُ
في حينها عرفتْ ان المسار سينجلي   وبأنها شمسٌ اذا انسكبَ الظلامُ
نطقتْ وكان الجرحُ ينزفُ حرفهُ   فتأبجدت لغةً سيحملها الحمامُ
ويحيلها مطراً تساكبَ وحيهُ   كقصيدةٍ جرحاً ستكتبها السهامُ
أصغتْ لهذا النص كل بلاغتي   فتعثر المعنى وأعجزني المقامُ
فرأيتها معنىً يفيضُ جلالةً   وريادةً أنثى على قدرٍ تقامُ

أهل البيت، عبد العباس الأسدي/٤، وفي أدب العراق الحديث دور الأدباء الشيعة، عبد الرضا صادق/٤٣.

*ناهضة ستار: تولد العراق ١٩٦٧م عضو اتحاد الأدباء والكتّاب العرب والعراقيين منذ عام ١٩٩٣م دكتوراه في النقد الادبي والمناهج الحديثة، أستاذة النقد والأُسلوبية في كلية الآداب/جامعة القادسية، صدر لها: رؤيا الكلام /شعر/منشورات إتحاد الأدباء في العراق عام ٢٠٠١م بنية السرد في القصص الصوفي /دراسة عن اتحاد الكتاب العرب /دمشق ٢٠٠٣م.

حتـــى إذا أكتملـــت دلالـــة حرفهـــا وتفـــاقمَ المعنـــى ليعتقهـــا الكـــلامُ

جـــاءت مكربَلـــةً تـــصولُ بحرفهـــا لتباهـــل الـــدنيا وينكتـــبَ الـــسلامُ (١)

رسمت الشاعرة بكل جمال شخصية السيدة زينب عليها السلام وهي التي حين نطقت كان نطقها هو بداية انبعاث الصوت الإنساني الثائر ورغم الوجع والفقد والنزف فكانت بصلابتها ووضاحتها شمس الحقيقة التي كشفت ظلام التزييف وتنزل خيراً عظيماً فلا خير أكبر من كشف الضلالة وإضاءة الطريق أمام الناس...

لم تكن واقعة كربلاء مجرد حدث عابر في حياة السيدة زينب عليها السلام بقدر ما كانت عنواناً تدخل منه إلى العديد من المواقف التي عّبرت من خلالها عن صرخة الضمير علّها بذلك تنقذ ما تبقى منه في عقول المسلمين التي تلوثت وتدنّست برذائل الخبث الأموي، لهذا خاطبها الشاعر جواد جميل بـ (زينب البطولة) قائلاً:

آهِ يا زينبَ البطولةِ خلّي الصبرَ رمحاً على خيامكِ يعلو

ودعي الدمعَ جمرةً ولهيباً من كُوى الغيب كلُّ آنٍ يَطلُّ

فطريقُ الخلودِ صعبٌ وفيه يفتحُ المرءُ جُرحَهُ أو يذلّ (٢)

وبقصيدة أخرى يصف فيها رحلة مأساة كربلاء بكل جراحاتها وآهاتها وما جرى فيها من ذبح بوحشية أمام النساء والأطفال، ولم يكتف أفراد الجيش الأموي بذلك بل عمدوا إلى قطع رؤوس أنصاره وحرق المخيم الذي كانوا يستريحون فيه، وهي رحلة تخللتها الكثير من المآسي والآلام التي تحملتها نساء الإمام الحسين

(١) إلى سيدة الحزن العظيم، ناهضة ستار /١٦.

(٢) ديوان الحسين لغة ثانية، ودعيني، جواد جميل /٣٣.

عليه السلام وأطفاله ونساء وأطفال بقية أنصاره قائلاً.

واحمليني لكربلاءَ خيالاً بجناحٍ من عبرةٍ.. وخشوعِ
حيث نحر الحسين ينتظر الماءَ، ويهفو لرأسهِ المقطوعِ
وجراحاته تئنُّ، فيبكي ألفُ كونٍ، على الصدى الموجوعِ
والشفاهُ المخضّباتُ نجومٌ شاحباتٌ من الظما والجوعِ
وتمنى "الفرات" لو طهّرتهُ قطرة من دماء نحر الرضيعِ
يا عيوني أين البكاءُ؟ ففيضي هذه كربلا وهذا شفيعي
هذه كربلا..وهذي الخيولُ الجُردُ تعدو على التريبِ الصريعِ
هذه كربلا.. وهذا رسول الله يبكي في ساعة التوديعِ (١)

كما يقف الشاعر ضياء الأسدي على معاناة السيدة زينب عليها السلام في طف كربلاء وما تحملته من صبر وقهر وهي أسيرة في أيدي الأعداء، على الرغم من أنها من بيت أنزل الله فيهم قرآنه وهم الصفوة المنزهة من قبل الله تعالى وهم الوجود الإلهي على الأرض، حيث أشار إلى ذلك بقوله (حسبُها من أهل بيتٍ شمسُهُمْ...):

ولـــه زينـــبُ تـــشكو ذُلَّهـــا	وهُمومـــاً عاينـــتْ منهـــا المَحـــالا
صـــبرتْ واحتـــسبتْ مـــا نالَهـــا	في ســـبيل الله تلقـــاه نـــوالا
حـسبُها مـن أهـل بيـتٍ شمـسُهُمْ	في مَـدىٰ التـاريخ لم تغـربْ زوالا
جَـــنَّهُمْ في الطـــفِّ ليـــلٌ وهُـــمُ	بالحسينِ الطُهـرِ قـد جَنُّـوا خَبـالا

---
(١) ديوان الحسين لغة ثانية، ليلة الأسى والدموع، جواد جميل / ٤٥.

فاشهدي يا ليلة الضوء هوىً نضراً يبتكر الرؤيا جمالا [(١)]

أمر ابن زياد جنده بالتوجّه بسبايا آل البيت عليهم السلام إلى الشام إلى الطاغية يزيد بن معاوية، وأمر أن يكبّل الإمام زين العابدين عليه السلام بالقيود، وأركبت بنات الرسالة الإبل الهزّل تنكيلاً بهن، وليحظى عند سيّده يزيد بالمنزلة الأرفع، والمكان الأقرب. وفي أبيات قريبة من القلب للشاعر د.عبود الحلي يقول فيها:

يارواني الطف فيضي بالحنين

واسطعي في ظلمة الليل الحزينِ

ودَّعي يا كربلاء

ركب خير الشهداء

واهتفي في كلّ حين

يا حسينُ يا حسينُ يا حسين [(٢)]

وبهذا أصبحت الكوفة المكان الثاني الذي توجه إليه سبايا آل البيت عليهم السلام بعد كربلاء، فكانت الكوفة مكان معاناة لعقائل الوحي ومخدرات النبوة والإمامة وجميع ضروب المحن والبلاء أيام مكثهن في الكوفة، فقد عانين مرارة السجن، وشماتة الأعداء، وذلّ الأسر.

إذن فالكوفة هي المكان الثاني الذي نزل فيه الشعراء ليكتبوا فيه حبهم للآل البيت عليهم السلام ومواساتهم لهم وحزنهم لما عانوه وقاسوه في مصيبتهم.

---

(١) ديوان ذاكرة الصمت والعطش، الليلة الآخِرة، ضياء الاسدي /٨.

(٢) في رحاب كربلاء، د. عبود الحلي / ٦١.

المبحث الثالث

الشام مكان حسيني طارد

وصول سبايا الإمام الحسين عليه السلام إلى الشام

إنّ النهضة الحسينية لها أبعاد كثيرة وأبعادها غير محصورة في زمان أو مكان معين إنما تمتد على امتداد بقاع الأرض وربما يكون هذا مضمون الشعار الذي يرفع تحت عنوان (كل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء)، كأنه ليس حدثاً تأريخياً أو حدثاً انتهى كبقية الإحداث التاريخية الأخرى، فيجب أن تمتد رسالة الحسين عليه السلام ويجب على المسلمين أن يستلهموا الدروس والعبر لأنّ "قضية الأمام الحسين عليه السلام عطاء متجدد في كل مجتمع وينسجم مع كل زمان ومكان فهذه النهضة المقدسة ينبغي أن يرافقها إعلام يتخذ صوراً شتى، فالأدب الحسيني مضمون كبير يتسع للشعر والنثر والخطابة"(١).

ولعل أول من بدأ بهذا الأمر سيدتنا زينب عليها السلام إذ أنها ما أن بذل الإمام عليه السلام دمه الشريف ودم أصحابه في أرض كربلاء دفاعاً عن الإسلام

---

(١) أهمية ادب الطَف في النهضة الحسينية، أزهار مهدي الحسيني / ١٠.

حتى بدأت مهمة الإعلام والأدب الحسيني، فبدأت زينب عليها السلام تخاطب ضمائر الناس جميعاً في ذلك الزمن[١]، وفي هذا الزمن قيض الله لخطب زينب عليها السلام أن تصل إلى كل المجتمعات ولعل الخطباء الحسينيين لهم الدور البارز في إيصال رسالة الإمام الحسين عليه السلام للجماهير وتأثيرها في المجتمع.

تقدَّم رأسُ الحسين عليه السلام رؤوس الكوكبة التي خلَّفت أجسادها في صحراء الطف، وراحت القافلة تخترق الصحاري متوجهة إلى دمشق. وسارت خلف الرأس الشريف زينب عليها السلام بطلة كربلاء، وقد تسلَّمت مَهامَّ الثورة الحسينية ضِدَّ الطُغاة، وهي مِهمَّة الجهاد بالكلمة لا بالسيف. فالتحق ركب النساء والأطفال برفقة الإمام السجاد عليه السلام، الذي وضعت بِيَدِه السلاسل، وجُمِعت إلى عنقه وحملوا جميعاً على أقتاب الإبل التي كانت بغير وطاء، فالتحقوا بموكب الرؤوس الذي سَبَقهم في المسير، وراحوا يسيرون سواءً إلى جَنب رأس الحسين عليه السلام نحو الشام، بناءً على الأوامر التي صدرت من يزيد بن معاوية إلى ابن زياد.

وصل موكب الحزن والأسى إلى دمشق عاصمة الأمويين، ومركز قيادتهم وبؤرة الحقد والعداء. وقد اتخذ يزيد التدابير اللازمة لصرف الأفكار والأنظار عن الواقع والحقيقة، محاولاً بذلك تغطية الأمور وتمويه الحقائق، فأمر بتزيين البلدة بأنواع الزينة، ثم الإعلان في الناس عن وصول قافلة أسارى وسبايا، خرج رجالهم عن الدين فقضى عليهم يزيد وقتلهم وسبى نساءهم ليعتبر الناس بهم ويعرفوا مصير كل من يتمرد على حكم يزيد!

ومن الواضح أن الدعاية والإعلام لها دورها في تمويه الحقائق، وخاصة على

(١) ينظر: ينابيع المودة، القندوزي، ج٣ / ٨٧.

السذج والعوام من الناس، وجيء برؤوس الشهداء يتقدّمها رأس الحسين عليه السلام، إلى بلاط يزيد وأدخلت عليه، وكان بيده قضيب فأخذ يضرب به فم الحسين عليه السلام ويًردد الأبيات [١]:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزعَ الخزرج من وقع الأسلْ

لأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تُشَلْ

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزلْ

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل [٢]

في وصف دقيق للشاعر حازم الحلي للمنظر المؤلم لحال السيدة زينب سلام الله عليها حين سيقت مع نساء بيت رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا من الكوفة إلى يزيد في دمشق في موكب بربري وحشي أظلمت له السماء من رؤية بنات رسول الله سبايا والسياط تتولى على ظهورهن لمجرد بكائهن على قتلاهن.

فقدت أهلها الذين حموها ... ثم سيقت إلى دمشق سبية

أوجعتها السياط تُلهب ظهراً ... وهو ظهرٌ..لطفلةٍ عَلَوية

والحبال التي تشدُ يديها ... تأكل اللحم من يديها الطرية

وقد رافق وصول سبايا آل البيت عليهم السلام إلى دمشق أيضاً حملة إعلامية مضللة، تقول: "إن أولئك السبايا خرجوا عن الخليفة الشرعي يزيد فقتلهم وجيء بنسائهم وأطفالهم، وأشاعوا ذلك بين الناس وأمروهم بإظهار الزينة والفرح" [٣].

---

(١) أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري / ٢٢٢.

(٢) تاريخ دمشق، ج٦٠ / ٣٧٠، ومختصر تاريخ دمشق ج٢٥ / ٢٧٤.

(٣) الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة، محمد جعفر الطبسي /٢١٠.

كذبوا ليس يُقتل المبدأ الحرّ ولا يخدع النُّهى التَّضليلُ
كذبوا لن يموت رأيٌ لنور الشَّمس من بعض نوره تعليلُ
كلٌّ عرق فرَوه لهو بوجه الظُّلم والبغي صارمٌ مسلولُ [١]

فالشاعر يظهر التضليل الإعلامي الذي مارسه الأمويون، حيث أعتمد الإعلام الأموي على الكذب والنفاق في تضليل الراي العام وإشاعة ثقافة الخوف بين الناس من خلال التطبيل بإرهاب الدولة وجبروتها في معالجة حالات الثورة والمواجهة للنظام بوسائل القمع والترهيب الوحشية.

قصر يزيد (الشام مكان طارد)

اتفق أرباب المقاتل على أن الجيش الأموي ساروا ببنات الرسالة وصبية الحسين عليه السلام من كربلاء يوم التاسع عشر حيث تم سيرهم إلى الشام تسبقهم الرؤوس على الرماح، ساروا بالعقيلة زينب الكبرى سلام الله عليها والتحق ركب النساء والأطفال بصحبة الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قيّد بالسلاسل الحديدية، وقد حملوا جميعاً على أقتاب الإبل العجاف التي كانت بغير وطاء في هذا الطريق قرابة عشرين يوماً حتى بلغوا الشام [٢].

وفي إرسال الرؤوس والسبايا الى الشام بعث عبيد الله بن زياد برأس الحسين عليه السلام فدير في سكك الكوفة، ولما فرغ القوم من الطواف به في الكوفة، ردوه الى باب القصر فدفعه ابن زياد الى زجر بن القيس ودفع إليه رؤوس أصحابه وسرحه الى يزيد ابن معاوية وأنفذ معه أبا بردة بن عوف الأزدي، وطارق بن أبي

---

(١) حديث الجراح، أحمد الوائلي / ٢٣.
(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج٦٠ / ٣٧٠.

ضبيان في جماعة من أهل الكوفة حتى وردوا بها على يزيد بن معاوية بدمشق، ثم إن عبيد الله بن زياد بعد إنفاذه رأس الحسين عليه السلام أمر بنسائه وصبيانه فجهزوا وأمر بعلي بن الحسين عليه السلام فغل بقيد الى عنقه، ثم سرح في أثر الرؤوس مع محقر ابن ثعلبة العايد، وشمر بن ذي الجوشن، فانطلقوا بهم حتى لحقوا بالقوم الذين معهم الرأس الشريف [(١)].

وبدأ التحوّل بالشام على أثر خطب الإمام السجّاد عليه السلام وكلماته في المناسبات المختلفة، وكذلك عقيلة أهل البيت عليهم السلام... وتيقّظ الناس وتنبّهوا، وحتّى جند يزيد ومن حوله... وبذلك تبيّن جانب من السرّ في أخذ الإمام عليه السلام الأهل والعيال معه إلى العراق [(٢)].

بربك كيف وجدت القيود	تقصر للّه درب السفر
وكيف لقيت حشود الشام	ترتل باسم النبي السور
وتقرع حول بنيه الدفوف	وترقص رقصة عيد الظفر
فرحت تلقنها دينها	وتوقظ منها عماة البصر
وكيف جعلت الصبايا الصغار	حزاماً بقصر يزيد انفجر
قلبت الشام على رأسه	ولوحت من كل جرح شرر
غزوت أُمية في دارها	وجلت بها وقصمت الظهر [(٣)]

(١) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج٢ / ٧٤، عوالم الإمام الحسين، الشيخ عبد الله البحراني/ ٤١٤، رياض القدس، أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، ج٢/٢٩٢

(٢) المصدر نفسه / ٧٥.

(٣) أبا القيد، جابر الجابري / ٢٢.

خربة الشام مكان طارد

معنى خربة: الخراب: ضد العمران، والجمع أخربة: خرب، خرباً، فهو خرب وأخربه وخربة. والخربة: موضع الخراب[١]، أما في الموروث الشعبي فإنّ الخربة: مكان مهجور تركه أهله بدون سقف يظله ولا باب يحميه ووضع يزيد الطاغية زينب عليها السلام والعائلة في هذه الخربة وذلك لقربها من القصر الأموي.

أمر يزيد بالنسوة أن ينزلن في دار مستقلة جانبية معهنّ أخوهنّ عليّ بن الحسين عليه السلام فأفرد لهم داراً تتصل بدار يزيد، لا يكنهم (يحميهم) من حر ولا برد، فأقاموا به حتى تقشرت وجوههم، وكانوا مدة إقامتهم في البلد ينوحون على الحسين عليه السلام ثلاثة أيام بلياليها بنات النبي في خربة الشام، خربة لا تقيهم حر النهار وبرودة الليل، في مكان اختير لشماتة الطاغية يزيد، وحال النساء في هذه الخربة يبكي حتى الصخور من عظمها، فلا تسمع إلا إلى صرخات وأنات، ومع سكون الليل تتجسد مصائب كربلاء بتفاصيلها المؤلمة على قلوب الحرم ويبكى الأيتام، وتعاد كربلاء ومصيبة السبي بأعظم صورها على مخيلتهم، فتتحول هذه الخربة إلى مأتم للحزن والنياح على سيد الشهداء..[٢].

وقد صور الشاعر طالب الحيدري ما عاناه بيت الرسول صلى الله عليه وآله في مسيرهم:

رجع الصدى ينساب في البيداء	والليل وحش مرعب الأصداء
ورؤى النهار المر تبدو قصة	لا تنتهي مبحوحة الأنباء

(١) معنى كلمة خرب في معجم المعاني الجامع، والمعجم الوسيط.

(٢) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج٢ / ٧٦، عوالم الإمام الحسين.

والركب ينتهب الرمال وفي حشا ذراتها نار من الاحشاء

وعلى الهزيلة والظليع تساندت أشباح اسرى سيرت بحداء

بالزجر بالشتم البذيء بضربة من سوط ذنب أو عصا رقطاء [١]

هكذا فقد انتهت المسيرة بانتصار الفضيلة على الرذيلة، انتصار الكلمة الحرة المسؤولة على كلمة الشر والنفاق والشقاق، انتصار المظلوم على الظالم، العفو والسماحة والإباء على الغدر والحقد والارتكاس، وبقي الإمام الحسين مناراً يقتدي به الأحرار في كل زمان ومكان، في حين أن يزيدَ أضحى مضرباً لأمثال المكر والخداع والوقيعة، التي يلجأ إليها الطغاة دائماً للتحكم بالرقاب والتصرف بالبلاد حتى على حساب أشلاء الأبرياء ودماء الأوصياء بعد الخطبة التي ألقتها زينب وفضحت فيها يزيد وقلبت الأوضاع ضدّه، اضطر لوضع أهل البيت في خرابة لا سقف لها، ومكثوا فيها ثلاثة أيّام ينوحون ويلطمون على الحسين.

إن عطر الولاية لكربلاء المقدسة بعالم العشق الإلهي المكلل بأريج الدم الزكي في تذكر دم الحسين الطاهر، ثم إلى خربة الشام من أجل التشفي بدمعة رقية بنت الحسين عليه السلام.

إن الحسين عليه السلام الذي نزف دمه في كربلاء، ليس دمعةً تُذرف ولا آهةً تطلق ولا حكايةً تروى فحسب، فالحسين دستور حياتي متكامل، وأنّ استشهاده عليه السلام فوق ثرى كربلاء يأمرنا أن نأخذ جميعاً من مناهجه الدروس والعبر من القيم ومناهج تطور الفكر الإنساني نحو إرساء عالم متحضر متآخٍ لدحر الظلم والإرهاب الأسود مستلهمين ذلك من مواقع وسلوك ومنهج ثورة الأمام الحسين

(١) ملحمة كربلاء، ماذا يقول الشعر، طالب الحيدري/ ٥٣.

ومن مصادق جهاده المحمدي النقي الذي رفض الظلم من أجل الحق[(١)]، وعبر عن هذا المعنى الشاعر الحسيني السيد زكي الياسري* قائلاً:

تاهَــت بوصــف جلالــكَ البُلغــاءُ   وتحيّــرت في كُنهــكَ العلمــاءُ

إنّ الحضارةَ يا حُسين ومَا حَوَتْ   مــن كربلائــكَ نورهــا وضَّــاءُ[(٢)]

هنا يؤكد الشاعر التحول المكاني لكربلاء من أرض تسكنها عسلان الفلوات إلى منبع للحضارات وهي المكان الذي يفيض نوراً فينير حضارات العالم.

لاشك أن الإمام الحسين عليه السلام له مكانة كبيرة في الفكر الإنساني بشكل عام والفكر الإسلامي بشكل خاص، فهو حفيد رسول الله محمد صل الله عليه وآله وسلم، وابن علي بن أبي طالب عليه السلام، حوى على القيم والشمائل التي تربى عليها لذا، فلأرض كربلاء الفخر والعزة أن يصرع عليها مثل الإمام الحسين، وهي الحاضنة لجسده الشريف وقد جعل منها الشاعر مكاناً يعادل كل الأرض وهذا ما عبر عنه الشاعر عمر الحديثي*:

يـا كـربلاءُ ألا اشـتدّي ففيـكِ فتـىً   ثقـلُ الوجـود زهـى أنْ فيـهِ يُختـزَلُ

---

(١) الأسس الفكرية للإصلاح السياسي في نهضة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، أحمد عدنان عزيز الميالي/٩٦.

*زكي الياسري النجفي: الولادة والنشأة كانت في مدينة النجف الاشرف في المحلة المعروفة بالعمارة التي كانت تعرف في الماضي بعمارة المؤمنين وهو من الشعراء المعاصرين وله مجموعة كبيرة من القصائد في آل البيت والإمام الحسين خاصة.

(٢) ديوان الافراح الحسينية، زكي الياسري / ٣٤.

*الشاعر عمر محمد سعيد الحديثي: شاعر عراقي سليل اسرة دينية معروفة في الانبار معروف تعلقها بأهل البيت! وللشاعر الحديثي اسهامات شعرية تحاور نهضة الحسين عليه السلام.

لـو عـادلوكِ وكُـلُّ الأرضِ كفَّـتُهُم أمـال معيارَهـا، الـسبطُ البهـا كَفِـلُ

هـذا الُحُـسينُ، دمُ الثّـوار مـذ خُلِقـت في سـتٍّ أيامهـا الأكـوان يكتمـلُ(١)

إن دوافع الإصلاح السياسي في نهضة الإمـام الحـسين عليـه الـسلام بـشكل أساس؛ هو إدراك الإمام الحسين عليه السلام أن خلافة معاوية ويزيـد لا تنـسجم وتتلائم مع الملامح العامة للقيادة الاسلامية(٢)، فقد عم الظلام وانتشر الجهل ولا بد من نجمٍ يظهر ليضيء لهذه الأمـة فكـان الحـسين كمـا عـبر عنـه الـشاعر عـارف الساعدي* قائلاً:

ولمـا اسـتفاق الظـلام ودبـت مدائنـه الرثـة الكـادرة

نهـضت وأرقـدت سـبعين نجمـاً يظلـون أنجمنـا الزاهـرة

وأنـت الوحيـد الـذي في يـديك قناديـل أروقـة الآخـرة

فأسـرجت، روحـك وسـط الظـلام ولألأت في الليلـة العاشـرة(٣)

وهكذا أصبحت كربلاء في شعر الشعراء الذين كتبـوا في واقعـة الطـف رمـز المواجهة بـين الحنفيـة البيـضاء، والـشرك المتلـصص، بـين الحـق الخـالص الـصريح، والباطـل المـدنس المزخـرف، بـين الـشجاعة والبطولـة والتحـدي، وبـين التذبـذب

(١) يا كربلاءُ ألا اشتدّي، عمر سعيد الحديثي / ٢١.

(٢) الأسس الفكرية للإصلاح السياسي في نهضة الإمـام الحـسين بـن علـي عليهمـا الـسلام، أحمد عدنان عزيز الميالي/٩٦.

*الشاعر عارف حمود سالم الساعدي: ولـد عـام ١٩٧٥ في بغـداد،رئيس رابطـة شـعراء الـشباب في بغداد/ الرصافة سابقاً، وعضو الرابطة المركزية للشعراء الشباب في العراق والاتحاد العام للأدبـاء والكتاب في العراق/ ١٩٩٩.

(٣) رحلة بلا ألوان، عارف الساعدي، قناة كربلاء الفضائية.

والإنطواء.. وأصبح الإمام الحسين عليه السلام في شعرهم كما هو في كل وجوده الشريف لواءً منشوراً حين سل سيفه بوجه المنحرفين والفاسدين [١].

وقد عبر الشاعر السيد مرتضى القزويني في المعنى نفسه من أن نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي الطريق الوحيد لخلاص الأمة من الإنحراف والفساد قائلاً.

أحييتَ دينَ اللهِ يا بنَ محمدٍ   وغديت دون الدب عنه وجودا

وسللت سيفك في وجوهٍ طالما   اتخذت لها طيش الهوى معبودا[٢]

إن الشعراء الذين ذكروا كربلاء في أشعارِهم كُثر، فقد وردت كربلاء بمضامين كثيرة عّبر الشعراء فيها عن حبهم وتقديسهم لهذه التربة الطاهرة.

وفي الأحوال كلها فإنّ الشاعر العراقي في استقرائه كربلاء قد تفنن في استعمال الألفاظ اللائقة لمقام هذه الأرض الطاهرة. فالشاعر" قد يستعمل كل حيل اللغة من البساطة الكاملة إلى البلاغة المعقدة فيذكي حرارته آناً من خلال الإيجاز وآناً من خلال الإطناب، وطوراً من طريق حذف التفضيلات وطوراً من طريق التكرار"[٣]، ليضفي على المتلقي الكثير من الإثارة والمتعة.

وللدكتور حازم الحلي* وقفة دامية مع الطفلة رقية بنت الحسين عليهما السلام التي كان دورها الأبرز في خربة دمشق جوار عروش الظالمين من بني أمية،

(١) كربلاء رمز المواجهة، شبكة الامامين الحسنين للفكر الاسلامي، مقال نت /٤٩.

(٢) قد سال قلبي، السيد مرتضى القزويني / ٥٤.

(٣) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابيث درو، ترجمة د. محمود إبراهيم الشوش / ٨٧.

*الدكتور حازم سليمان الحلي: شاعر عراقي مغترب من مواليد ١٩٥٢ يعمل رئيس هيئة في مجلة اوراق فراتية.

وكانت صرختها سلام الله عليها هزت بها اركان السلطان الأموي فكانت بحق (كلمة حق عند سلطان جائر).

صعدة من بني النبي بها ... طيبُ حسين ونفحة أحمدية
طفلةٌ أثقلت عليها الليالي ... حرمتها من بسمةٍ أبوية
ثم زادت أن عرضتها لأقسى ... الظلم من شرِّ زمرةٍ وحشية
فقدتْ أهلها الذين حَمَوها ... ثم سيقت الى دمشق سبية
أوجعتها السياط تُلهب ظهراً ... وهو ظهرٌ...لطفلةٍ عَلَوية
والحبال التي تشدُ يديها ... تأكل اللحم من يديها الطرية
هزها شوقها لوجه أبيها ... سألت: أين صاحب الأريحية
أين ذاك الأب الحنون الذي ... يلثم منها خدودها الوردية
لم تزل تذكر الصلاة التي كان ... ليؤدي نهاراً وبكرةً وعشيةً
عنده إذ تقوم وهو يصلي ... تسمع الجهر والصلاة الخفية
قلتم سافر الحبيب أما عاد ... وهل تلك سفرةٌ أبدية
وأتوا يحملون رأس أبيها ... فوق صحنٍ فيا لها من هدية
شخصا شهقةً وألقت عليه ... جسداً سارعت إليه المنية
هذه صورةٌ ستبقى مع ... التأريخ رمز الفضائح الأموية (١)

لقد تعلمنا من كربلاء الحسين كيف نضحي من أجل مبادئنا ومن أجل ديننا، فالشعر الكربلائي بما فيه من الجانب العاطفي فإنّه ينهض بكل ما يتسع له مفهوم الأدب من تحريك عواطف الناس وتنبيههم لواجباتهم، فلو استوعبت الشعوب الرسالة الحسينية وفهمت معانيها ومضامينها لما بقى الاستكبار العالمي

(١) السيدة رقية بنت الحسين عليهما السلام، الدكتور حازم الحلي / ٢٢.

يلح على نهب ثروات الشعوب وعلى انتهاك مقدساتهم كما يحصل في العراق وأفغانستان وفلسطين وكل بقعة يستضعف بها المسلمون [١].

لقد شع من كربلاء شعر وفير أقرّ أنَّ قداسة الإمام الحسين عليه السلام المَثل الأعلى في ضمير الأمّة ووجدانها، هي التي أسبغت على كربلاء كلَّ هذه القداسة وهذه الرمزيّة في الزمان، ونشرت كربلاء على كلّ الأرض عنواناً لميدان انتصار دم الحقّ على سيف الباطل، فكانت كلّ أرض كربلاء.

ذهبوا وأنت بقيت والسيّاف	صبّت عليه اللعنةَ الأسيافُ
ذهبوا وأنت بقيت ثاراً صارخاً	والثورة الحمراءُ والأهدافُ
دولٌ تهاوت تحت رجلك وانطوت	ليظل يخفق بندك الرفرافُ
هزوك فاهتزوا ومن أعماقهم	ذابوا وهاهو غيثُك الوكافُ
طوداً تطلّ على الحياة محلقاً	ترنو العيون إليه والآنافُ [٢]

وبما أن الشاعر أي شاعر "يُعد بحق تُرجماناً لوجدانه الفردي ووجدان أمته الجماعي" [٣]، فإنّ الشعراء لم يستطيعوا أن يتركوا الكتابةَ عن كربلاء التي شهدت مصرع سيد الشهداء على أرضها، فضلاً عن أن للمكان الحسيني أثرًا كبيراً في الشعر العراقي المعاصر، "فكل بقعةَ من مدينة كربلاء تحمل شيئاً من ذكرى آل البيت فهنا أقاموا خيامهم، وهناك ساحة جهادهم" [٤]، ويظل الشعر واللغة في

(١) مجلة الولاية، وصول سبايا الإمام الحسين عليه السلام إلى الشام، عدد٥٩، ٢٦/١٢/٢٠١١.

(٢) ملحمة كربلاء، لولا عطاء الخالدين، طالب الحيدري /١٠٩.

(٣) في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد الحديث، عثمان الموافي / ١٦٣.

(٤) الأدب العربي في كربلاء من إعلان الدستور العثماني إلى ثورة تموز١٩٥٨ (اتجاهاته وخصائصه ←

سباق مع الزمن، فمن قائل إنّ الشعر أساس اللغة وهو الذي يحملها لأنه بدأ شفوياً قبل نشوء اللغة ويظل النص الشعري من المستويات المعرفية الراقية شأنه شأن النثر والموسيقى، فضلاً عن ذلك لقد كانت الصورة معبرة من مكان مقفر وارض معركة إلى روضة من رياض الجنة نوّرها الإمام الحسين عليه السلام بدماء طاهرة زكية.

فقد هزت كربلاء ضمائر الشعراء وأججت مشاعرهم منذ أن شهدت أرضها أروع ملاحم الإباء وأسناها وتجسدت على ثراها أنبل المواقف الإنسانية وأسماها وخالطت تربتها أطهر الدماء وأزكاها فاستلهموا المعاني السامية والمبادئ العظيمة التي أصبحت شعاراً لكل إنسان يرفض الظلم والطغيان وينشد الحرية والكرامة. ولو أخذنا هذا الموضوع إحصاءً لضاقت به أضخم المجلدات وأوسعها لكثرة الشعراء الذين تناولوا ملحمة كربلاء في أشعارهم على مدى عصور التاريخ.

كان لكربلاء وما وقع فيها من أراقة دماء وقطع رؤوس نصيبٌ وافرٌ عند الشاعر اديب كمال الدين الذي اكد من خلال صورته استمرار النهج الحسيني إلى ابد الآبدين بقوله:

ثم قامت الملائكة والجن

وجهنم والجحيم

ثم قام الأنبياء والأولياء

حين تدحرج الرأس المثقل

ثم قامت السماء

وخصائصه الفنية) ن عبود جودي الحلي.

ثم قام حملة العرش

استمر الرأس يتدحرج

على الأرض

إلى أبد الآبدين! (١)

إن كربلاء عند هذا الشاعر دائمة البقاء وإن ما جرى فيها ليس إلا إنتصاراً للقيم والمبادئ والإرادة الحرة التي خطها الإمام الحسين بدمه الطاهر.

ويرى الشاعر أحمد الوائلي أن الدم الحسيني يتجدد في كل عام، وان الخلود والبقاء جاء عن طريق الدم الطاهر الذي أصبح نبراساً ومناراً للثورات العظيمة في العالم:

يا دماً كلما تشيب الليالي يجتليه الزمان وهو جديدُ

ماردٌ يحمل الحسين حساماً كلما مرّ بالوجودِ يزيدُ (٢)

لقد أصبحت ثورة الإمام الحسين عليه السلام نبراساً ومناراً للثورات، ومدرسة لكل من أراد من ثورته هدفاً مقدساً، تلك الثورة التي خرج من اجلها وتحمل ما تحمله من الويلات.

ويلوح الشاعر السيد طالب الحيدري إلى أن كربلاء صارت مزرعة للمجد غرس فيها الإمام الحسين عليه السلام غرسة المجد، هذه المزرعة التي كان ربيعها الدم الحسيني طرحت بيادرَ من ثمار المجد للأجيال:

يا لوحةٌ بدمٍ خُطّتْ مواسُمها ويا ربيعَ العطايا الحُمْرِ والخُضرِ

---

(١) المصدر نفسه / ٢٢.

(٢) الدم الثائر، د. الشيخ أحمد الوائلي / ٢٧.

زرعتَ في "كربلاء" المجدَ فارتفعتْ بيادٌ ترفدُ الأجيالَ بالثمرِ[(١)]

إن تأثير قضية الإمام الحسين عليه السلام تتجاوز زمانها ومكانها، وهي" قد أنتجت حركة فكرية ثقافية واسعة تطال مختلف جوانب المعرفة والحياة، كما قدمت منظومة مناقبية جديدة، تنبثق من روح المسؤولية والالتزام الأخلاقي، وتجلى ذلك في أخلاقيات معسكري الحادثة، حيث معسكر الإمام الحسين وأنصاره الذين دافعوا بعز وفداء وأخلاقية عالية عن الدين والمصلحة العامة، في مقابل من في المعسكر الآخر الذين سيطرت عليهم الأنا والمصالح والانتهازية على حساب ضمائرهم ودينهم وأمتهم"[(٢)]:

إنما المجد للذين يضحون بفإنّ لأجل آخر باق[(٣)]

يعرض الشاعر سلمان هادي آل طعمة* صورة مشابهة لصور من سبقوه من الشعراء وهي الحج للقبر الشريف، ذلك المكان الذي يتوافد إليه الزائرون من مختلف بقاع العالم، وقد تضمن شعره قول الإمام الحسين عليه السلام: **"من زارني في حياته زرته بعد مماته"** [(٤)].

تباهى الكون فيه إذ تجلى وأختى ليله ومحا نهاره

(١) ملحمة كربلاء، القربان، السيد طالب الحيدري /١٣٠.

(٢) نحو قراءة فلسفية اعمق لخطاب النهضة الحسينية، د. محمد سعيد الامجد، شبكة الإمامين الحسنين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلاميين، النت.

(٣) ملحمة كربلاء، الشعلة الخالدة، طالب الحيدري /٣٣.

*السيد سلمان بن السيد هادي آل طعمة ولد في كربلاء سنة ١٩٣٥، ونشأ بين ظهراني أسرة علوية عريقة تعرف بالسادة (آل طعمة) المتفرعة من قبيلة (آل فائز)، نشر المئات من البحوث والدراسات والمقالات في الصحف والمجلات العربية والعراقية.

(٤) الدروع الواقية، للسيد بن طاووس/ ٧٥، وتهذيب الأحكام، ج٦، ح٤٠ / ٤٨.

فمـــن زار الطفـــوف وســـاكنيه خطـــى مـــن فـــيض حـــبهم إمـــارة

ويـــا مثـــوى يحـــج إليـــه خلـــق تبـــارك مـــن ســـعى فيـــه وزارة

والجدير بالملاحظة أن الشعراء لم يتركوا صغيرة أو كبيرة من المشهد الكربلائي إلا كانت مادة لشعرهم، فهذا الشاعر آل طعمة يصف العباس بن علي بن أبي طالب عليهما السلام بـ(ساقي عطاشى كربلاء)، الذي كان لصولته في الوغى في طف كربلاء صدى في تحديه الجيش الأموي البغيض ونزوله الى المشرعة لجلب الماء للنساء والأطفال لا يهاب أحداً منهم.

جرى القضا وأي خطب قد جرى فهدَ من ساقي عطاشى كربلا

حـــام علـــى ورد المنـــون ثـــائراً وجـــرد العـــضب وأوقـــد الـــوغى

لاقـــى خميـــساً مـــادت الأرض لـــه ومالـــه حـــامٍ ســـوى ســـمر القنـــا

لم انسه يدعو اخاه السبط هل من شربة أسقى بها على الظما؟

خاض غمار الموت وهو ضاحك وعبس القوم وفروا مذ سطا[1]

العباس أخو الإمام الحسين عليهما السلام وقائد جيشه، حيث هرب منه أكثر من أربعة آلاف عسكري من جيش يزيد بن معاوية لما توجه للإتيان بالماء لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجرؤوا على الاقتراب منه[2].

فكانت كربلاء بقعة طاهرة ولكن زيد في طهارتها وعظمتها وأهميتها عندما أريق دم الحسين فيها ذلك القتيل المضرج بالدماء يشكو الخذلان وقلة الناصر كما رآه الشاعر آل طعمة في قصيدته (أبا العقيدة) قائلاً:

---

(١) المصدر نفسه / حامي الضعينة/ ١٢٥.

(٢) العباس رجل العقيدة والجهاد، السيد محمد علي يوسف الاشيقر /١٣٥.

قـف بـالطفوف محجـة الثـوارِ   واسـتوح ثـورة قائـد الأحـرارِ

أفديـه مـن بطـل يقـود جحـافلاً   غـراء يـومض عزمهـا كالنـارِ

هـذا الحـسين مـضرج بدمائـه   ظمـآن يـشكو قلـة الأنـصارِ

وهـوى كليـث الغـاب لا ينتابـه   خـور ولا جـزع بيـوم الثـارِ

وحواسـر صـرعى القلـوب حرائـر   يـبكين قتلـى الطـف في المـضمارِ [١]

وكان لعقيلة بني هاشم نصيب كبير في المأساة التي حدثت على أرض كربلاء حيث "كانت زينب صوت الحسين، وصولته.. ودم الحسين، وديمومته.. وشخص الحسين، وشخصيته.. وبصر الحسين وبصيرته.. كانت هي الحسين في قالب امرأة"[٢].

في الشام كانت زينب عليها السلام غريبةً وأسيرةً.. وكانت مظلومةً ومكظومةً.. وكانت محرومة ومهضومةً.. ولكنها لم تكن أبداً مهزومة، ولذلك فقد مدت قامتها كأنها الطود، ورفعت صوتها كأنّه الرعد، وصرخت في وجه الطاغوت قائلة: **كد كيدك واسع سعيك فو الله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا** [٣].

فكانت صورة الشاعر آل طعمة لعقيلة بني هاشم مطابقة، حيث وصف مواقفها الأبية السامية في عرصة كربلاء التي ساندت ثورة الإمام الحسين عليه السلام بكل صلابة قائلاً عنها:

وقاست خطوباً وهي مهضومة الحشا   كمـا هـضم المظلـوم والمتحيـف

مـصاب غـدت تبكـي العيـون لـه دمـاً   وكـل محـب دمعـه متوكـف

---

(١) ديوان المديح والرثاء في محمد وآل بيته النجباء، ابا العقيدة، سلمان آل طعمة/ ٨٤.

(٢) السيدة زينب الكبرى عليها السّلام من المهد إلى اللحد، للسيّد محمد كاظم القزويني/٦٨.

(٣) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج١ / ٦١٧.

لها في عراص الطف أسمى مواقف ... يذل لها جيش العدو ويرعف

ففي كربلا قد ساندت ثورة الإبا ... فلم تخش من جور ولا تتخوف

أتت زينب للشمر تشفي غليلها ... لتزجره طوراً وأخرى تعنف (١)

في الحقيقة لم أعثر على قصيدة للشاعر الدكتور محمد حسين آل ياسين يذكر فيها كربلاء في التسعينات، وبعد سؤاله دلني على هذه القصيدة في ديوانه (آل ياسين) التي كتبت في سنة ١٩٨٨م حيث يرى فيها أن الإمام الحسين عليه السلام دمعة حرّى دائمة الحضور في العين والقلب والوجدان، حيث لم تزل الفجيعة توجع القلب قائلاً:

لم تزل دمعةُ الفجيعة حرّى ... ذلَّ من قال لا تليق الدُّموعُ

كرُمتْ فاستقام من كل عينٍ ... سكبتُها على الخدود شفيعُ

لا يعيب الباكين دمعةُ حزنٍ ... إنما العيبُ دمعةٌ وخنوعُ

وأقضِّتْ مضاجعَ مترفاتٍ ... سّحنةُ الفوز ينتضيها ضجيعُ

وأصمَّتْ صحيفةٌ أذُن الـلا ... هِينَ تسري بهديها وتذيعُ

وغزا أعين اللئام من القـ ... ـد على أذرع السَّبايا سُطوعُ (٢)

ويرى الدكتور محمد حسين آل ياسين الارتباط العاطفي بين الامام الحسين عليه السلام وبين الشاعر.. فالدموع أقوى أنواع الارتباط لأنّ الدموع لا تنزل من الجفون إلا إذا كانت جوارح الإنسان تعتلج وتحتدم في داخله حزناً وعشقاً، ولكن

---

(١) ديوان المديح والرثاء في محمد وآل بيته النجباء، عقيلة بني هاشم، سلمان آل طعمة/ ١١٨.

(٢) ديوان آل ياسين، الحسين الخالد، د. محمد حسين آل ياسين /٢٦١.

في هذه الأبيات اعتذاراً عن نزول الدموع ناسياً أن أول من بكى الحسين عليه السلام هو رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلي عليه السلام.. وقد التفت الشاعر محمد الحلي إلى ذلك، وبين في أبياته المكان الحسيني في قوله (لتربته) أي المكان الذي أستشهد فيه الحسين عليه السلام والذي نبقى نفتديه رجالاً ونساءً:

شربنا في محبته كؤوساً ... يلذُّ الشاربون بها ارتواءا

وأدمجَ في جوانِحنِا هيامٌ ... رضينا من حلاوتهِ البلاءا

لقد أبكى رسولَ الله طفلاً ... فما أدنى لمقتلهِ البكاءا

وما أدنى إذا كنا فداءا ... لتربتهِ رجالاً أو نساءا (١)

إن تحولات المكان التي حصلت بعد واقعة الطف الخالدة لم تكن لشهادة أصحاب الحسين عليه السلام، بل كان ذلك لوجود ابن النبي صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام، إنّ الأمر الذي لا ينكر هو أنه كان لدماء الشهداء الزكية في واقعة طف كربلاء أثر وتمهيد لفضح الدولة الأُموية فيما بعد، إذ لو لم يكن الإمام الحسين عليه السلام صاحب كربلاء، لما كانت كربلاء التي نعرفها اليوم، ولا فاجعة عاشوراء التي تأخذ بمجاميع قلوب المؤمنين خاصة وأحرار العالم عامة.

إن واقعة كربلاء بعظمتها الفريدة من كل وجهة، وبكل أبطالها وبطولاتها، إنما استمدت خصائصها من الخصائص المنحصرة بصانع ملحمتها الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام، فكانت الحدث التاريخي الذي لا يرقى إليه أي حدث تاريخي آخر في مستوى تأثيره.

(١) نشيد الوفاء، محمد الحلي / ٤٣.

فقد رافقت المأساة الحسينية في كربلاء روح الشاعر العراقي عبر العصور فجسدها أحياناً بالتوجع بذكرها ووصف أحداثها وقد غلب هذا التوجه على الشعراء الرواد لاسيما في القصيدة العمودية حيث استخدم الشعراء واقعة الطف (كربلاء) بوصفها نموذجاً متميزاً للتضحية في سبيل القيم وذلك لتحريك الضمير الإنساني وحثه على السير في شارع القيم وبظل مبادئ الحسين عليه السلام، هذا الى جانب استلهامها في قصائد المناسبات الثورية بوصفها النموذج الأول من نوعه في قدرته على إثارة وعي المنتفضين ضد القهر، قهر السلطة أو المستعمر وعلى حد سواء.



الفصل الرابع

التشكيل البصري في تحولات المكان في الشعر الحسيني

مدخل

الشعر من أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور، ومادته الخيال، والخيال غذاؤه الحسُّ والعاطفة وإثارة النواحي الجمالية وعواطف القارئ وتحريكها من خلال تشكيل صور مشحونة بالإيحاءات واللعب على تنويعات اللغة والشكل والإيقاع، وعلى مدى الشعر العربي الحديث كان للشاعر العراقي التميّز الجلي في هذا الميدان، فكان في الصدارة من ناحية التجديد والتعبير ومن ناحية إضاءة زوايا محرّمة في تفاصيل العمل الأدبي.

وفي العصر الحديث مرت القصيدة العربية بعدد من التغيرات بداية، بكسر نظام القافية على يد عدد من الشعراء العرب منهم بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة فيما عرف بعد ذلك بالشعر الحر الذي أخذ مساحة واسعة من الإنتشار بعد منتصف القرن العشرين.

ثم جاء بعده نوع جديد من الشعر هو قصيدة النثر التي انتشرت على يد جيل ممن عرفوا بالشعراء الحداثيين منهم: أدونيس، أنسي الحاج، محمد الماغوط، حلمى سالم وغيرهم.

وفي التسعينات من القرن العشرين كانت الأشكال الشعرية إلى جانب قصيدة النثر مع ظهور جيل جديد من الشعراء الشبان الذين كتبوا في الأشكال

الشعرية كافة، وكتبوا شعرهم معتمدين على التفاصيل اليومية والحياتية وهو ما لاقى معارضة من بعض النقاد الذين سموه بالشعر المعاصر في أخريات القرن العشرين لأنّ الفنان المبدع والمتلقي يعيشان معاً، ويتصف هذا الفن بعدد من الصفات منها خروجه عن الأوزان المعهودة، أو كسر نظام القافية وهذا ما اعتدنا عليه منذ عصر الرواد، فليس الشكل سوى صورةٍ للمضمون الذي أخذ يتغير منذ بداية القرن العشرين حين ابتدأت بنية القصيدة تتغير وتتجدد من الشعر الغنائي الخالص إلى الشعر الدرامي فقد عرف شعرنا الحديث القصة الشعرية، والدراما الشعرية في بعض أعمال خليل مطران، وأحمد شوقي، والأخطل الصغير وشعراء المدرسة الإبداعية في مصر ومنهم علي محمود طه، وصالح جودت، وغيرهم، "فكان الخروج عن الوزن فيما بعد نتيجةً للمؤثرات الثقافية والاجتماعية من جهة، ولتطور بنية القصيدة العربية من جهة أخرى، وسمي ذلك الشعر مسميات منها الشعر الحر، والشعر المنطلق، والشعر الجديد، والشعر الحديث"[١].

إذا كان الأدب العربي يمثل الحياة الدائمة للغة العربية، فإنّ الشعر يمثل روح هذه اللغة ويستمر الرافد الأعظم والأسمى في رقيها وشموخها وازدهارها فيشع سناءً متقداً منوراً مسالك هذا الارتقاء ومواطنه نحو الكمال في جمالية منبعثة من خلال الحرف العربي، ويصب عميقاً في بحر اللغة العربية ليتحفها بمنابع الندى المشرق ويجري في عمق بلاغتها وبيانها ومن خلال رشاقة كلماتها واشتقاقها بعضها من بعض فتكتمل حلتها القشيبة بالقصائد المقفاة أو قصيدة التفعيلة الحرة أو من خلال قصائد النثر المعاصرة التي تعد في دور البناء والتطوير على أيدي الشعراء الشباب سابقاً.

---

(١) شعر التفعيلة.. وتطور بناء القصيدة العربية الحديثة، أُدباء وشعراء ومطبوعات، ٢٠١٢/١/٥

"والتشكيل البصري فن من فنون التصوير أو مبدأ من مبادئ التصوير الفوتوغرافي أو التشكيلي ويمكن الحديث عن التشكيل البصري في فن القولِ، كالتشكيل البصري في فن الشّعر: وقد أنجِزَت بكلية الآداب جامعة الملك سعود، منذ أربع سنوات أطروحَة دكتوراه في موضوع (الشعر الحَديثُ وتشكيله البصري)، أنجَزَها الباحث: محمد سالِم الصفراني هي مجموعَة أدوات فنية لَها أثرُها الجَمالي في بنية النص الشعري/ أثر التشكيل البصري في إنتاج الدلالة الشعرية / أثر التشكيل البصري في توليد الصورَة الشعريّة"[(١)].

والتشكيل البصري: هو رؤية العين الناقدة للنص الشعري فضلاً عن عمل المتخيل النقدي في قراءة النص، وبذلك يكون الناقد قد بصر وتخيل بدقة كل ما في النص من أسرار وخفايا فنية "وهذا النوع من الأشكال تحكمي وآلي لا يسعه تقديم دلالة ذات قيمة فنية، فالشكل المسبق المفروض على المضمون يمارس قمعاً وتسلطاً على المضمون الذي يريد أن يتشكل فيأتي الشكل المسبق ليحد من تشكله بصرامة؛ لذا كان لابد للمضمون من مخرج من تسلطية الأشكال المسبقة والقوالب الجامدة فكان التشكيل البصري النابع من المضامين والعائد إليها هو البديل والملاذ، فالشكل سابق على النص ومفروض عليه، أما التشكيل البصري فطارئ ومبتكر.

وقد كانت أحكام الشكلانيين على الشعر تعتمد على شيئين هما: الجدة والمفاجأة"[(٢)]. ويقول فيكتور شكلوفسكي في حديثه عن الشعر: "إن من واجب

---

(١) الشعر الحديث وتشكيله البصري، جريدة الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، ع/ ١٤٠٢٤، سنة ٢٠٠٦م.

(٢) فضاءات التشكيل والشكل، د. محمد الصفراني، جريدة الرياض/ ٦.

الشاعر أن يخلقه جديداً، وأن يخلقه غريباً، وإذا نظرنا إلى تطبيق الشكلانيين الروس لمبدأي الجدة والمفاجأة حكمنا أن الأمر نسبي"[١].

كما نلاحظ من خلال تتبعنا للأشكال الشعرية وتحولاتها المكانية والفنية أن ذلك مرتبط بثقافة الشاعر، ورهافة حسه، ونضج وعيه الفكري " إن الثقافة البصرية تهدف من خلال التشكيل البصري إلى تجسيد الإدراك الحسي للعالم لا إلى خلق التصورات عنه؛ وذلك من خلال دعوة المتلقي إلى التبصر في المعطى البصري للنص في غياب أي محفزات لتصور غير بصري.

وهي المخرج من المتمركز حول الصوت والتلقي السمعي "والتسلط" الناتج عن ثقافة الأذن فثقافة الأذن ثقافة السمع والمحافظة، إنها ثقافة الوثوقية والتقليد، ثقافة الأذن على الدوام ثقافة سلطة، أما العين فلما لها من قوة على شبكيتها ولما لها من قدرة على تعدد منظوراتها وزوايا نظرها تجعل الثقافة التي تعتمدها ثقافة نقدية وقد ميزت الثقافة البصرية تمييزاً مفيداً لقراء الشعر بين المخيلة المقيدة والمخيلة الحرة؛ الأولى: مخيلة سماعية عضلية تثور بالضرورة حتى لو كان الإنسان يقرأ لنفسه وهي واحدة، تقريبا لدى كل القراء الأكفاء. والثانية: بصرية وتتنوع بين شخص وآخر أو بين نمط ونمط، مما يجعل الثقافة البصرية هي المحفز الرئيس للتشكيل البصري في الشعر العربي الحديث"[٢].

إن تحولات المكان في الشعر الحسيني في العراق هي تحولات بصرية في الشكل لا سيما بعد أن تطور شكل القصيدة العربية وأصبحت تكتب بأشكال عديدة، والتشكيل البصري عموماً فيه أشكال عديدة كونه من الموضوعات

---

(١) التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، د. محمد سالم الصفراني/١٣.

(٢) فضاءات التشكيل والشكل، د. محمد الصفراني، جريدة الرياض / ٧.

النقدية التي ظهرت حديثاً إذ" يعاني التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث ندرة وفقراً في المفاهيم النقدية الإجرائية نظراً لقلة الدراسات السابقة من ناحية وعدم شموليتها من ناحية اخرى، ولذا فإنّ دراسة التشكيل البصري تتطلب منا مواجهة التشكيلات البصرية وجهاً لوجه من أجل اكتشاف القوانين العامة التي تتمظهر من خلالها، والأنماط الرئيسة لتجلياتها؛ حتى نتمكن من وصفها بمفاهيم نقدية ذات طبيعة إجرائية عامة صالحة لدراسة التشكيل الأدائي الشفهي التي تنظر إلى التشكيل البصري على أنّه عضو حيوي في نصوص الشعر العربي الحديث"[١].

ولهذا هناك أمور عديدة تشترك في التشكيل البصري، وهو عنصر أساس في الشعر الحسيني لأنه شعر منبر ومباشر ويثير العاطفة في نفس المتلقي.

أما التشكيلة البصرية فهي التي تقود القارئ الى "تعيين الجنس الادبي وتجعله يتبنى استراتيجية خاصة في قراءة النص بحسب ما يقرر ذلك الدكتور محمد الماكري[٢].

وفي هذا الفصل سنتناول التشكيلات البصرية في تحولات المكان في الشعر العراقي الحسيني الذي صور لنا تحولات المكان وتغيراته وقد وقع في مباحث هي: المبحث الأول الشكل الشعري المقفى، والمبحث الثاني: الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة)، والمبحث الثالث قصيدة النثر.

---

(١) التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، د. محمد سالم الصفراني/١٣.

(٢) ينظر: الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، محمد الماكري / ٥.

المبحث الأول

الشكل الشعري المقفى

عرف الشعر العربي عبر عصوره المختلفة أنماطًا من الخطاب الشعري، اختلفت في أُطرها ومحتواها. وكان الشعر العربي القديم قد استقر في شكله الذي اصطُلح على تسميته بالشعر العمودي، أو الشعر التقليدي المقفى. هذا المصطلح مأخوذ من مصطلح النقد القديم في وصف هذا النمط من الشعر بأنه يتبع عمود الشعر. وقد أرجع النقاد القدماء مقومات عمود الشعر إلى سمات متعددة منها ما يتصل باللفظ من حيث جرسه ومعناه في موضعه من البيت، أو ما يخص تصوير المعاني الجزئية وصلة بعضها ببعض في بنية القصيدة، أو مشاكلة اللفظ للمعنى، وما إلى ذلك من قيم استمدها النقد القديم من تلك السمات التي وقف عليها فيما بين يديه من قصائد.

وقد ثار بين قدامى النقاد العرب كثيرٌ من مسائل الخصومة حول عمود الشعر وما تفرع عنه من دلالات نقدية. وأهم ما يميز هذه القصيدة العمودية التزامها عمود الشعر وأنها تسير على سنن وتقاليد القصيدة العربية منذ الجاهلية؛ هذه القصائد العمودية التي يسمّيها النقد الحديث بالقصائد التقليدية، كانت تسير

على نمط شعري محدد في بحورها وأوزانها متَّبعة تلك الأوزان التي قننها الخليل بن أحمد الفراهيدي، كما تلتزم قافية موحدة وحرف رويّ موحداً، ويأتي البيت فيها مكونًا من صدر وعجز ومصرعٍ في أول القصيدة[١].

والشعر العربي عبر عصوره المختلفة له أنماط من الخطاب الشعري اختلفت في أطرها ومحتواها وكان الشعر العربي القديم عقب محاولاته الأولى التي لم تصل إلينا قد استقر في شكله الذي اصطلح على تسميته بالشعر العمودي.

والشعر العمودي: هو الشعر الذي سجلت به أقدم القصائد التي وصلتنا فقد كان هذا النمط الشعري هو النمط الوحيد الذي سجلت به القصائد العربية في عصورها الأولى ولم تظهر غيرها إلا في العصر الحديث بعد ظهور المدارس الحديثة المتحررة من الوزن والقافية وما زال العديد من الشعراء في العصر الحديث يميلون لاستخدام هذا اللون من الشعر[٢].

وأبرز من كتبوا هذا الشعر إذ تعددت الأسماء وتنوعت العصور التي اُستخدم فيها هذا اللون من الشعر وأبرزهم: امرؤ القيس، وعنترة بن شداد، ويعد هذان الشاعران من أعظم شعراء العصر الجاهلي، ومن شعراء العصر الإسلامي والعصر الأموي حسان بن ثابت، جرير، ومن الشعراء العباسيين البحتري، والمتنبي. ومن شعراء الأندلس ابن زيدون، وأبو البقاء الرندي، وفي العصر الحديث أحمد شوقي، محمود سامي البارودي[٣]. ومن الشعراء العراقيين المعاصرين محمد مهدي الجواهري، الدكتور أحمد الوائلي، والدكتور محمد حسين آل ياسين، وغيرهم.

---

(١) الاتجاهات الجديدة افي الشعر العربي المعاصر، د.عبد الحميد جودة السمار /٤٥.

(٢) الاتجاهات الجديدة افي الشعر العربي المعاصر، د.عبد الحميد جودة السمار /٤٨.

(٣) ينظر: الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، الدكتور جودت الركابي/ ٣٣.

عمود الشعر لغةً واصطلاحًا

لغةً: العمود عمود البيت وهو الخشبة القائمة في وسط الخباء، والجمع أعمدة وعمد، وعمود الأمر قِوامه الذي لا يستقيم إلاّ به، والعميد: السيد المعتمد عليه في الأمور أو المعمود إليه [(١)].

اصطلاحاً: هو طريقة العرب في نظم الشعر لا ما أحدثه المولدون والمتأخرون أو هو القواعد الكلاسيكية للشعر العربي التي يجب على الشاعر أن يأخذ بها، فيحكم له أو عليه بمقتضاها [(٢)]، كما يُعرَّف كذلك بأنه: مجموعة الخصائص الفنية المتوفرة في قصائد فحول الشعراء التي ينبغي أن تتوفر في الشعر ليكون جيدًا.

ويُعرَّف أيضاً بأنه: التقاليد الشعرية المتوارثة أو السنن المتبعة عند شعراء العربية، فمن سار على هذه السنن، وراعى تلك التقاليد، قيل عنه: إنّه التزم عمود الشعر، واتبع طريقة العرب، ومن حاد عن تلك التقاليد، وعدل عن تلك السنن قيل عنه: إنّه قد خرج عن عمود الشعر، وخالف طريقة العرب.

وعلى الرغم من أن موضوع كربلاء قد تناوله الشعراء من مختلف المدارس إلا أن الشعر العمود كان النمط الشعري الأعم والأغلب في كتابات الشعراء، وذلك اعتقاداً منهم أن شعر العمود هو أقدم أنواع الشعر وأكثرها أصالة، ومن الشعراء العراقيين المعاصرين الذين اعتمدوا أسلوب الشعر العمودي هو الشيخ الدكتور أحمد الوائلي الذي جعل من الحسين عليه السلام ملاذاً لمن يضِلّ عن

---

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، والفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (عَمَدَ).

(٢) ينظر: معجم النقد العربي القديم، أحمد مطلوب، ج٢ / ١٣٣.

جادة الصواب، وتختلط عليه مفردات حياته بصورة لا يفرق فيها بين صادرة وواردة، بين ما يعطيه وما يأخذه في تعامله مع نفسه ومع الناس، وحري بالحسين عليه السلام أن يكون مناراً للتائهين في غمار الدنيا التي تسلب من الضعفاء نفوسهم قبل كل شيء، فنلاحظ تحول المكان الحسيني من صحراء مجدبة إلى رياض وعطور فواحةٍ.

حــــري بمثلـــك أن يخلـــدا   وأن يـــصبح البطـــل المفـــردا

ضــربت لنــا مــثلاً في الإبــاءِ   يعلمنـــا النبـــل والـــسؤددا

تعلمنـــا كيـــف يحيـــى وكيـــف   يموت الفتى شامخاً أصيدا[1]

فمع الحسين عليه السلام يُكتسب الوجود معناه، فالإيمان بقضية ما يعني العيش من أجل تلك القضية، والاستعداد للموت والتضحية من أجلها، فلابد من وجود معنى "فاللامعنى يحرم الحياة من الامتلاء وبالتالي فهو يعادل المرض، فالمعنى يجعل الكثير من الأشياء ممكنة التحمل، وربما يجعل كل شيء محتملا...."[2]، يرى طالب الحيدري أنَّ المعاني مخلدةٌ في شخص الإمام الحسين عليه السلام، فهو عطاءٌ لدنيا المجد، مَثَّلَ أنموذجاً فريداً في الخلود ما زال صوته مدوياً في مسامعنا منذ استشهاده عليه السلام وحتى يومنا هذا قائلاً:

فـديتك بـالنفس مـن ثـائر   وأقصى المنى أن أكون الفدى

أبـــيّ تلفـــع بالمكرمـــات   وبـالعز والتـضحيات ارتـدى

---

(١) ديوان الوائلي من قصيدة (حديث الجراح)، ج١/٤١.

(٢) ذكريات أحلام وتأملات، كارل غوستاف يونغ، ترجمة ناصر السعدون مراجعة د. سلمان الواسطي وردت في النص (وبالتالي)، والأصح أن يقال: (ومن ثمَّ) /٣٣٠.

ولم يـرَ أفـضل مـن أن يمـوت بـــين اللـــهاذم مستـــشهدا

تجــرّعَ كــأس الــردى باسمــاً ولم يعـــطِ أعـــداءه مقـــودا

أبـــى أن يمـــد يـــداً للئـــام وقـد مـدّها للمواضـي يـدا[١]

وقد حاول الشاعر الوائلي من خلال مخاطبته الإمام الحسين عليه السلام أن يصوغ فكرته في الأبيات اللاحقة، التي أكدت بقاء الذكرى الحسينيَّة خالدة في ضمير ألوان الزمن على الرغم من تباعد الحقب بوصفها درساً متجدداً ومستمراً باستمرار الصراع بين الخير والشر، فالشاعر أراد إيصال هذه الفكرة وهو" لا يحاول أن ينفس عن عاطفته فحسب، بل يحاول أن يؤديها في نوع من الأداء كفيل بأن ينفعل به متلقيه" [٢]

يـــا دمـــاً شـــابت الليـــالي عليـــه وهـــو لـــلآن في الرمـــال جديـــدُ

يحمـل الطـف والحـسين حـساماً كلمـــا مـــرّ بـــالوجود يزيـــدُ

وإذا عــــرّس الخنــــوع بجيــــل وانحنـــى منـــه للمذلَّـــة جيـــدُ

صـــاح بالرمـــل مـــن صـــداه دوّي فـــإذا الرمـــل فـــارسٌ صـــنديدُ

هكـــذا أنـــت كلمـــا افتقـــر الجيـــ ل لعـــزم فمـــن دمـــاك الرصـــيدُ

صـرخة لم يـضع صـداها وإن حـاول تـــضييعها الـــضجيج الـــشديدُ [٣]

ويعبر الشاعر فليح الركابي بأروع الكلمات ليشبه أرض الطف (كربلاء) بأرض مكة المكرمة ومن يطوف حول الضريح الطاهر للإمام الحسين عليه

(١) ملحمة كربلاء، سلام عليك، طالب الحيدري / ٢١.

(٢) وظيفة الأدب، بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي، د. محمد النويهي / ٢٦.

(٣) ديوان الشعر الواله في النبي وآله، أحمد الوائلي / ٩٩.

السلام، كما يصف حنينه اليها وهي روضة من رياض الجنة:

وعـــاودني الحـــنين إلى ريـــاضٍ	وأرض الطـــف مكـــة أو تكـــاد
فـــذاك الـــسبط يـــسكنها أمـــيراً	وبايعـــت النفـــوس ولا ارتـــداد
طـــوى كـــل الـــدهور وكـــان فجـــراً	ويبقـــى الـــوتر فيهـــا والعمـــاد
هـــي الـــنفس الأبيـــة قـــد تـــسامت	وفـــوق الـــشمس كـــان لهـــا مهـــاد
هلمـــوا باتبـــاع الـــسبط ســـعياً	بـــه طـــاف الحجـــيج ويـــستزاد [(١)]

وفي قصيدة أخرى يقدم الشاعر الركابي الشكل البصري هو الشكل الشعري التقليدي يصف فيها حاله حين وفد على الإمام الحسين عليه السلام زائراً بقلب ظامئ ملهوف يطوف بضريحه كما يطوف الحجيج حول بيت الله الحرام.

وفـــدّت عليـــك بقلـــبٍ ظمـــي	تبـــاركَ يومـــك مـــن ملـــهمِ
تبـــاركَ يومـــك يـــوم الإبـــا	يلـــوذُ بـــه كـــلُ أنـــفٍ حمـــي
فطفـــتُ بروضـــك طـــوف الحجـــيج	ولبّيـــتُ باسمـــك كـــالمحُرمِ
تحـــجُ اليـــك الوفـــود فمـــن	تقـــيّ صـــدوقٍ ومـــن مُجْهـــمِ
ســـلام عليـــك علـــى منحـــرٍ	يجـــزّ الـــسيوف ولم يُلـــثمِ
ســـلام علـــى أضـــلع حانيـــاتٍ	شـــربن الـــصهيل ونـــزف الـــدمِ
ســـلام علـــى إصـــبع شـــع في الأعـــ	ـــصر الخاويـــات ورغـــم العمِـــي

الى قوله:

شـــددنا الرحـــال بـــرغم النبـــاح	لأنـــك فـــيض مـــن الزمـــزمِ

(١) منامات مستيقظة، منام في حضرة السفينة، فليح الركابي / ٥.

لأنـك أنـت الطهـور وركـن الحطـيم   تبـــــارك مــــــن مـــــنعمِ [(١)]

إن الشكل البصري المقفى هو المطلوب في هذا المقام لأنَّ المنبر الحسيني يحتاج إلى شعر مباشر وخطابي حتى تزداد اللوعة في نفس المتلقي وأن التحول المكاني واضح في هذا الشكل الشعري فالمكان أصبح روضة من رياض الجنة تحج إليه الملايين كل عام.

ويصف الشاعر جابر الجابري من خلال القصيدة العمود تضحيات الإمام الحسين عليه السلام في طف كربلاء التي قومت الأمة بأن جعلتها لا تركع للباطل مهما كانت التضحيات كبيرة قائلاً.

فمـــضينا نمــــلأ الـــدنيا هـــدى   ونعـــم الكـــون خـــيراً وســـلاما

ثـــــمّ أعلنــــــا بأنّــــــا أُمّـــــة   تفتـدي العنـق ولا تعطـي الزمامـا

يـــا ولـــي الأمـــر هبهـــا صـــرخة   بـــين شـــدقيك جحيمـــاً وضـــراما

ملئـــت ظلمـــاً وقـــد راقبتهـــا   كيـف تبـدو مـرّة الطبـع زؤامـا [(٢)]

والشاعر الجابري يصور مدى الظلم والحيف الذي لحق بآل البيت عليهم السلام في كربلاء الذي تفاقم حتى أصبح لا يطاق، فالزمن ظلم والمكان تحول إلى زؤام وقسوة على النفوس.

يـــا ليلـــة وقـــف الزمـــان بهـــا   وجـــــلاً يـــــدون أروع الـــــصورِ

وقــف الحــسين بهــا ومــن معــه   جـــبلاً وهـــم كجنـــادل الحجـــرِ

---

(١) المصدر نفسه، وفادة وطواف،د. فليح الركابي / ٨١.

(٢) لهم الشعر، جابر الجابري / ١٨.

مـــا هـــزهم عـــصف ولا رعـــشت　　　أعطـــافهم في داهـــم الخطـــرِ [١]

استطاع الـشاعر طالـب الحيـدري اختـزال أجـواء واقعـة الطـف في صـور إعتمدت السرد البصري للوصول الى أكثر من جانب، بغية الكـشف عـن الموقـف الأكثر التصاقاً بمعاني البطولة والإنسانية التي جسدها الإمام عليه السلام من خلال وقفته تلك.. وإن التحولات المكانية كانت تؤشر للتحولات الزمانيـة، وأن أولئـك الجماعة الصالحة كانوا جبالاً في وجه عاصفة العدو الغاشـم وأنّ كـربلاء بفـضلهم أصبحت قبلة العالم فضلاً عن ذلك أنّ التشكيل البصري كـان تقليـدياً وفـق نظـام القصيدة العربية المعروفة.

و"كـــربلاءُ" لـــه في كـــلّ ناحيـــةٍ　　　في كـــلّ خارطـــةٍ نُـــصُبٌ وتمثـــالُ

هنـــا الخلـــودُ هنـــا أسـنى مظـــاهرهِ　　　هنـــا اختـــصارٌ لمعنـــاهُ وإجمـــالُ

في كـــلّ عـــامٍ ويـــومُ الطـــفِ يبعثُنـــا　　　تلمُنـــــا فيـــــه آلامٌ وآمـــــالُ

حيـــثُ البطولـــةُ في صـــمتٍ تعلمُنـــا　　　كيـــفَ النزيـــفُ وكيـــفَ الجـــرحُ يختـــالُ

وكيـــفَ فـــردٌ يحـــامي عـــن عقيدتـــه　　　في كلّ عضوٍ مـن الاعـضاء رئبـالُ [٢]

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام أعطى الحياة نهجاً جديداً من خلال إغناء الفكر الإنساني بمعاني الإسلام الجهاديـة (الفـداء - التـضحية – الـصمود الـشهادة)، كـما علمنا كيف نؤمن بقضيتنا وندافع عنها، إذ إنَّ الدم الذي أريق على أرض كـربلاء أسرج شعلة ما تزال متوقدة، فكان الشرارة التي انطلقت بها الثورات في العالم أجمع وترسمت خطاه عليه السلام، ونلمس فيها من مبادئ الإمام الحسين عليه الـسلام،

(١) المصدر نفسه/ ٢٢.

(٢) ملحمة كربلاء، من قصيدة (بكم جننا)، طالب الحيدري/١٣٩.

وهذا جزء من فكر الشاعر الوائلي الذي أراد توصيله بشكل بصري تقليدي.

وعلّمنـــا أنّ الفـــداء فريـــضة … إذا افتقـر العـيشُ الكـريمُ إلى الفـدا

لمحــتُ رســومَ المجـد بيـضاءَ حـرة … علـى كـلِّ عـضوٍ منـك قطّـعَ بالمـدى

فـأكبرتُ فيـك الـدم أسـرجَ شـعلةً … بقلـب ظـلام الليـل حتـىّ تبـدّدا [١]

والشاعر محمد الحلي له أن يعبِّرَ عنْ أحاسيسه وخلجاته، وما يعنُّ له من أفكارٍ ورؤى وخيالات، وما ينفعل به وجدانه من أحداث، وما يُعايشه في مختلف جوانب الحياة، فهو يرى للتاريخ في كربلاء جبيناً تعلوه غرة ساطعة، هي رمز نهضة الحسين عليه السلام، وللكفاح سجلاً في صفحاته شعلة وضاءة هي ذكرى جهاد الحسين عليه السلام، وللمثل العليا دروساً قاسية تستوحي من مصرع الحسين عليه السلام، وللإنسانية الكاملة مبادئ عرفت أصولها بتضحية الحسين عليه السلام:

أبـا الأحـرار هـل أبقيـتَ مجـداً … عظيمـــاً لم تُذلِّلْـــهُ ارتقـــاءا

وقفـتَ تـرى حيـاض المـوت طفـلاً … تعانقُـــهُ وتحتـــضنُهُ انحنـــاءا

وذقـــتَ مـــرارةَ الخـــذلانِ جهـــراً … فلـم تخـذلْ بمـا خـضتِ الإبـاءا

وقـــد أبكـــاكَ أن تغـــدوا ســـبيلاً … لمـن قتلـوكَ أن يـردوا الـشقاءا

فـأيـــة رحمـــةٍ ســـكنتْ جموحـــاً … وأيُّ جمـــوحِ قلـــبٍ مـــا أفـــاءا

فلـــو أن البطولـــةَ مـــن حـــروفٍ … فأنـت ملكتَهـا ألِفَـاً ليـاءا [٢]

---

(١) إيقاع الفكر، أحمد الوائلي / ٤٢.

(٢) نشيد الوفاء، محمد الحلي / ٢.

يشير الدكتور عبود الحلي إلى منزلة السيدة زينب عليها السلام بنت أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليهما السلام، وقد وصفها بـ (اللبوة) إشارة إلى ما قامت من صروح النهضة الفكرية، ونشرت الوعي الديني في وقت تلبدت فيه أفكار الجماهير وتخدّرت وخفي عليها الواقع، وذلك من جرّاء ما تنشره وسائل الحكم الأموي من أن الأمويين أعلام الإسلام وحماة وقادة، فأفشلت مخططاتهم وأبطلت وسائل إعلامهم، وأبرزت بصورة واقعهم الملوّث بالجرائم والموبقات وانتهاك حقوق الإنسان بعد واقعة طف كربلاء:

لابنةِ الطف في الجنان مقامُ	ليس يرقى إليه إلاَ الإمامُ
جدّها المصطفى عليه من اللـ	ـهِ صلاة كثيرةٌ وسلامُ
إنها لبوة وكان أبوها	أسداً في الحروبِ ليس يضامُ
جاءت الطفَّ كي تشيّد صرحاً	دونه كل ما بناه الظلامُ

نصرتْ يومَ كربلاء أخاها	بلسان يكلّ عنه الحسامُ
لم يزلْ صوتها يرنّ شجياً	فسل الشام لو أجابتك شامُ (١)

تفاعل الشاعر محمد الحلي بإخلاص مع الإمام الحسين عليه السلام، إذ استطاع أن يجمع الدم والدمع ليصنع ملحمة خالدة ظلت مشاهدها تتكرر طوال قرون عديدة لتكون سلاحاً يصنع النصر ضد الطغاة، فيهوي لواء الجبن ويرف لواء الحق، إنّ" الأشكال البصرية المتعينة التي يتوسل بها التشكيل اللغوي للقصيدة

(١) ديوان في رحاب كربلاء، قصيدة أم المصائب زينب عليها السلام عقيلة بني هاشم، عبودالحلي/٤٥.

كأحد استراتيجيات التوصيل والتلقي استجابة لتطور الذائقة الجمالية في ظل معطيات العصر وإنجازاته"[١]:

ألفَ عام دماكَ تَهتِفُ جَهراً ... ألفَ هيهاتَ أنْ تكونَ ذليلا

أنتَ حرَّرْتَنا فصارتْ دِمانا ... عندَ ذِكراكَ من دِماك بديلا

فتقبّلْ يا ربُّ مِنّا عَزاءً ... بمُصابٍ أبْكى شَجاهُ الرَّسولا [٢]

إن الإمام الحسين رمز للشهادة والانتصار وقداستهُ حولت المكان الى روضة من روضات الجنة يقصدها المسلمون من مختلف بقاع الأرض.

فالكثير من الصور التي رسمها الشاعر محمد الحلي لا يقصد بها استدرار الدموع بقدر ما كان يعني بها بثّ لهيب العزائم في النفوس، فرسم لنا صورة الدماء المتدفقة بأرض الطف بمثابة النور له مصدر ينبثق منه الضوء ليجلو الظلام، فالشكل البصري خطابي مباشر لأنّ النور له متطلبات الذكرى:

دماءُ الحُسينِ بأرضِ الطُفوفِ ... أضاءت لكل الأنام المدى

وحسبي إلى الآن هذي الدماءُ ... تُنيرُ دِمانا بنورِ الهُدى [٣]

وينادي الشاعر الدكتور عبود الحلي كربلاء المقدسة بحزن عميق، ودموع هماله ويطلب منها توديع سبط الرسول صلى الله عليه وآله ويؤكد على انتصار الدم على السيف بقوله:

ودعي يا كربلا سبط الرسول ... بالبكا حزناً وبالدمع الهمول

---

(١) ينظر: قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، د. محمد عبد المطلب – دراسات أدبية /٣٥

(٢) الصرخة، د. محمد الحلي / ٢٢.

(٣) دماء الخلود، د. محمد الحلي / ١٥.

واشـــــهدي يــــوم الفـــــدا   وانتـــــــصارات الـــــــدما

واهتفـــــي في كـــــل حـــــين   يـا حـسين يـا حـسين يـا حـسين [(١)]

ويتطلع الشاعر عبود الحلي إلى شموخ كربلاء وعلو شأنها، والبطـولات الـتي حدثت على أرضها، وكيف أصبحت مصدر إلهام وعبرْ لكل طلاب الحق والعـدل وليس عَبرة ودمعة فقط بقوله:

اللّٰه يــا كــربلا كــم أنــت شــامخةٌ   كـل البطـولات في معنـاك تختـصرُ

أنــت الــشعارُ لمــن يحمــي عقيدتــهُ   ومنـك يـا كـربلا تـستلهمُ العـبرُ [(٢)]

يرى الشاعر مهدي جناح الكاظمي* (الحسين) هو ثـورة والأبعـاد الـسياسية للثورة الإنسانية العظيمة، وللنخبة المثقفة التي تنهل من مدرسة كربلاء العظيمة.

هــذي دمــاؤك يــا حــسين قوائــل   الـــسيف مقتـــول ونحـــرك قاتـــلُ

في كـــل أرض كـــربلاءُ نزيفهـــا   منهـا النفـوسُ الظامئـات نواهـلُ [(٣)]

يقترن دور العقيلة زينب عليها السلام في التاريخ الإسلامي بواقعة كـربلاء، فكما أن للحسين عليه السلام حقاً على المسلمين، كان لعقيلة بني هاشم حق على المسلمين الى يوم الدين، فلولا شهادة الحسين عليه السلام، ولولا وجود مـن يبلـغ رسالته التي أطلقها في عاشوراء لما كان مـن بعـده قـيم إيمانيـة ولا سـلام ولا صـلة

---

(١) ديوان في رحاب كربلاء، قصيدة روابي الطف، عبود الحلي /٦٤.

(٢) المصدر نفسه / ٦١.

* مهدي جناح الكاظمي: ولد في مدينة الكاظمية المشرفة سنة ١٩٥٠م، لـه ديـوان مطبـوع في سـنة ٢٠٠٣م عنوانه"تعلمت من الحسين".

(٣) ديوان تعلمت من الحسين، مهدي جناح الكاظمي / ٢.

تربط الإنسان بالدين. كما مما لا شك أن للسيدة زينب عليها السلام مزايا وصفات ميزتها عن النساء وجعلتها سيدتهن والنموذج المتعالي في سماء المجد والبطولة والافتخار، فهي السيدة التي فاقت الفرسان في عزيمتهم والصناديد في شكيمتهم، إنها المرأة الحية، اليقظة، التي أبان عن عزمها وصلابتها لحظة بدأ الطغيان، لذا فقد وصفها الشاعر محمد الحلي بأنها كأمها فاطمة الزهراء فصاحةً وكأبيها قوةً وبأساً قائلاً:

إنــيّ لَـأبكي حــينَ أذكرهــا ومــا ... أبكــي عَليهــا مُــشْفِقاً أرثيهــا

فهــيّ الــتي في كــربلاء تكلَّمــتْ ... بلــسانِ فاطِمــةٍ وبــأس أبِيهــا

يــا دمــعُ تبكــيني عُيــونُ المــصطفى ... تبكــي عليهــا والــذَّبيحِ أخيهــا (١)

إن في هذه الأبيات حضوراً مكانياً بل إنّ هذا الحضور المكاني كان حضوراً لفاطمة وعلي والمصطفى وزينب والحسين عليهم السلام أجمعين.

لقد أسهمت التحولات الشكلية الشعرية في تعميق الأسى في نفس المتلقي المشارك وكان تحول المكان الحسيني عنصراً رئيساً في بناء القصيدة، وقد تحول الشاعر معها نفسياً تبعاً لأستجابته لمصيبة الإمام الحسين عليه السلام.

يرى الشاعر عبد الباقي عبود* أن العشق الحسيني الذي يعد أطروحة إنسانية للرسالة المحمدية يحمل دلالات التضحية والتفاني في عاشوراء، وأن عشاق الإمام الحسين عليه السلام يتوافدون عليه من دون انقطاع أو ملل:

---

(١) ما رأيت إلا جميلا، د. محمد الحلي / ٢٤.

* عبد الباقي عبود التميمي: شاعر من مواليد العراق البصرة الفاو ١٩٥١، الشهادة بكالوريوس اداب قسم اللغة العربية، جامعة البصرة ١٩٧٣، عضو اتحاد الأُدباء والكتاب في البصرة.

من جرّب العشق فليقبر مواجعه قد ينتهي العشق يطوي دونه زمنا

أما الحسين فعشق دائم أبدا يلازم القلب والأمشاج والبدنا

يكفيك أن لنا في حبه عبقاً ما أن تذوب به أرواحنا سخنا

يكفيك ما ركدت أقدامنا عجزاً صبّ المسير على ايقاعها شجنا

يا درّ من تخذوا لألأء قبته رغم الردى أملا ما فارق المحنا

كلّ الملايين تمشي غير عابئة بالحاقدين وما قد لملموا فتنا [(١)]

وقد لاحظنا في هذا الشكل الشعري التقليدي وهو المقفى التزام الشاعر نهج سابقيه في التعبير عن تحولات المكان الحسيني الطاهر، ولكن الاستقرار والديمومة إلى ذلك المكان المقدس الذي أصبح مهوىً للأفئدة.

لابد أن تتطرق إلى الأشكال الشعرية وتحولاتها المكانية والفنية وأن القصيدة المقفاة قصيدة منبرية خطابية مباشرة، فهي الملائمة لمخاطبة جموع المعزين بمصاب أبي الأحرار عليه السلام، وهذا لا يعني قصور الفنون الأخرى، فلكل شاعر شكله الإبداعي للتعبير عن تحولات المكان الحسيني التي كانت في كل تطوراتها إيجابية.

---

(١) تحت ظلال المئذنة، عبد الباقي عبود التميمي /٥٦.

المبحث الثاني

الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة)

إن التجديد في الشعر ظاهرة طبيعية تطورية في كل مكان وزمان، وقد عرف الشعر العربي في تاريخه الطويل مظاهر تجديدية كثيرة بدءاً من بشار بن برد الذي كان آخر القدماء وأول المحدثين إلى أبي نواس الذي تمرد على نهج القصيدة ثم كانت ثورة أبي تمام الفعلية على (عمود الشعر)[1]، وصولاً إلى العصر الحديث حيث مرت القصيدة العربية بعدد من التغيرات عند عدد من الشعراء العرب منهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة فيما عرف بعد ذلك بالشعر الحر الذي أخذ مساحة واسعة من الانتشار في منتصف القرن العشرين الذي اصطلح عليه شعر التفعيلة فيما بعد هو يخضع في الواقع لقيود الشعر ويسير الشعراء في نظم أبياته على بحور الشعر ولكن ليس بالطريقة المألوفة نفسها، ففيه يكتفي الشعراء باستعمال تفعيلة واحدة غالباً... وهذا معناه الاكتفاء بالبحور الصافية وهي البحور التي ينتج وزنها عن تكرار تفعيلة واحدة. وأهم قصيدة ظهرت حينها في شعر التفعيلة العربية هي قصيدة (الكوليرا) لنازك الملائكة وكانت كما يقال هي

---

(١) ينظر: حركة التطور والتجديد في الشعر العراقي الحديث، عربية توفيق لازم / ٣٠.

القصيدة الأولى في هذا النوع من الشعر، ويقول البعض إن الشاعر العراقي بدر شاكر السياب هو أول من ابتدع أشكالاً جديدة في الشعر العربي بقصيدته (هل كان حباًّ) التي نشرت في ديوانه (أزهار ذابلة) وقد صدر هذا الديوان عام ١٩٤٧م وهو العام نفسه الذي صدر فيه ديوان نازك (شظايا ورماد) وفيه عدد من قصائدها التي سمتها قصائد حرة[(١)].

ولا يعتبر الشعر الحر (التفعيلة) ابناً عاصياً للشعر العمودي التقليدي؛ وإنما هو شعر يبحث عن التجديد والتغيير من دون الخروج عن وصاية الأب الأكبر وهو الشعر العربي التقليدي بأوزانه الثابتة وقافيته الواحدة ومعانيه المعروفة ورواده أمثال السياب، ونازك، البياتي، وبلند الحيدري، وأمل دنقل وغيرهم[(٢)].

وفي الواقع فإنّ لكل قصيدة جمالها وقيمتها الأدبية سواء أكانت كتبت على النهج التقليدي كقصائد المتنبي والمعري وأحمد شوقي وغيرهم من شعراء العربية العظام أم كتبت بالشكل الشعري الجديد الذي يناسب إيقاع هذا العصر ومتطلباته، وتبقى للمعاني الرفيعة وحسن اختيار الوزن والبحر الشعري المناسب والألفاظ الجيدة والجميلة التي تناسب المعنى وتوضحه أهمية قصوى في تحديد مدى جمال القصيدة وشعرية قائلها... [(٣)].

والشعر الحر يعتبر أحد أفضل أنواع الأدب الحديث وأنواع الشعر المستحدثة... فهو الأكثر شيوعاً وتلقياً من بعد الشعر العمودي المقفى، ويتعمد على الاسترسال والإنسيابية في الكتابة فلا يلتزم بأحد البحور العربية المعروفة،

---

(١) ينظر: ديوان أزهار ذابلة، بدر شاكر السياب /٢٢.

(٢) ينظر: معالم العروض والقافية، للدكتور عمر الأسعد / ١٢٣.

(٣) ينظر: الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، محمد حسين الأعرجي / ٢٩.

وإن كان يلتزم بوحدة التفعيلة.. ونستطيع الاستدلال على النص التفعيلي من خلال قراءته وهو ما سماه الرواد بالشعر الحر، مع أنه شعر يعتمد على التفعيلة، كأساس عروضي للقصيدة إلا أنه لا يتقيد بعدد من التفعيلات في السطر الواحد، فالسطر قد يكون فيه تفعيلة واحدة أو أكثر، وربما جمع هذا النوع من الشعر، أوزاناً وقوافي مختلفة، أضف إلى ذلك، أن شعر التفعيلة لا يلتزم بروي ثابت بالقصيدة كلها، لأنّ هذا النوع من الشعر، لا يعتمد على استقلال البيت، بل هو يخرج عن مبدأ تساوي الأسطر. ولا يتبع الشاعر القواعد التقليدية لكتابة الشعر وإنما يكون حراً في الكتابة، فلا يتقيد الشاعر ببحر واحد أو قافية واحدة أو إيقاع واحد[١].

وبظهور الشعر الحُر، بدأ الشعراء يكتبون على نهج جديد باستخدامهم أعدادًا غير منتظمة من المقاطع في البيت الواحد وقافية غير موحدة وأوزانًا متداخلة ونهايات مختلفة الإيقاع في الأسطر. ولكن ليس الشعر الحُر حُرًا من كل قيد، وإنما يستخدم فنونًا لغوية أساسيةً مثل تكرار الحرف الواحد وتكرار الكلمات.

وقد استعمل الشاعر العراقي المعاصر هذا الشكل في كتابة القصيدة التي تناولت تحولات المكان الحسيني بشكل بصري حديث.

يا ساداتي

شواهد تلك الرماح

رجالهم

تدحرج الرؤوس في الأزقة

---

(١) ينظر: الكافي في علم العروض والقوافي، د. غالب الشاويش / ٣٢.

فاليوم كان البارحة

فاليوم كان البارحة [١]

وقوله:

مولاتي

إنّ الله..

إنّ البيت..

إنّ الأهل..

منجاة

لا بل مرسى لسفينة نوح والربان [٢]

فالشكل البصري كان مدرجاً ومنحدراً حتى الوصول إلى النتيجة النهائية، إن الإمام الحسين عليه السلام هو سفينة النجاة. وقد كانت أوتار الشاعر طالب الحيدري الصوتية تهتز طرباً لغناء نشيد الإمام الحسين عليه السلام، الذي ما فتئت دماؤه تتدفق عطاءً فاتحة ذراعيها في وجوه الظلم والبغي حتى ترديها، وترسم للشعوب طريق الخلاص، كما في قوله:

يا حسين

يصرخ كل الناس

يا حسين

(١) منامات مستيقظة، قراءة في منامات موحشة، د. فليح الركابي /٢٧.

(٢) المصدر نفسه، منام من كتب التاريخ المحجوبة/٣٥.

يصرخ حتى الصخر

يا حسين

تصاعد الأصوات للسماء

شاكية باكية حمراء

كأنها الإعصار

وكل حرف نابتاً مسمار

في قدمي جبار

لابد أن تنهار

أرائك قامت على الأشلاء

سابحة في برك الدماء

بفضل عاشوراء

بفضل ما قدمه الحسين (١)

الملاحظ أن تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي المعاصر خضعت لرؤية الشاعر الذي أخذ يكتب بأشكال حديثة، وأن هذا اللون من الشعر لم يقف عائقاً أمام المشهد الكربلائي أو الفكر الحسيني والتذكير بثورته العظيمة، بل إنّه كان دراميّاً في تقديم ذلك الحدث الدراماتيكي وهو ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

استوحى الشاعر حسب الشيخ جعفر من حادثة الطف مادة إلهامه وطاقة عاطفته فصاغ منها صوراً جديدة على نسق المناخ الشعري التجديدي الذي مثل

(١) ملحمة كربلاء، طالب الحيدري، من قصيدة حسين يا حسين، ج١ /١٧٦.

ثمرة الشعر العربي الموروث، ويمثل هذا اللون في شعره صدىً لاستجابة الشاعر لمؤثرات البيئة من حوله فهو يعبر بأقصى عاطفة ما تلقاه ذهنه وهو صغير من قصص الطف، فقد حملت قصيدته (الصخر والندى) إحساساً مشبعاً بمؤثرات البيئة الشيعية وعبرت عن مدى تأثره بها، إذ اختزن الشاعر الذي ولد ونشأ في مدينة العمارة، في وجدانه تلك المؤثرات للموروث الشيعي الراسخ والممتد والذي تبلورت حوله في الضمير الشعبي كافة مشاعر التظلّم والبطولة والوفاء والثبات والفداء[1]. وفي هذه القصيدة يصور لنا استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على أرض كربلاء هو رمز لكل شهيد في سبيل قضية نبيلة حيث أصبح راية تلتفّ حولها الجموع، حينما استقر به المطاف وبشكل بصري حديث على شكل القصيدة الحرة:

أُثخنتُ في مشتجر النبالِ

فأدركوني، قطعوا أوصالي

وعلّقوا رأسي على أسنة العوالي

ياصيحة البحر، وياعواصف الرمال

غطّي جبين الشرق بالسحائب الثقال

وأغرقي جوع الثرى ولوعة التلال

وأنبتي قواطع النصال

يقطف منها غاية الآمال

فتى بنيران الحروب صال[2]

---

(١) ملامح كربلاء في شعر حسب الشيخ جعفر، علي حسين يوسف، صحيفة الهدى /٥.

(٢) الصخر والندى حسب الشيخ جعفر/ ١٨١.

يتعاظم تشبث الشاعر بالصورة على قدر تعاظم ضغط المأساة على وجدانه وإحساسه ليمنحها بعداً أعمق من أبعادها التراجيدية فيرسم صورة الحزن المقدس ويوحد نفسه مع الصورة ليلبي نزوعه النفسي الملح الى أن يكون حاضراً ويتحول صوت الشاعر الى أنين هادر وسط الصحراء، وسط النبال والسيوف ليمتد الى أعماق الوجدان.

لا شك أن الأديب لا يريد العبث بمشاعر الناس وعواطفهم بل يريد تقديم رسالة إليهم عبر الكلام المؤثر والنظم الجميل، وهو بذلك يرى نفسه مسؤولاً أمام كل حركة يقوم بها ليتطبع السامع أو القارئ بتلك المفاهيم التي يطرحها الأديب الشاعر ليخلق منه إنساناً كما يملي عليه ضميره وإلا فإنّ لم يكن يهدف به أمراً فهو عبث محض بل هو من لهو الحديث الذي يرفضه المثقف وإن كان كلاماً معسولاً يحتوي على الشر فهو السم المعسول والشعر الحرام وهو الانحراف والتآمر والخيانة:

أعذريني كربلاء...

فأنا الملهم... لكني تلكأتُ بوصف الفاجعة

أعذريني كربلاء...

فجراحات الضحايا... واستغاثات السبايا...

قطعت وحي القوافي الدامعة

أعذريني...

فدموعي...

أغرقت قرطاس شعري...

لست أدري...

كيف أدنو من حدود المجد في أرض الحسين؟

يا رمال الطف قولي...

سامحيني...

أعذريني... [١]

في هجير كربلاء نادى الإمام الحسين عليه السلام بالنصرة وألقى الحجة على الناس كل الناس: "ألا هل من ناصر ينصرني" [٢]، وصدى هذا النداء الذي انطلق من حنجرة الحق باق، لأنّ نصرة الحسين عليه السلام هي نصرة الرسالة المحمدية الخاتمة مادامت السماوات والأرض، وهذا النداء هو الذي شدّ الشاعر عبد الحسين ابن يوسف المطلبي* لكتابة قصائده في الموسوعة الحسينية وعقد جمانها الإمام الحسين عليه السلام، وهو يتذكر قطرات الدم التي أريقت على صعيد كربلاء عام ٦١ هجرية، فيقول:

وحروفٍ بعضها قد جُعلت

جسداً للنور والبعضُ رداءْ

قطرةٌ من دَمِهِ في كربلاء

هي حزمٌ هي عزمٌ ومضاءْ

---

(١) ديوان الشعر الحر، زكي الياسري النجفي / ٣٢.

(٢) كل ما في الكون يبكي الحسين، نزيه قميحا / ٤٥.

* الشاعر عبد الحسين بن يوسف المطلبي: المولود في ناحية المشرح في محافظة العمارة في العام ١٩٣٧م في أسرة أدبية وعلمية، وسكن بغداد منذ شبابه، فأنشد فيها ست قصائد من الشعر العمودي والحر، واختار لإحداها عنوان "أنت السفينة والبحار"، فكان هو عنوان الديوان الذي صدر عن بيت العلم للناهين في بيروت.

....

جسدَ الثائرِ والموتَ بقاءْ

يتغنى المطلبي بالموسوعة الحسينية التي "يعجز حتى الخيال على أن يحيط بها وصفاً وتصويرا"[١]، وفي القطعة الثالثة التي حملت عنوان الديوان، يقول المطلبي من الشعر الحر:

أنتِ السفينة والبحار

ربّانُها جسدٌ عنيتُ الرمحَ

تُحمَلُ فوقَه الشمسُ المضيئة من دم

حتى النشور[٢]

لقد طيف بزينب عليها السلام والسبايا في مدن كثيرة يقودهم الرأس المقدس إلى أن وصلوا دمشق الشام في رحلة شاقة مضنية، وهناك بدأت فصول أخرى من الترويع والشماتة بأهل البيت الطاهر، وعاشت السيدة زينب عليها السلام فصولاً من الترويع والترهيب والتهديد من حرق الخيام وسلبها، وترويع النساء وجلدها وفرار الأطفال في البيداء.

إن التحول البصري في قصيدة الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد يميل إلى تحول درامي، وخطاب تمثيلي مثير، لأنّ الحدث جسيم ويفترض أن النص يكون بمستوى الحدث.

صوت مليء بالرهبة يسمع من عمق المسرح وكأنه آتٍ من المجهول

---

(١) موسيقى الشعر العربي، مشروع دراسة علمية، د. شكري محمد عياد/١٨.

(٢) ديوان أنتِ السفينة والبحار، عبد الحسين بن يوسف المطلبي /٣٥.

سيُقتل الحسين

وسوف تبقى هذه العلامةْ

كل السيوف الوالغات في دمهْ

كل الرمال الشاربات من دمهْ

قانية تبقى الى القيامةْ

حسين.... حسين

يا موثق اليدين

يا مطلق اليدين

بعدك سوف تطفأ الشموع

وتكثر الدموع

وكلنا نعرى

وكلنا نجوع

يا حسين.... يا حسين (١)

لقد استوعب الشعر الحر تحولات المكان الحسيني السلبية والإيجابية وعبر بصدق عن مشاعر قائله، فضلاً عن ذلك أن الحداثة لم تكن عائقاً بوجه استذكار الإمام، وتصوير أماكن استشهاده وهجوم الأعداء على مخيمه، ورثائه فيما بعد والتغني بأمجاده كونه رمزاً إسلامياً دافع عن الدين المحمدي الأصيل، وكان مثالاً يحتذي به العالم.

---

(١) الحر الرياحي، عبد الرزاق عبد الواحد /٢٢.

المبحث الثالث

الشكل الشعري (قصيدة النثر)

إن مصطلح (قصيدة النثر) يحمل تحدّيات حقيقية، وإشكاليات متعددة تنبع من طبيعة تكونها وجوهرها، ومن ثم الانطلاق من خارج ذاته. كل ذلك عائد لاختلاف الرؤية النقدية تجاه مفهومات أدبية مثل (القصيدة، الشعر، النثر) بدءاً من أصولها الأولى وعبر صيرورتها في البيئة التي أنتجتها تحت مؤثرات كثيرة ومتنوعة.

فالنظرة إلى مدلولاتها الإصطلاحية في بيئاتها تختلف بين الغرب وأمريكا من جهة، والعرب من جهة أخرى عبر تاريخ الأدب لكليهما. فمن البديهي أن يكون لكل من الطرفين آراؤه، وطروحاته النقدية، وتصنيفاته الأدبية التي قد تتفق مع الطرف الآخر، وتخالفه في عدد من المواضع بسبب البعد الثقافي كتضارب العوامل النفسية (السيكولوجية) والفكرية (الأيدلوجية) والاجتماعية (السوسولوجية) لدى أدباء الطرفين ودارسيهم. فضلاً عن مصادر الثقافات في مدياتها وانعكاساتها على المنتج الأدبي لكل منهما وغيرها.

ولكون قصيدة النثر دخلت بقوة داخل منظومة القصيدة العربية (كتلة بنائية) على الرغم من أن الشعر مقومات خاصة مجازية، النثر (تراكيب تقريرية مباشرة)

كان لزاماً عليها احتلال موقع يؤهلها لتكون منجزاً أدبياً له القدرة على نقل التجربة الحياتية إلى تجربة شعورية فعالة. في الوقت الذي تشير فيه إلى أدواتها العاملة في تحريك التجربة الأدبية وفق مواصفات خاصة بها. ومن أجل الوقوف على وجودها كمصطلح أدبي، ينبغي الرجوع إلى البيئة التي ولدت فيها ثم انتقالاتها إلى بيئات أخر، مع تباينات الرؤية النقدية إليها خلال انبثاقها الزمني. ففي القرون الوسطى كانت فرنسا الأرض الصالحة التي أنبتت قصيدة النثر وتفتحت في روضة آدابها، بعد أن وجدت أدباء امتلكوا أذهاناً تؤرقها الرغبة شعورياً أو لاشعورياً في استخلاص شكل جديد للشعر[١].

إن البدايات الحقيقية لقصيدة النثر تعني بالضرورة بداية المصطلح، إلاّ أن بعض الباحثين يضع لها بداية تسبق بودلير من منطلق أن (قصيدة النثر قد أهملت جهود الشعراء الألمان من أمثال "كيسنر" Gessner و"نوفاليس" Novalis و"هولدريلن" Holdriilin في مطلع القرن التاسع عشر وقبل بودلير، تلك القصائد النثرية التي كتبها ستيفإنّ جورج وريلكة)[٢].

أما مصطلح قصيدة النثر وتطوُّره عند العرب، فإنه واجه مقاومة شديدة لرفضه عند عدد من الباحثين والأدباء، بمقابل اندفاع شديد لتقبّله، والتبشير به عند آخرين.

فقد استطاعت قصيدة النثر العربية أن تؤكد حضورها الفعال في الأدب

---

(١) ينظر: قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا، سوزان بيرنار، ترجمة د. زهير مجيد مغامس، مراجعة د.علي جواد الطاهر، دار المأمون، ١٩٩٣ / ٢٧.

(٢) قصيدة النثر في الأدب الإنكليزي، د. عبد الستار جواد، مجلة الأديب المعاصر، الاتحاد العام للأدباء والكتاب في القطر العراقي، العدد ٤١، كانون الثاني ١٩٩٠ /٤٦.

العربي منذ نهاية الخمسينات من القرن المنصرم (وكان ذلك في لبنان على يد جماعة من مجلة (شعر) اللبنانية وكان تعاطي قصيدة النثر على خجل في العراق ومصر)[١].

فالقصيدة العربية مثلما متفق عليه هي مجموعة من الأبيات الشعرية التي تزيد على سبعة أبيات تنظم أو تكتب على هيأة جزأين، يسمى الأول الصدر والثاني العجز، وتنتهي بحرف روي واحد متماثل في كل أبيات القصيدة أُطلق عليه القافية.

وهذا الشكل الخارجي للقصيدة العربية لا يصلح كنظام لكتابة قصيدة النثر، وهي إشكالية ولّدت ضغطاً شكلياً أحرج مناصري قصيدة النثر، وارتاح له رافضوها، أي أن ارتباط مفهوم القصيدة العربية بالشعر قادها إلى إشكالية أخرى تتعلق بمفهوم الشعر عند العرب فهو (قول موزون مقفى يدل على معنى) [٢] وفيه صورة. فإذا ارتبطت القصيدة بالشعر فإنها بالنتيجة ستدل على الوزن والقافية، وبالتالي سيكون النثر هو القول غير الموزون وغير المقفى، على نظرية أن النثر عكس الشعر. فكيف سيكون مصطلح قصيدة النثر إذا ما كانت القصيدة دالة على الشعر باحتوائه الوزن في حين يخلو منه النثر؟ وهو ما دفع نازك الملائكة إلى إظهار احتجاجها الصريح على استعمال هذا المصطلح في الشعرية العربية عندما ذكرت (إن القصيدة إما تكون قصيدة وهي إذ ذاك موزونة وليست نثراً، وإما أن تكون نثراً فهي إذن ليست قصيدة. فما معنى قولهم (قصيدة النثر) إذن؟) [٣]. وهي

---

(١) قصيدة النثر العربيةالنشأة والمرجعيات اللغوية، د. عادل نذير بيري الحساني، مجلة أهل البيت، كربلاء، العدد الخامس،٢٠٠٧ / ٥.

(٢) نقد الشعر،قدامة بن جعفر،تحقيق كمال مصطفى،مكتبة الغانجي مصرمكتبة المثنى بغداد/١٥.

(٣) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة بغداد، ط٢، ١٩٦٥ / ١٣٠.

الحجة التي تمسك بها كل مناهضي قصيدة النثر.

فقصيدة النثر العربية لم تكن بدعة ظهرت للوجود، وإنما هي مصطلح غربي على وفق رؤى عربية جديدة خاصة بها بواسطة شعرائها ودارسيها (وهذا ما يجعل مستقبلها رهناً بثقافة ووعي حملة ألويتها)[١]. فمصطلح قصيدة النثر يعني كما نراه أنّها قصيدة شعرية تحمل خصائص فنية وأنماطاً، واتجاهات، ومضامين قد لا تستطيع حملها القصيدة العمودية، أو قصيدة الشعر الحر (التفعيلة)، مما ولد صعوبة لدى غالبية الشعراء (إذ لا يمكن إلا لمن امتلك ملكة خاصة وثقافة حقيقية وموارد دقيقة أن ينجح في تمثيلها، وهو ما يفسر فشل أفواج من الشعراء التي استلهمت التوجه لكتابة هذا النمط الشعري)[٢] فهي كتابة على درجة ([الاختراق] الحدود بينها وألغى أسماءها، وألغى التعريفات بها.. هذه البقعة من الممارسة الخيالية الشعرية تجعل من أية ممارسة حرة شعراً، حتى لو كان هذا الشعر بدون شروطه المألوفة)[٣].

ويمكن القول إنّ كل الآراء التي قيلت في مصطلح قصيدة النثر ومفهومه، أنه مصطلح مختص بالشعر، إذ أن (قصيدة النثر هي شكل من أشكال الشعر الأخرى كالقصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة، وتشترك قصيدة النثر مع هذه الأشكال باحتوائها على المقومات الأساسية للشعر من لغة، وإيقاع، وصورة، ومضمون، لكنها تختلف عنه بحريتها الواسعة في كيفية استخدامها لتلك المقومات وتوظيفها وتتطرف في تفسير مدلولها الفني الاصطلاحي عبر طرق

---

(١) قصيدة النثر ومغامرة الحرية، (شبكة المعلومات، مصدر سابق).

(٢) الجنس الأدبي لقصيدة النثر في ضوء اللغة والإيقاع، د. عادل نذير بير / ٧٦.

(٣) قصيدة النثر بين الذائقة الفنية والرؤية الأيدلوجية (شبكة المعلومات، مصدر سابق)

ووسائل جديدة)[١].

حينما رفعت قبعتي

تحت تلك القباب

وجدت صهوة المجد في كربلاء

تشرق في كل المغارب

أو تغرب في كل المشارق

تعانق السماء

وتهدي إلى سراط قويم

إن النهار دائم في ذلك المقام

صحوة.. وخيال.. وحقيقة

وبقايا صليل سيوف

وجزّ رؤوس

ومسيل دماء

لكنما يشرق الحسين من بعيد كأنه الألق [٢]

فالشاعر استخدم شكلاً بصرياً حديثاً وهو قصيدة النثر ليبين لنا أن تحولات المكان كانت من حال إلى آخر.

وهناك استعمال آخر في قصيدة النثر التسعينية يتعين فيه المكان وما جرى

---

(١) قصيدة النثر، قصيدة مستقبلية دراسة واستنتاجات، صلاح فائق / ٧٩.

(٢) خدوش في ذاكرة الزمن، د. فليح الركابي / ١٦.

عليه من وقائع، وأحداث حركة زمانية أخرى ورافد معرفي فكري كما في[١] قول الشاعر عماد الحيدري*:

(أيها الهائمون...

الوافدون

إلى رائحة من رحيق الذنوب

تملأ قنوطكم

كربلاؤكم

نامت عليها الحجارة

ولما تزل تستغيث...)[٢]

إذ إن كربلاء، وما جرى عليها من أحداث دامية تعد معرفة، فئوية، عربية ذات أبعاد فكرية عقائدية يجعل منها الشاعر ديمومة، زمنية، تحركية، متجددة في كل مرحلة، فالمكان الحسيني (كربلاء) لا تعني مدينة فحسب، وإنما صارت بؤرة متوغلة في ثقافة المجتمع العربي قديمة وحديثه، وفي التطور المعرفي لدى المتلقي. فالشخصية العربية تحمل بعديها الذهني والعاطفي[٣].

---

(١) قصيدة النثر التسعينية في العراق أنماطها، اتجاهاتها وخصائصها، عماد كاظم خضير عباس العبيدي/١٦٨.

* عماد الحيدري: مواليد ١٩٧٠ محافظة النجف الأشرف، يعمل معلما جامعيا في مديرية تربية النجف، صدرت له الدواوين الآتية (صلاة الهجوع)، (أفياء تعرف ماذا تحب)، (يحاورها وقد دعتها السماء)، وله كتاب في التاريخ بعنوان (من ذاكرة الحيرة).

(٢) ديوان أفياء لا تحب الرماد، عماد الحيدري، مطبعة الأدباء في النجف الاشرف، ١٩٩٩/٨٠.

(٣) قصيدة النثر التسعينية في العراق أنماطها، اتجاهاتها وخصائصها، عماد كاظم خضير عباس العبيدي/١٦٨.

فالشاعر يتوجه إلى تحريك المشاعر من خلال أرض كربلاء (مكان). وبذلك صار توجه النص نحو استمالة الجوانب الفكرية، والعاطفية بوساطة المكان الذي صار قصداً معرفياً، له ثقله الأساس في بنية النص، وعاملاً موصلاً للتوتر الذي تنشده القصيدة في محاولة لزعزعة ثوابت التلقي.

إن قصيدة النثر فن شعري جسد ملحمة الطف وتحولاتها المكانية بأسلوب بصري يجمع بين الشكل الشعري والشكل النثري، وهذا الفن يتميز بالاختزال والتكثيف.

في قصيدة تترجم حب الشاعرة خلود المطلبي* للإمام الحسين عليه السلام وشوقها لرؤية قبابه الذهبية فكانت أولى قصائدها (حين تغادرني الروح إليك) تحدثت فيها عن هجرة روحها عبر الأثير إلى حيث الطف والتاريخ.. إلى حيث ترقد روح الإسلام مذبوحة بيد أبناء الطلقاء:

آهات الروح تغادر عجلى

تبحث عن تسبيح ملاك

عبر مسافات البعد

في أرجاء محيطات الأرض

ومن خلال أرض كربلاء كانت تخاطب قلبها العاشق للحسين وتحثه على تحدي العقبات تحمل المصاعب:

---

* خلود المطلبي شاعرة ومترجمة عراقية ولدت في ميسان، اتمزامير تحت سماء لندن (مجموعة شعرية) و(تحت سماء الثلج) (مجموعة شعرية) و(كتاب لوحة اروك) (مختارات ادبية عراقية بالانكليزية) كما لها عدة مخطوطات في الشعر والترجمة. وترجمت خلود المطلبي لعشرات الادباء العراقيين بما فيهم معظم الادباء الكبار.

يا هذا القلب العاشق أرض الطف

تسلق أقمار خشوع الليل

حيث ضجيج الحرب الدائرة

قرب ضريح ابن الزهراء

ثم تصف لنا كيف أن دموعها العاصفة بالحزن وروحها الولهانة قد غادرت كربلاء إلى حيث جنائن الحسين الخضراء بعد أن تعذر عليها القدوم بجسدها لتلثم ثراها الطاهر:

فالدمع العاصف بالحزن

والممزوج به جلارير الشوق

قد غادرني إليك

....

تغادرني الروحُ

لجنائنك الخضراءِ(١)

يصور الشاعر مشتاق عباس معن* عظمة ذبيح الحرية.. الإمام الحسين عليه السلام بقصيدته (إلى المذبوح بحدّ الفرات)، إن مقدار الاكتناز الفني الذي يحفل بنص الشاعر متأتٍ من قدرته على تكثيف الرؤى المستوحاة من شخصية الإمام

(١) حين تغادرني الروح إليك، خلود المطلبي /٣٧.

* مشتاق عباس معن: شاعر عراقي، حاصل على الدكتوراه في آداب اللغة العربية، شاعر تسعيني، له أربع مجاميع شعرية: ما تبقى من أنين الولوج / بغداد ١٩٩٧م، تجاعيد / اليمن ٢٠٠٣م، تباريح رقمية لسيرة بعضها زرق / تفاعلية رقمية ٢٠٠٧م، وطن بطعم الجرح / بغداد ٢٠١٣م.

الحسين عليه السلام.

لَّما أشَحْت عيونَكَ

وبصرتَ كفَّكَ في المدى

تلتفُ حولَ رماحِهِم... لتخُونَكْ

صافحت كف الموت

...علَّ دِمَاك

توْرِقُ في الثرى... لتكُونَكْ

...علَّ دِمَاك

تُوقِظُ في الفَضَا عِرقْا

لينبُضَ في فؤادِ الرِّيحِ

صاعقةْ...تكُونَكْ

...

يا سيدي أسْبِلْ جُفُوْنَك

لن يَشْعِلُوا أحداقَهُمْ

... هَل يتبعونَكْ (١)

أما الشاعر طالب عبد العزيز* فبدأ بناء المفارقة وهي أن أدخلَ واقعة تاريخية

---

(١) الأعمال الشعرية الورقية غير الكاملة، (إلى المذبوح بحد الفرات) مشتاق عباس معن/٣٢.

*طالب عبد العزيز عبد الله: شاعر عراقي ولد في ابي الخصيب بالبصرة عام ١٩٥٣ ويعد من اهم الشعراء العراقيين من جيل ثمانينات القرن العشرين إذ برز في كتابة قصيدة النثر ويعد أحد العلامات الفارقة في تجربة الشعر العراقي. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة (النت).

بارزة (واقعة الطف)، حين حصر الشاعر شخصية الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه بين صباح عاشوراء وظهيرِها، ثم يبرز ساحة الحرب التي تجسد طرفي المعركة، فالجانب الحسيني هو الإمام وابنه الصبي عليهما السلام، والجانب الآخر الذي تمثله سيوف الأعداء المشرعة، والرماح التي تحتطب المنايا في العراء:

إنكسار الصباح على الفرات"

والشمس سطر فسيفساء لم يتهشم"

"ولما كانت الشمس تذبل آخر الرمل

كرهت دمي

فجعلت قلبي على راحة سيفي

ومضيت إليهم"

" ولما بلغت جراح المائة

آويت إلى عمي

كي أموت أمامه"[(١)]

في كل زمان واقعة طف كربلاء، طلّت في أرضها سحابة الدم الحر الشهيد فأنبتت أجيال الشهداء الثوار، وها هي أصداء الصوت الأبي الذي أطلقه الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام تتردد في وادي الطفوف، وتقرع مسامع الأجيال، وتطوف في ربوع التاريخ إعصاراً يعصف بالطغاة، وبركان دم يهز عروش الظالمين ويوقظ الضمائر الحرة.

(١) ديوان مالا يفضحه السراج (على الرمل الآخر)، طالب عبد العزيز / ٥٤.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة الشاقة الأليمة في الوقت نفسه، أمّا عن كونها شاقة؛ فلغزارة ما كتب الشعراء العراقيون المعاصرون عن المكان الحسيني (كربلاء)، وأمّا عن كونها أليمة؛ فلما في شعر الشعراء من تصوير لمشاهد واقعة الطف التي حدثت على أرض كربلاء من قطع الرؤوس وتمثيل في الجثث الطاهرة، وبهذا يكون المكان مرتكزاً للشعر العراقي المعاصر، وقد توصلت إلى نتائج عدة منها:

١. شغل المكان حيزاً واسعاً عند شعراء المشهد الحسيني حتى أصبح عنصراً فاعلاً فيه.

٢. يعد الشعر المعاصر معجماً لألفاظ المكان لكثرة ورودها على ألسنة شعرائه.

٣. أثبت البحث أن للمكان الحسيني حضوراً كبيراً عند الشعراء المعاصرين.

٤. اتسم المكان الحسيني بأهميته بعد واقعة الطف الأليمة.

٥. ظهر من خلال الشعر أن لا فرق بين الحسين وكربلاء، فالذي يذكر كربلاء يعني الحسين والذي يذكر الحسين يعني كربلاء لأنهما مرتبطان ببعضهما،

فقد أحيت كربلاء من خلال الحسين عليه السلام.

٦. رحلة كربلاء مع الشعر أو بالأحرى حج الشعر والشعراء إلى كربلاء لم ينقطع رغم سياسات البطش والإرهاب الأموية والعباسية والبعثية، وبقيت كربلاء صرخة مدوية في الضمائر والقلوب.

٧. وقد كان للبيئة الكربلائية أثر في معاني المكان الحسيني، وأفكاره، فالمآتم الحسينية، وحشود الزائرين على المراقد المقدسة أججت في الشاعر مشاعر الولاء والحزن على مصائب آل البيت، فتميزت أشعارهم بالصدق بالعاطفة المتوقدة الجياشة.

٨. ظهر أن الذي سقط في المكان الحسيني (كربلاء) هو جسد الإمام الحسين عليه السلام، ولكن الذي انبعث وانطلق من أرض كربلاء هي قضية الإمام الحسين عليه السلام لذا فالأرض تقدس لقداسة من صرع فيها.

٩. لم تقف المكوّنات الأساسية في شعر المكان الحسيني سبباً أساسياً في خلود هذه القصائد، وإنّما مهارة الشاعر المعاصر وقدرته على استيعاب الأساليب الفنّية، كلّها أدوات تنمّ عن التطوّر والرقيّ الذي وصل إليه الشعر المعاصر.

١٠. فقد استعمل شعراؤنا الصورة البصريّة مع الصورة السمعية بنسبٍ متفاوتةٍ، وهذا يكشف عن أنّ الشاعر لا تكفيه الصورة البصرية، فيحتاج إلى بقية أنواع الصور ليكشف للمتلقي الملابسات والافتراءات التي تحدث عن طريق عملية السمع، فهذه الصورة تنقل المتلقي إلى نبض الحقيقة، مقارنة بالصورة البصرية، لأنّ الجيل الذي نشأ فيه الشاعر لم يعاصر أحد المعصومين، لذلك يكون اعتماده على السماع والأحاديث التي تُنقل عن أئمة آل البيت عليهم السلام، ويكمن

سبب أستعمال الصورة اللونيّة هو إدخال الحزن على المتلقي في إثارة مشاعره المرهفة، فهو ينقل السامع إلى المأساة بألوانها، والحقيقة بأجوائها.

وأخيراً ظهر أن الشعر الحسيني متدفق وحيٌّ لأنّ الموضوع متدفق ومتجدد وبالإمكان دراسة الزمن أو أي تحولات أخرى فيه. لذلك أرى أن توجه الجهود إلى مزيد من الدراسات لوضع اليد على ما يزخر به المكان الحسيني من قيم موضوعية وفنية.

المحتويات

التمهيد
أهمية المكان في النص الأدبي

الفصل الأول

كربلاء مكان طارد

الفصل الثاني

كربلاء المكان الحسيني الجاذب

الفصل الثالث

تحولات المكان الحسيني بعد واقعة الطف

الفصل الرابع
التشكيل البصري في تحولات المكان في الشعر الحسيني